2020
7.1.2020

هنينغ مانكل

الأحذية الإيطاليّة

رواية

ترجمها عن الفرنسية

أيف كادوري

وحازم عبيدو

روائع الأدب السويديّ الحديث

هنينغ مانكل

الأحذية الإيطاليّة

رواية

ترجمها عن الفرنسية

أيف كادوري

وحازم عبيدو

مراجعة

كاظم جهاد

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة»
بيانات الفهرسة أثناء النشر

PT9876.23.A49 C43125 2017

Mankell, Henning, 1948- 2015

الأحذية الإيطالية: رواية / تأليف هنينغ مانكل ؛ ترجمة أيف كادوري ؛ حازم عبيدو ؛مراجعة كاظم جهاد. - ط. 1. - أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2017.

371 ص. ؛ 14 × 21 سم.

ترجمة كتاب: Les chaussures italiennes

تدمك: 978-9948-23-394-7

1- القصة السويدية- القرن 21.

أ- كادوري، أيف. ب- عبيدو، حازم. ج- جهاد، كاظم. د- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة عن الفرنسية للنصّ السويديّ:

Henning Mankell

Italienska skor

Copyright © by Henning Mankell 2006

Published by agreement with Palco Media AB, Malmö, Leopard Förlag, Stockholm, and Copenhagen Literary Agency, Copenhagen.

كلمة KALIMA

www.kalima.ae

ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: 579 5995 2 971+

Abu Dhabi
Tourism & Culture للسياحة والثقافة

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لمشروع «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إشارة

تُرجمت هذه الرواية عن ترجمتها الفرنسيّة التي قامت بها آنّا جيبسون Anna Gibson (منشورات لو سوْي، باريس، 2009)، مع العودة إلى الترجمتين الإنكليزية والإيطالية، للمقارنة والتأكّد من صواب المعنى.

مقدّمة المُراجِع

هنينغ مانكل Henning Mankell كاتب سويديّ ولد في الثالث من فبراير 1948 وتوفيّ في الخامس من أكتوبر 2015. كتب في الرواية والمسرح وأدب الناشئة، ونال شهرة عالمية بفضل سلسلة روايات أدخل فيها معالجة خاصّة لفنّ الرواية البوليسية وبفضل فرادة بطل السلسلة، مفوّض الشرطة كورت فالاندير.

من مصادر تفرّد الكاتب حياة الحريّة والتجوال التي قيّض له أن يعيشها مبكّراً. فقد انفصل والداه وهو في سنته الأولى، وعني بتنشئته والده وكان قاضياً. أمضى شهوراً بباريس في سنته السادسة عشرة، حيث اشتغل في ورشة لتصليح الآلات الموسيقيّة، ثمّ التحق بالبحرية التجارية، ثمّ عاد إلى باريس، قبل أن ينتقل إلى النرويج. وفي العام 1972 اكتشف أفريقيا، إذ أقام لفترة في غينيا بيساو، ثمّ في زامبيا، ثمّ قرّر أن يقيم بالتناوب في السويد وموزامبيق. أسّس في البلد الأخير مسرحاً («تياترو أفينيدا» أو «مسرح الجادّة»)، كان هو المسرح الاحترافيّ الوحيد في العاصمة الموزمبيقيّة مابوتو. صار هو مديره الفنيّ ومخرج بعض أعماله ومؤلّفها، ودأب على تمويله ممّا تدرّ به عليه كتبه وترجماتها من أرباح عندما شرع بكتابة الرواية وقصص الناشئة ووضع كتباً واسعة الرواج. صرّح لاحقاً في حوار صحفيّ:

«علمّتني أفريقيا أن أرى نواقص أوروبّا، لا مبالاتها بالبؤس، وبرودها الثقافيّ» («تيليراما» *Télérama*، 20 نوفمبر 2010).

تدور أغلب أحداث سلسلة رواياته البوليسية في مدينة إستاد، الواقعة في منطقة سْكونيا في جنوب السويد، ولكنّ بطلها مفوّض الشرطة كورت فالاندير ينتقل في بعض تحقيقاته إلى أفريقيا الجنوبية، وإلى الدانمارك المجاورة مراراً. وشهرة مانكل التي عادت له بها سلسلته الروائية هذه آتية من كونه حمّل بطلها، هذا المفوضّ الإنسانيّ النزعة والمتمرّد على ما لاحظه في مجتمعه السويديّ من عزلة اجتماعية وكره صامت للأجانب، حمّله جلّ أفكاره في المجتمع والمصير الإنسانيّ والعلاقة بالآخر. فالروايات البوليسية التي تتشكّل منها السلسلة، إلى عامل التشويق فيها وحركيّة الأفعال والشخوص، إنّما هي بوّابة واسعة نفذ منها الكاتب وبطله لتشريح حياة السويديّين، والأوروبيّين بعامّة، وانتقادها من منطلق إنسانويّ أو عالم-ثالثيّ تماهى هو معه وأوجد له مكاناً في الرواية السويدية. وممّا زاد في شهرة السلسلة تحويلها إلى مسلسل تلفزيونيّ لعب فيه الممثّل البريطاني الشهير كينيث براناغ دور المفوّض فالاندير. بدأت السلسلة بمجموعة قصصيّة تلتها إحدى عشرة رواية نال مانكل عن أُولاها، «قتلة بلا وجوه» (1991)، جائزة الأكاديمية السويدية للرواية البوليسية في السويد والعالم الإسكندنافيّ.

بهذه السلسلة صار الكاتب ممثّلاً رئيساً لما عُرف بأدب الشمال البوليسيّ، أي الأدب البوليسيّ الإسكندنافيّ، المتميّز برؤية نقدية وسياسيّة حادّة لانعدام المساواة وتصاعد كره الأجانب وتزايد حضور اليمين المتطرّف. وقد صرّح الكاتب في حوارات عديدة أنّ الازدهار السويديّ إنْ هو

إلاّ وهْم. كما في قوله في الحوار المذكور أعلاه: «الحسناوات الشقراوات والتحرّر الجنسيّ، هذا كلّه خرافة. صحيح أنّ السويد بلد يطيب فيه العيش، ولكنّ هذا كلّه فردوس وهميّ. ففي الانتخابات التشريعية الأخيرة حقّق اليمين المتطرّف صعوداً لافتاً وفاز بعشرين مقعداً في البرلمان. في كلّ أنحاء أوروبا يتصاعد الحقد والتمييز العنصريّ. وهذه عوارض بلدان تتدهور اقتصاديّاً وثقافيّاً. والنزعة المحافِظة، شأنها شأن الفاشيّة، تولد من الخوف. الخوف من المستقبل، الذي يصوّر الآخر على أنّه تهديد وخطر، ويحوّله إلى كبش فداء».

أفاد مانكل من علاقته العائلية بالمخرج السويديّ إنغمار بريغمان (كان هو صهره، إذ تزوّج ابنته إيفا، وهي نفسها مصمّمة لوحات مسرحية ومديرة مسرح)، أفاد منها في أن يلفي نفسه باستمرار في محيط فنيّ معروف بالتزاماته الإنسانية وانغراسه في فلسفة قائمة على الانفتاح. كما أنّ إقامته في أفريقيا وعمله الدؤوب على إنعاش المسرح الموزمبيقيّ مكّناه من أن يكون منحازاً على الدوام للآخرين، في تنوّعهم واختلافهم.

هذا الخيار الأخلاقيّ والسياسيّ هو الذي جعله يشارك في «أسطول الحريّة» الذي انطلق من قبرص إلى غزّة في أواخر مايو 2010، حاملاً على متون سفنه مئات المتضامنين مع القضية الفلسطينية، جاؤوا في مبادرة سلميّة يحملون لأهالي غزّة مساعدات غذائية وطبيّة في ظلّ الحصار المفروض عليها من قبل إسرائيل. ولقد صُدِمَ العالَم كلّه بالنهاية الفاجعة التي لقيتها هذه المغامرة الشجاعة، على أثر اقتحام السفن من قبل الجنود الإسرائيليّين في فجر 31 مايو 2010، واستخدامهم الرصاص الحيّ والغاز، ممّا أسفر عن مصرع تسعة من الناشطين الأتراك، وتوقيف البقيّة، بما

فيهم هنينغ مانكل نفسه. نُقِل النشطاء إلى مركب عسكريّ ذهب بهم إلى إسرائيل، حيث احتُجزوا في معسكر اعتقال جماعيّ يسمّونه «مركز استقبال الأجانب»، تعرّض فيه الكثيرون منهم إلى مختلف أنواع الضرب والإذلال، قبل ترحيلهم إلى بلدانهم. احتجاجاً على هذا كلّه، أدلى مانكل بتصريحات مدويّة للعديد من الصحف، ونشر، بعد عودته إلى بلاده بيومين، يوميّاته للرحلة منذ أيّام انتظار انطلاق «أسطول الحريّة» من قبرص حتّى ترحيل الإسرائيليّين للنشطاء الذين أبحروا على متون سفنه، معاملين إيّاهم بخشونة، لا بل بروح إجراميّة وصفها الكاتب بتفاصيلها كلّها. وقد تُرجمت اليوميّات إلى مختلف اللّغات ونُشرت في عدّة صحف عالميّة. من تصريحاته بهذا الصدد («كورييه أنترناسيونال» *Courier international*، 3 حزيران 2010):

«يا ترى ما الذي سيفعله الإسرائيليّون لو جئنا في المرّة القادمة بمائة سفينة؟ هل سيطلقون علينا قنابل نوويّة؟»

«لم تتلقّ الدولة العبرية يوماً مثل ما تتلقّاه اليوم من شجبٍ في العالم كلّه. لقد حبست هذه الدولة نفسها في ممرّ مسدود. لم يعد العالمُ اليوم كما كان عليه قبل أسبوع».

«ما يدهشني إلى أقصى حدّ هو غباء الإسرائيليّين. فلو كانوا يريدون إيقافنا دون أن يخسروا ماء أوجههم، لكان بإمكانهم أنّ يعطّلوا مَراوح السفن ودفّات قيادتها ويقْطروننا إلى الشاطئ. أمّا أن يقوموا بمداهمة عنيفة ويقتلوا عدّة أفراد فهذا هو ما يدهشني».

وممّا كتبه في يوميات الرّحلة نقتطف هذه العيّنات (نقلاً عن الترجمة الفرنسية التي قامت بها آنّا جيبسون Anna Gibson، ووزّعتها وكالة رويتر

في الثالث من يونيو 2010 ونشرتها صحف عديدة):

«طوال الساعات الإحدى عشرة التي استغرقتها رحلة اقتيادنا إلى إسرائيل، تسنّى لي مراجعة ما حدث. لقد تصّرف الإسرائيليّون في الواقع كقراصنة ما داموا داهمونا في المياه الدولية. قراصنة ليسوا بأفضل من أولئك الذين يعيثون فساداً في السفن المارّة بالصومال. ومنذ اللحظة التي تسلّموا فيها دفّة القيادة واتّجهوا بنا إلى إسرائيل، صرنا رهائن. هذه العمليّة خارجة على القانون، من أوّلها إلى آخِرها».

«لدى وصولهم بنا إلى إسرائيل، لا أدري أين، أجبرونا على الجري في الشوارع، والتلفزيون العسكريّ يصوّرنا، أفكّر بهذا، بهذا بالذّات، وهو ما ما لن أغفره لهم أبداً».

«كثيرون يمكنهم الإدلاء بشهاداتهم. كثيرون سيقّرون بأنّ ما أرويه صحيح. يكفي مثال واحد. إلى جانبي، رفض أحد الموقوفين أن يسمح لهم بتسجيل بصمات أصابعه. وافق على أن يصوّروه لكن ليس على تسجيل بصمات أصابعه. كان يعتبر أنّه لم يقم بفعلٍ سيّئ. ضربوه. ألقوه أرضاً ثمّ جرّوه خارج القاعة. إلى أين؟ لا أعلم. أيّ كلمات ينبغي أن أستخدم؟ صنيع مقرف؟ غير إنسانيّ؟ أترك لكم الخيار»؟

«في طائرة العودة بعد ترحيلنا، منحتني المضيفة حذاءين، فقد سرق حذائيَّ أحدُ أعضاء الكوماندو الإسرائيليّ على متن السفينة حيث كنت».

«هي ذي أسطورة تهوي، أسطورة الجنديّ الإسرائيليّ الشجاع والخلوق. الآن بات يمكن القول إنّهم لصوص بذيئون. لست الوحيد الذي سرقوا منه كلّ شيء: النقود والبطاقة المصرفيّة والملابس وجهاز الاستماع الجوّال والحاسوب اليدويّ، هذا كلّه بقي عندهم. عديدون منّا

تعرّضوا لهذه المعاملة على متن سفينتنا التي داهمها في الفجر جنود ملثّمون ليسوا سوى قراصنة».

«غداة وصولي إلى منزلي، في الثاني من حزيران، رحتُ أستمع إلى غناء الشحرور. هو من أجل راحة أرواح من قُتِلوا».

«الآن يبقى ما ينبغي القيام به، وعدم نسيان الهدف المتمثّل في فكّ الحصار عن غزّة، ولسوف يُفَكّ، تليه أهداف أخرى. ينبغي إنهاء نظام الفصل العنصريّ. سيتطلّب هذا زمناً، لكنّه لن يكون أبديّاً».

وفي التاسع من يناير 2014، أعلن مانكل عن إصابته بسرطان في العنق وإحدى رئتيه، وكتب قائلاً: «قرّرتُ على الفور أن أكتب عن هذا المرض، لأنّه ألم ومعاناة يصيبان الكثير من الناس. ولكن سأكتب من منظور الحياة لا من منظور الموت». هكذا نشأ كتابه: «رمال متحرّكة - شذرات من حياة» (2015)، وجاء، كما عرّف به هو نفسه، «تفكيراً حول الحياة»، تتخلّله لقطات متعاقبة عن مسيرة خصبة في مختلف وجوه الأدب والنضال. وكما كتب ناشر الكتاب: «يصطحبنا مانكل في رحلة مدهشة، رحلة حياته من عزلة الغابات الواسعة في شمال السويد إلى حياة تمتدّ على أبعاد المعمورة، كما يصطحبنا في سفره الجوّانيّ، الذي بقي يشغله منذ طفولته».

هذا هو الإطار السياسيّ والاجتماعيّ-الثقافيّ والرّوحانيّ الذي تندرج فيه الرواية المترجمة هنا، والتي تقف بين أبرز روايات مانكل غير البوليسيّة. فهنا أيضاً يبرز شغفه في التعبير عن مآسٍ تتقاطع ويضيء بعضها البعض، وينجم عن تقاطعها وضوح بصيرة كبير. طبيب سابق يعيش منعزلاً في جزيرة معزولة، مغزوّة على الدوام بالجليد. تأتي لزيارته رفيقته السابقة التي لم يكن رآها منذ عقود من السنوات. تأتي زاحفة وقد سقطت من عُكّاز

رباعيّ كانت قد دأبت على استخدامه منذ فترة. هي مصابة بالسرطان وجاءت لرؤيته قبل أن تشهد نهايتها. ثمّ تُعرّفه على ابنته منها، التي لم يكن رآها قطّ، إذ كان قد هجر رفيقته قبل ولادة ابنتهما. ينتعش وجوده من جديد بحميّة ابنته ونزعتها الاحتجاجيّة واهتمامها بقضايا العالم، وبفلسفة رفيقته التي كانت تتهيّأ لملاقاة الموت بشجاعة وانفتاح. فيروح بعد وفاتها يعيش ما بقي له من العمر بالانفتاح ذاته. ولا تخلو هذه الرواية هي أيضاً من نظرة على عالم الغرباء والمهاجرين، إذ تصوّر لنا في بعض فصولها نضال مساعِدة اجتماعيّة تعمل على إعادة تأهيل بعض الشبّان المهاجرين الجانحين. هي نزعة إنسانية سخيّة يخطّها مانكل في مواقف وأفكار شديدة التفرّد، وبسيطة في آنٍ معاً، لا تخلو من دعابة تمنع عمله من السقوط في سوداودية أو احتجاجيّة إعلانية وشعاريّة كان سواه سيسقط فيها.

إنّه عمل مكتوب بتقشّف في الأدوات، يتمسّك بالوصف الموضوعيّ، بلا زيادة ولا زخارف ولا انفعال. كلّ حدث هو شذرة دالّة على حياة معيشة بنباهة عالية وشبه تقديس لأدنى التفاصيل، لأنّها في الحقيقة فسحة متأخّرة أو أخيرة من الحياة قرّرت الرفيقة السابقة المشرفة على الموت والمنبثقة من غياهب النسيان، ورفيقها الذي عاود ملاقاتها، أن يعيشاها حتّى الثمالة، مستمدّين من هذا القرار الوجوديّ الحاسم قوّة إضافيّة تمكّنهما من مرافقة ابنتهما وشخوص فتيّة أخرى في اندفاعاتها الخلّاقة وحركيّتها الفائقة. فإذا بالأجيال يصحّح بعضها البعض، والخلَف يغيّر تصوّرات السّلَف ويهبه نافذة جديدة وغير متوقّعة على العالَم وعلى الحياة.

كاظم جهاد

«عندما يكون الحذاء مناسباً لن تفكّر في القدم»

تشوانغ تزو[1]

«نقيضُ حقيقةٍ مبتذلةٍ، خطأٌ غبيّ.
نقيضُ حقيقةٍ عميقةٍ، حقيقةٌ عميقةٌ أخرى»

نيلز بور[2]

«الحبّ يد ناعمة تُزيح القدَر على مهَل».

سيغفريد سيفرتز[3]

(1) تشوانغ تزو (Chuang-Tzu أو Tshuang-Tse): فيلسوف وأديب صيني، عاش في النصف الثاني من القرن الرابع ق.م، يعدّ أهم فيلسوف في المذهب التاوي بعد معلّمه لا – وتسو (Lao-Tzu)، عاش معتزلاً بالقرب من جبل نان – هوا، وأطلق اسم هذا الجبل على نتاجه. (باستثناء ثلاثِ حواشٍ مقتبسة من حواشي الترجمة الفرنسيّة، ومُشار إليها في مواضعها، جميع الحواشي من وضع المترجمَين).

(2) نيلز هنريك ديفيد بور Niels Henrik David Bohr (1885 – 1962): عالم فيزياء دنماركيّ، حصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1922 لإسهاماته في هذا العلم، وبشكل أساسيّ في الفهم الحديث للبنية الذريّة وميكانيكا الكمّ.

(3) سيغفريد سيفرتز Sigfrid Siwertz (1882 – 1970): شاعر وكاتب مسرح سويديّ، ولد عام 1882 في ستوكهولم، وبقي عضواً في الأكاديميّة السويديّة من سنة 1932 حتّى وفاته في سنة 1970.

الجليد

(1)

أشعر بأنّي أكثر وحدة عندما يكون الجوُّ بارداً.

البرد في الجهة الأخرى من الزُّجاج يشبه البرد الآتي من جسدي. أنا مُستهدَف من الجهتين. بيد أنّي أقاوم البرد وأقاوم الوحدة. لذا أهيّئ كلّ صباح حفرة في الثلج. لو رآني أحدهم بمنظاره من الجهة الأخرى للمياه المتجمّدة لظنّ أنّي مجنون، ولَفكّر في أنّي أهيّئ لموتي. رجلٌ عارٍ في برد قارس، يحمل فأساً، ويحفر حفرة؟!

وربّما كنت في قرارة نفسي أتمنّى ذلك الشخص، شخصاً ما، ظلّاً أسود في هذا الامتداد الأبيض، يراني يوماً ويتساءل إن لم يكن عليه التدخّل قبل فوات الأوان. على أيّة حال لا داعي لإنقاذي، إذ ليس لديّ مشاريع للانتحار.

في زمن آخر وبعد الكارثة مباشرة فكّرت فعلاً بأن أضع حدّاً لحياتي. ومع ذلك، لم أتمكّن يوماً من الفعل. فالجبن كان على الدوام قرين حياتي المخلص. الآن كما في الماضي، أعتقد أنّ الرهان الوحيد لكائن على قيد الحياة هو ألّا يستسلم. الحياة غصن غضّ معلّق فوق الهاوية. أتشبَّث به ما دامت لديّ القوَّة، ثمّ أسقط مثل الآخرين، ولا أعرف ما الذي ينتظرني. هل سأجد في القاع من يتلقّفني؟ أم أنّ الظلام البارد والصَّلد هو وحده

الذي سيسارع لاستقبالي؟

لا يزال الجليد متماسكاً.

الشّتاء قاسٍ هذه السّنة من بدايات الألفيّة الجديدة. حين استفقتُ هذا الصباح، في ظلمة ديسمبر، بدا لي أنّي أسمع الجليد يغنّي. لا أعرف من أين خطر لي أنَّ الجليد يغنّي. ربّما من جدّي الذي ولد على هذه الجزيرة؛ ربّما ذكَر ذلك في إحدى القصص التي رواها لي حين كنت صغيراً.

الصَّوت الذي أيقظني لم يأت من القطّة ولا من الكلبة. فحيواناي نومهما أعمق من نومي. قطّتي عجوز وقد هرم جسدها، وأذن كلبتي اليمنى صمّاء، وهي لا تَسمع جيّداً بالأذن اليسرى، أمرُّ أمامها دون أن تشعر بوجودي.

لكن هذا الصّوت؟

أسلمت أذني للعتمة متتبعاً مصدر الصّوت، ربّما كان الجليد يتحرّك. علماً أنّ سُمكه هنا عند طرف هذا الخليج لا يقلُّ عن عشرة سنتمترات. في أحد أيام الأسبوع الفائت، كنت قلقاً أكثر من العادة، فذهبت إلى المكان الذي يلتقي فيه الجليد مع البحر. فرأيت الجليد ممتدّاً لأكثر من كيلو متر بعد آخر الجزر. هنا، في قاع الخليج لا يمكن إذنْ للجليد أن يتحرّك. ومع ذلك كان هذا الصباحَ يتحرّك ويطفُو، ويغوص، ويتقصّف، ويُغنّي.

وفيما كنت أسمع الصَّوت شعرت أنَّ الحياة مرّت سريعاً. أنا الآن هنا. رجل بلغ ستّة وستين عاماً، ويمكنه تحمّل أعبائه، لكنّه يحمل ذكرى تؤرّقه على الدوام. فقد كبرتُ في فقر لا يمكن تخيّله حاليّاً في هذا البلد. كان أبي نادلاً في مطعم، نادلاً مُهاناً وبديناً، وكان هاجس أمّي إطالة استخدام

ميزانية البيت أكثر ما يمكن. استطعت انتشال نفسي من تلك البئر. كنت وأنا صغير أقضي كلّ فترات الصيف ألعب هنا في المكان ذاته، على جزيرة جَدّيَّ، دون أدنى فكرة عن الوقت الآخذ في التضاؤل. في تلك الآونة، كان جدّاي مفعمين بالنشاط، لم تكن الشيخوخة قد اختزلتهما بعد إلى رقْدَة الانتظار. كانت تنبعث من جدّي رائحة السمك، وجدّتي دَرداء. كانت طيّبة على الدوام، ومع ذلك كان من المرعب رؤية ابتسامتها الأشبه بهوّة سوداء.

كنت لا أزال في الفصل الأوّل، وما هي إلّا برهة حتّى بدأت الخاتمة.

يغنّي الجليد في الظلمة خارجاً، وأنا أتساءل إن كنت سأصاب بجلطة. نهضت وأخذت قياس ضغط الدّم. كلّ شيء على ما يرام: 15/ 9، النبض طبيعيّ، أربع وستّون نبضة في الدّقيقة. لم يكن يوجعني أيّ مكان في جسدي ما عدا وخزٍ في قدمي اليسرى، اعتدت عليه، فما عاد يشغل بالي. ولكنّ الجليد في العتمة هناك يملؤني بعدم الارتياح. كأنّه جوقة أصوات مبهمة. نزلت إلى المطبخ وجلست إلى الطاولة أنتظر الفجر. كانت عوارض الجدران الخشبيّة تطقطق؛ ربّما بسبب البرد، أو أنّ فأراً يركض في أحد ممرّاتها السّريّة.

يشير المِحرار الخارجيّ إلى تسع عشرة درجة تحت الصفر.

سأفعل اليوم ما أفعله يومياً في الشّتاء. ألبس مئزر الحمّام وأنتعلُ جزمتي المقصوصة وآخذ الفأس وأنزل إلى الرّصيف. لا يلزمني وقتٌ طويل لأُفرغ حفرتي، إذ لا يتسنّى وقت للجليد ليتشكّل فيها ثانية. أتعرّى وأغطس في الماء. إنه مؤلم، ولكن بمجرّد خروجي يتحوّل البرد إلى دفء

شديد.

أنزل في الحفرة السّوداء لأتأكّد من أنّي ما زلت على قيد الحياة، كما لو أنّ الوحدة تخفّ قليلاً بعد الحمّام. يوماً ما قد أموت من صدمة البرد. في المكان الذي أغطس فيه تُلامس قدماي القاع؛ إذن لن أختفي تحت الجليد، سأظلّ واقفاً في حفرة الماء التي ستتجمّد حولي بسرعة، وسيكتشفني يانْسون الذي يوزّع البريد على هذه الجزر.

لن يفهم إلى آخر حياته ما حدث.

لا أبالي، هيّأت منزلي على هذه الجزيرة الصغيرة التي ورثتها، كقلعة لا يمكن لأحد أن يحتلّها. حين أتسلّق أعلى الصخرة التي خلف البيت أرى البحر، لا شيء آخر يظهر من هذه الجهة غير بضع جزر صغيرة، هي في الواقع أشبه بأحجار كبيرة لا تكاد تبين وجوهها السّودُ اللامعة فوق سطح الماء أو تحت غطاء الجليد. وإذا تلفّتُّ إلى الخلف من أعلى صخرتي لا أرى غير الأرخبيل الداخليّ، الذي هو أكثر كثافة. ولكن من أيّ مكان لا أرى بيتاً سوى بيتي.

طبعاً، لم أتخيّل الأمر على هذا النحو.

كان ينبغي أن يكون هذا المكان منزلي الريفيّ. وليس أشبه بحصن أخير أعيشُ فيه منفيّاً. عند كلّ صباح، وبعد أن أبلّل نفسي في حفرتي -أو في البحر صيفاً-، أتساءل كيف وصلتُ إلى هذا الدّرَك؟

أعرف ما حدث. لقد اقترفت خطأً ورفضت تحمّل عواقبه. ولكن لو كنت أعرف ما أعرفه الآن، كيف كنت سأتصرّف؟ ليس لديّ أدنى فكرة. ولكنّ من المؤكّد أنّي لن أكون حينها مجبراً على البقاء هنا مثل سجين في

آخر الأرخبيل.

كان ينبغي عليّ المضي وفق الخطّة التي رسمتها لنفسي.

مبكّراً وقع خياري على أن أكون طبيباً: اتّخذت القرار في اليوم الذي أكملت فيه الخمسة عشر عاماً. دعاني والدي حينها إلى المطعم. كانت دهشتي كبيرة؛ إنّه النادل، الذي كان صوناً لكرامته يكافح بعناد لكي يعمل في فترة الظهيرة ولا يقبل نهائياً بأن يعمل في الليل -عندما يفرضون ذلك عليه كان يرفض، وأتذكّر دموع أمّي في المرّات التي عاد فيها إلى البيت معلناً أنّه استقال من عمله-، وها هو فجأةً يريد دعوتي إلى العشاء في الخارج. تشاجر مع أمي، لم تكن هي تريدني أن أذهب، وفي نهاية المطاف أغلقت على نفسها في غرفتها. تلك كانت عادتها عندما يزعجها أحد. في بعض الأوقات العصيبة على نحو خاصّ كانت تمضي طوال الوقت في تلك الغرفة التي كانت تعبق دوماً برائحة الخزامى والدموع. في مثل هذه الحالات، كنت أنام على مقعد في المطبخ، وأبي، مع تنهّدات طويلة، يضع لنفسه فراشاً على الأرض.

صادفت في حياتي المهنية الكثير ممّن يبكون: أشخاص في طريقهم إلى الموت، وآخرون مرغمون على تقبّل إصابة أحد أقاربهم بمرض لا شفاء منه. ولكنّ أيّاً منهم لم يكن له دموع عطرة كدموع أمّي. في طريقي إلى المطعم، شرح لي أبي أنّ حساسيّتها مفرطة. وإلى الآن أتساءل عن جوابي حينها. ماذا كنت أستطيع أن أقول؟ أوّل ما أتذكّره من طفولتي أمّي وهي تبكي، كانت لديها قدرة على البكاء لساعات، بسبب قلّة المال، والفقر الذي كان يقضم حياتنا يوميّاً. كان يبدو على أبي أنّه غير مبالٍ، فحين يعود

مساءً ويجدها في مزاج رائق تكون الأمور على ما يرام، وإذا كانت تبكي في غرفتها التي لها رائحة الخزامى، تكون الأمور أيضاً على ما يرام. كان يكرّس سهراته لصفّ جنوده المصنوعين من الرّصاص، يرتّبهم بأكثر من طريقة ليعيد صياغة معركة تاريخيّة. أحياناً كان يأتي قبل أن أغفو ويجلس على طرف سريري؛ يقول لي بأسف وهو يداعب شعري إنّ حساسيّة أمي هي وراء عدم إنجابهما لي أخاً أو أختاً صغيرة.

كبرتُ على أرض غير مسكونة بين الدّموع وعساكر الرّصاص، في صحبةِ أبٍ كان لا ينفكّ يؤكّد أنّ الحذاء الجيّد هو ما يجمع النادل ومغنّي الأوبرا لينجزا عملهما على أحسن وجه.

لم تصمد إرادة أمّي أمام إرادته وما لبثنا أن أصبحنا على طاولة المطعم. حين بدأ النادل بتسجيل طلبنا جابههُ أبي بحشد من الأسئلة المحدّدة حول طريقة شواء لحم العجل الذي اختاره في النهاية، واخترت أنا سمك الرّنكة القادم من البلطيق. الصيف على هذه الجزيرة جعلني أفضّل السمك. ثمّ ابتعد النادل.

لأوّل مرّة في حياتي كان يسمح لي بكأس من النبيذ. ثملت على الفور. عندما انتهت الوجبة، ابتسم لي، وسألني عمّا أنوي فعله في المستقبل.

لم يكن لديّ أيّة فكرة عن هذا الموضوع. بذل أبي قصارى جهده ليسدّد نفقات المدرسة، لكن ذلك المبنى المشؤوم بأساتذته الذين يستدعون الشّفقة ورائحة الصوف المبلول في ممرّه، لم يمنحني فضاءً كافياً لأفكّر في أيّ مستقبل. الرهان هناك أن تنجو بجلدك يوماً بيوم، وألّا تترك أحداً يمسك بك وأنت مهملٌ فروضك، وألّا تجلب لنفسك التّوبيخ. دوماً كان

الغد قريباً؛ يستحيل تخيّل أفق أبعد من ثلاثة أشهر. وإلى الآن، لا أملك أيّة ذكرى تفيد أنّني تكلّمت مع رفاقي حول المستقبل.

- عمرك خمسة عشر عاماً، ألحّ أبي. آن الأوان لكي تختار مهنةً، ما رأيك في أن تعمل في مجال المطاعم؟ بإمكانك كسب المال وأنت تغسل الأطباق وتدفع تكاليف رحلة إلى أمريكا بعد أن تجتاز المرحلة المتوسّطة. من الجميل رؤية بلاد جديدة شريطة أن يكون لديك حذاء متين.

- لا أريد أن أصبح نادلاً.

أفلتت العبارة دون إرادة منّي. لم أتمكّن من تفسير ردّة فعله: هل شعر بالخيبة أم بالارتياح؟ أخذ رشفة نبيذ ولمس أرنبة أنفه. ثمّ سألني:

- أحقّاً ليس لديك أيّ مشروع؟

- لا، ليس لديّ.

- لا بدّ أنّ لديك فكرة. ما هي مادّتك المفضّلة؟

- الموسيقى.

- أنت تجيد الغناء؟ هذا مفاجئ.

- لا أجيده.

- هل تعلّمت سرّاً العزف على آلة ما؟

- لا.

- لماذا الموسيقى إذن؟

- رامبيرغ، أستاذ الموسيقى لا يمنحني أيّة عناية.

- ماذا تريد أن تقول؟

- هو لا يهتمّ إلّا بمَن يجيدون الغناء، حتّى إنّه لا يرى الآخرين.

- أتقصد أنّ مادّتك المفضّلة هي المادّة التي ليس لك فيها أيّ وجود؟

- الكيمياء أيضاً لا بأس بها.

بدا حائراً للوهلة الأولى، شارداً في تفاصيل دراسته البائسة، محاولاً أن يتذكّر ما إذا كان هناك مادّة اسمها الكيمياء. كنت أثناء ذلك كالمسحور وأنا أرى أبي يتحوّل تحت بصري. في السابق لم أكن ألحظ أيّ تغيّر يطرأ عليه سوى طريقة لباسه، حذائه، واللّون الرماديّ الذي يغزو شعره. ما حصل آنذاك أمام عينيّ لم يكن متوقّعاً. كأنّي بعجزه المفاجئ أراه للمرّة الأولى. بالرغم من الوقت الذي قضاه على طرف سريري، أو في السّباحة معي في الأرخبيل، كان يبدو لي بعيداً. أمّا الآن فيبدو لي أعزل وقريباً بشكل مدهش. فهمت أنّي كنت أقوى من الرّجل الذي يواجهني في الجانب الآخر من الغطاء الأبيض، على طاولة المطعم، حيث كانت الفرقة الموسيقيّة تعزف لحناً لا يسمعه أحد، وبينما يختلط دخان السجائر بالروائح المسكرة، كان مستوى النبيذ ينخفض مجدّداً في كأسه.

فجأةً عرفت كيف أجيبه. رأيت مستقبلي، أو بالأحرى صنعته في تلك اللحظة بالضبط. كان أبي يرمقني بعينيه الزرقاوين الرماديّتين. يبدو أنّ لحظة الضعف التي مرّ بها قد عبرت. ولكنّي رأيتها ولن أنسى ذلك أبداً.

- لماذا تحبّ الكيمياء؟ سألني.

- لأنّي أريد أن أصبح طبيباً، وليتحقّق ذلك، ينبغي معرفة المواد الكيميائية. أريد أن أصبح جرّاحاً.

- ماذا، أتريد أن تُعمِل مشرطكَ في النّاس؟

بدت عليه أمارات التقزّز.

- بلى.

- ولكن لا يمكنك أن تصبح طبيباً بالشهادة المتوسّطة...

- سأكمل، وأتقدّم لامتحان البكالوريا.

- وتترك أصابعك تعبث في أحشاء النّاس؟

- أريد أن أكون جرّاحاً.

تبيّن لي في تلك اللحظة مخطّط حياتي. إلى ذلك الوقت، لم أكن قد فكّرت للحظة أن أكون طبيباً. لم أكن أصاب بالإغماء لرؤية الدّم أو عندما أُحقَن بإبرة، ولكن لم أتخيّل مطلقاً أن أقضي حياتي في المستشفيات. في طريق عودتنا إلى البيت في ذلك المساء من أبريل، مع أبي المائل إلى السُّكر قليلاً، وأعوامي الخمسة عشر الدّائخة بفعل النبيذ، فهمت أنّي لم أجب على أسئلة أبي فقط، بل قطعت أيضاً على نفسي وعداً.

قَدْ أصبح طبيباً. وأكرّس حياتي لتشريط أجساد النّاس.

(2)

لم أستلم اليوم أيّ رسالة.

ولا البارحة. رغم ذلك يأتي يانْسون، ساعي الأرخبيل. مع أنّي منعته منذ اثني عشر عاماً من أن يرسي مركبه على رصيفي، إذا كانت الغاية من مجيئه جلب نشرات إعلانيّة. لم أعد أطيق عروض التخفيض على أسعار اللّحم المقدّد والحواسيب. أخبرته أنّي لا أريد أن تجمعني أيّة صلة بمَن يلاحقونني بعروضهم الخاصّة. الحياة ليست قسائم تخفيض، هذا ما حاولت شرحه ليانْسون. الحياة في العمق شيء جادّ. ثمّة رهان، لا أعرف ما هو، لكن ينبغي الإيمان بوجوده. المعنى العميق ماثلٌ في نقطة تتجاوز صكوك الهدايا وبطاقات اليانصيب.

أدّى ذلك إلى شجار، لم يكن الأوّل ولا الأخير. يخطر لي أحياناً أنّ ما يجمعني بيانْسون هو سخطنا الشّديد. بعد ذلك اليوم، لم يعد إلى إحضار نشرات إعلانيّة. آخر مرّة حمل لي فيها شيئاً كان رسالة من البلديّة. حدث ذلك قبل سبع سنوات ونصف. في يوم خريفيّ ينذر ببرد قارس آتٍ من الشّمال الشّرقي مع انخفاض في مستوى البحر، أتذكّر ذلك. كانت البلديّة تريد إخباري بأنّها منحتني قطعة أرض في المقبرة، وعلى حدّ قول يانْسون، هذه الخدمة الجديدة متوافرة للجميع: فالذين يملكون منزلاً

ثابتاً ويواظبون على دفع ضرائبهم من حقّهم أن يعرفوا أين سيدفنون وأن يذهبوا، إذا ما رغبوا في ذلك، لإلقاء نظرة والاستفسار عن جيرانهم القادمين.

هذه هي الرسالة الوحيدة التي وصلتني طوال اثني عشر عاماً، خارج الطّلبات الروتينيّة؛ كإشعارات صرف الراتب أو بيانات الدّخل وكشوف الحساب.

دوماً يصل يانْسون في الثانية بعد الظهر. أظنُّه مجبراً على القدوم إلى هنا، ليضمن أن تعوّض له شركة البريد كلّ تكاليف المركب أو الحوّامة المائية[1]. حاولت أن أسأله ولكنّه لم يخبرني. ربّما بفضل وجودي هنا لا يزال محتفظاً بعمله. فهو يرسي قاربه على رصيفي ثلاث مرّات في الأسبوع شتاءً، وخمساً في الصيف. ولذا لم تُلغَ جولته إلى الآن.

قبل خمسة عشر عاماً كان يقطن هذه الجزر نحو خمسين مقيماً دائماً. وكان ثمّة كذلك قارب يأخذ أربعة أولاد إلى المدرسة ويعيدهم. لم يتبقَّ منّا هذا العام سوى سبعة، واحد منّا فقط لم يبلغ الستّين، هو يانْسون. إنّه أصغر الجميع، ولذا فهو بحاجة ماسّة إلى أن نبقى على قيد الحياة، نحن المسنّين، وإلى أن نستمرّ بالعيش في جزُرنا. وإلّا فسُتلغى وظيفته.

لا أبالي. إنّه لا يروقني. يمكنني القول إنّه مريض مُتعِب. نادراً ما صادفت حالة مماثلة. ينتمي إلى فئة المرضى الوهميّين، المُوَسْوسين بالمرض إلى أقصى حدّ، وشبه الميؤوس من علاجهم. منذ عدّة أعوام، وكنت لم أكد

(1) Hydrocoptère: حوّامة مائيّة أو برمائيّة، وهي قارب مزدوج منشدود إلى هيكل واحد، ويسير بقوّة دفع محرّك جويّ، يشيع استخدامها في أوروبّا الشماليّة وفي المناطق الجليديّة.

أنتهي من معاينة حنجرته وقياس ضغطه، قال لي إنَّه يعتقد أنّ لديه ورماً في الدّماغ يمنعه من الرؤية بشكل جيّد. أجبته أنْ لا وقت لديّ للإصغاء إلى هذيانه. أصرّ، كان مقتنعاً أنّ في دماغه شيئاً ليس على ما يرام. سألته عمّا يدفعه إلى هذا الاعتقاد. هل يعاني ألماً في الرأس؟ إحساساً بالدّوار؟ أيّة أعراض أخرى؟ بقي على عناده حتّى لم يعد أمامي من خيار سوى جرّه إلى عتمة مرآب القوارب لأضيء بؤبؤي عينيه، وأطمئنه على أنّ كلّ شيء بدا لي طبيعيّاً.

إنّي على قناعة تامّة بأنّ يانْسون يتمتّع بصحة حديديّة. بلغ أبوه من العمر سبعةً وتسعين عاماً ويعيش في دار للمسنّين، ومع ذلك يتمتّع بذهن حادّ. يانْسون على خصام مع أبيه منذ سنة 1970، العام الذي رفض فيه مواصلة صيد الإنقليس مع والده العجوز، وذهب ليعمل في منشرة في سمالاند. لماذا اختار منشرة، لا أعلم. فأن يأتي وقت لا يسعه فيه تحمّل استبداد والده، هذا بالطبع يمكنّي تفهمه. ولكن منشرة؟ من العبث أن أحاول فهم يانْسون فأنا لا أعرف عنه إلّا النَّزْرَ اليسير. بالمحصّلة، هما منذ ذلك اليوم في 1970 متخاصمان. ولمّا عاد يانْسون من سمالاند، كان والده لشدّة هرمه قد نُقل إلى دار للعجَزة. ومع ذلك لم يكن أيٌّ منهما يكلّم الآخر.

لدى يانْسون أخت كبيرة اسمها لينيا تسكن عند الشاطئ، كانت متزوّجة وتدير مقهىً صيفياً. توفّي زوجها إثر سقوط تعرّض له وهو في طريقه إلى المتجر، فأغلقت المقهى وانصرفت إلى التديّن. وهي التي تتكفّل بنقل الرسائل بين الأب والابن.

أتساءل عن فحوى هذه الرسائل. ربّما لم تنقل بينهما، طوال هذه

السّنوات، إلّا صمتاً هائلاً؟

والدة يانْسون توفّيت منذ زمن بعيد. صادفتها مرّة واحدة، وهي في طريقها إلى الخرف، كان عالمها منسوجاً من ضباب مخيف. حسبتْني أباها، الذي كان قد توفّي في العشرينيّات. هزّتني هذه التجربة حينها، أتذكّر ذلك.

اليوم، لن تكون ردّة فعلي بالقوّة ذاتها. كنت مختلفاً آنذاك.

في العمق لا أعرف شيئاً عن يانْسون، سوى أنّ اسمه الأوّل هو تُور وأنّه ساعي بريد الأرخبيل. لا أعرفه ولا هو يعرفني. ولكن عندما يظهر مركبه في الصّيف، أو حوّامته في الشّتاء، عند منعطف الرأس البحريّ، أكون غالباً عند الرّصيف بانتظاره. أنتظره، وأتساءل لماذا، وأعرف أنّني لن أعثر على جواب.

كمن ينتظر الله أو غودو، إلّا أنّ الذي كان يصل هو يانْسون.

أجلس إلى طاولة المطبخ، كلّما برق في ذهني خاطر، وأفتح اليوميّات التي أدوّنها منذ عشت هنا. ليس لديّ الكثير لأقوله ولا أعتقد أنّ أحداً سيكترث بما أكتبه. ولكن رغم ذلك أكتب، بضعة أسطر كلّ يوم على مدار العام. أكتب عن الطقس، وعن الطّيور التي تبيت على الأشجار أمام نافذتي، وعن صحّتي. لا شيء آخر. إن أردت، أمكنني فتح أحد دفاتري القديمة بتاريخ ما، قبل عشر سنوات مثلاً، وألاحظ أنّ قرقفاً أزرق أو عقعقَ بحرٍ حطّ يومها على الرّصيف الخشبيّ في المكان الذي نزلت إليه لأنتظر يانْسون.

أكتب أخبارَ حياةٍ توقّفت فجأةً.

انقضت الصّبيحة.

وآن الأوان لأشدّ قبّعتي إلى أذنيّ، وأخرج في البرد نازلاً إلى الرّصيف لأنتظر يانْسون. لابدّ أنّه، في مثل هذه الأيام، يشعر ببرد شديد في مركبه. حين ينزل منها أشمُّ رائحة كحول تنبعث منه أحياناً، أتفهّم ذلك.

ولمّا رآني حيواناي أنهض عن الكرسي دبّ فيهما النشاط. وصلت القطّة أولاً إلى البوابة؛ الكلبة أبطأ منها بكثير. تركتهما يخرجان، ارتديت معطف الفرو المتآكل من العُثّ والذي كان لجدّي، وطوّقت رقبتي بوشاح واعتمرت القبّعة العسكريّة الكبيرة التي تعود إلى الحرب العالمية الثانية. ثم نزلت إلى الرّصيف. كان البرد قارساً. وقفت لأصيخ السمع. لم أكن أسمع شيئاً. لا طائر، ولا حتّى أزيز محرّك حوّامة يانْسون يصل من بعيد.

أتخيّله بوضوح كأنّه يقود الترامواي[1] القديم، ذلك النوع الذي يضطرُّ فيه السائق أن يظلّ في الخارج. يَصعب وصف لباس يانْسون الشتويّ. هو طبقات من الأغطية مكدّسة بعضها على بعضٍ: معاطف، وقطَع فرو، وحتّى مئزر حمام قديم. وأوّل ما يأتي البرد، يغلّف نفسه بمجموعة متنوعة من الأقمشة. أسأله دائماً لماذا لا يشتري لنفسه لباساً دافئاً كتلك الملابس العازلة للحرارة، التي يعرضها أصحاب المحلّات على الشاطئ. يجيبني بأنّه لا يثق بهم. والسبب الوحيد بداهةً هو بخله. كان يعتمر قبّعة من الفرو على رأسه تشبه تلك التي ألبسها. وتحتها قلنسوة لصّ تخفي وجهه ونظّارتي سائق درّاجة سباق من الماضي.

سألته ألا ينبغي أن يوفّر له البريد لباساً مناسباً. فلم يصلني منه بمثابة إجابة سوى التذمّر. يانْسون يريد أقلّ علاقة ممكنة مع إدارة البريد، مع أنّها ربّة عمله.

---

(1) قطار كهربائيّ في المدن وضواحيها.

ثمّة على الجليد قرب الرّصيف نورسٌ ملقى على الأرض، قتله البرد. جناحاه مطويّان، بخلاف استقامة رجليه المتيبّستين من الجليد. عيناه تشبهان بلّورتين متلألئتين. وفيما أضعه على صخرة، تناهى لسمعي صوت محرّك الحوّامة المائيّة. لا حاجة للتأكّد من ساعتي لأعرف أنّ يانْسون وصل في وقته. كان قادماً من جزيرة فسيلسو. هناك امرأة عجوز اسمها أستا كارولينا أكربلوم. عمرها ثمانيةٌ وثمانون عاماً وتعاني التهاباً في مفاصل ذراعيها، ورغم ذلك لم يرد في خاطرها التخلّي عن حياتها على الجزيرة، حيث ولدت. أخبرني يانْسون أنّها لا ترى جيداً ومع ذلك تواصل حياكة الصّوف، بلوزات وجوارب لأحفادها المبعثرين على طول البلاد وعرضها. وكنت أتساءل ما جدوى ذلك؟ وهل فعلاً نستطيع متابعة أنموذج حياكة ونحن شبْه عميان؟

أخذت الحوّامة تقترب. ظهرت بغتة عند منعطف الرأس البحريّ، من جهة ليندسهولمن. مدهش أن نشهد الحوّامة المائيّة وهي تظهر كحشرة وأن نلمح المومياء التي تقودها. أوقف يانْسون المحرّك، فسكنتْ شفرات المراوح وانزلق المركب ببطء إلى جانب الرّصيف. نزع يانْسون نظّارتيه وقلنسوته، كان وجهه محمرّاً تحتها ومتعَرّقاً. أعلن بمجرّد نزوله على الرّصيف:

- أعاني نوبة ألم شديد في الأسنان!

لم يكن نزوله سهلاً، بسبب ثيابه.

- ماذا يسعني أن أفعل؟

- أنت طبيب.

- لست طبيب أسنان.

- أنظر، هنا الألم. في الأسفل إلى اليسار.

فتح فمه بمبالغة كبيرة، كأنّه مشدوهٌ بمشهد مرعب يحدث ورائي. من حسن حظّي أنّ حالة أسناني مقبولة؛ أتدبّر أمرها بمعدّل زيارة لطبيب الأسنان كلّ عام.

- لا أستطيع القيام بشيء لك. آن الأوان لأن تذهب للمعالجة.

- مع ذلك بإمكانك إلقاء نظرة...

لم يكن يانْسون ليستسلم. ذهبت إلى مرآب القوارب وأحضرت مصباحاً وخافضة لسان.

- افتح فمك.

- مفتوح وجاهز.

- أكثر.

- لا أستطيع.

- إذن لن أرى شيئاً. التفت إليّ.

أضأت داخل فمه. وأزحت لسانه. أسنانه صفراء، مغطّاة بالرواسب وبحشوات كثيرة. لكن حالة لثّته سليمة ولا يظهر أيُّ تسوّس.

- لا أرى شيئاً.

- لكنّي أشعر بالألم!

- اذهب إلى طبيب الأسنان إذن. أو تناول حبّة أسبرين!

- لم يعد لديّ منه.

أحضرت علبةً من حقيبتي، التي أبقيها في المرآب. دسّها في جيبه دون أن يسألني عن ثمنها، كعادته، سواءً لأجر المعاينة أو لثمن الأدوية. يعتبر يانْسون أنّ كرمي بديهيّ، ولعلّ وراء ذلك يكمن سرّ عدم إعجابي به إلى

هذا الحدّ. من الصّعب أن يكون صديقك الأقرب شخصاً لا تحبّه. أعلن لاحقاً:

- لديّ طرد لك، هديّة من إدارة البريد.
- متى كانت إدارة البريد تقدّم هدايا؟
- هذا بمناسبة عيد الميلاد. ستصل لكلّ واحد هديّته.
- لماذا؟
- ليس لديّ أية فكرة.
- لا أريد شيئاً.

بحث يانْسون في حقيبته ثمّ أعطاني الطرد. كُتب على غلافه أنّ المدير العامّ للبريد يتمنّى لي عيدَ ميلادٍ سعيداً.

- إنّه مجانيّ. تستطيع رميه إذا كنت لا تريده.
- تريدني أن أصدّق أنّ البريد يوزع هدايا بالمجّان.
- لا أريد أن تصدّق شيئاً. سيصل مثله للجميع. وهذا أمر غير مكلف.

يرهقني أحياناً الجانب المشاكس في شخصيّة يانْسون. لم أعد أقوى على مواصلة الشجار معه في هذا البرد. مزّقت الغلاف، كان يحوي شريطين عاكسين ورسالة تقول: **كنْ حذراً على الطّريق. تحيّات دائرة البريد.**

- ماذا أفعل بهذا؟ لا توجد أيّة سيّارة على هذه الجزيرة وأنا هنا الراجل الوحيد.
- قد تملّ يوماً من السّكن هنا. وعندها سيكون هذان الشريطان مفيدَين لك. ألديك ماء؟ يجب أن أتناول الدواء.

لم أسمح ليانْسون بدخول منزلي يوماً، على الإطلاق، وليس عندي أيّة نيّة في التراجع عن هذه القاعدة.

- ليس أمامك إلّا أن تضع ثلجاً في كوب وتترك حرارة المحرّك تتكفّل بإذابته.

- ليس لديّ كوب.

عدت إلى المرآب، حيث وجدت غطاء تُّرْمُس، دسست فيه قطَعَ ثلج ووضع يانْسون فيه أحد أقراص الفوّار التي كنت أعطيتها له للتوّ. وانتظرنا أن يذوب الثلج. ثمّ أفرغ الكوب.

- سأعود يوم الجمعة أيضاً. ثمّ لن أعود حتّى انقضاء عيد الميلاد.

- أعرف.

- كيف تنوي الاحتفال بعيد الميلاد؟

- لن أحتفل به.

أشار يانْسون صوب منزلي، خفت أن أراه يقع، مع كلّ ما يلبسه، كفارس داخل درع ثقيل.

- ينبغي أن تعلّق شرائط مضيئة، هذا يبعث على المرح.

- لا، شكراً. أفضّل العتمة.

- لماذا لا تحاول جعل حياتك أكثر متعة؟

- أفعلُ ما أريد.

أدرت له ظهري وعدت إلى المنزل. رميت الشريطين العاكسين على الثلج. كنت قد قاربتُ كومة الحطب حين سمعت صراخ محرّك الحوّامة المائيّة الأشبه بزمجرة حيوانٍ مُهدّدٍ. كانت الكلبة بانتظاري على درج المدخل، صَممُها مدعاة للحسد، فيما كانت القطّة ممدّدة عند قدم شجرة التفاح، تراقب طائرين من فصيلة الثّرثار وهما يتشبّثان بشريحتهما من شحم الخنزير.

أتمنّى أحياناً لو أن لديّ أحداً أبادله الكلام. لا يمكن تسمية الكلمات المتبادلة مع يانْسون محادثات. هي دردشات، دردشات على رصيف خشبيّ. يقول لي أشياء لا تعنيني. ويجبرني على تشخيص أمراضه المُتوهَّمَة. وقد أصبح رصيفي ومرآبي عيادة خاصّة لمريض واحد. وبمرور السنوات، عَلّقت على شِبَاك صيدي أدوات عديدة، مثل أجهزة ضغط، وآلات لتنظيف الآذان من الشّمع... سمّاعتي الطبيّة كانت معلّقة على خطّاف خشبيّ مع بطّة عيدر كان قد نحتها جدّي. وفي درجي الخاصّ أحتفظ بأدوية متنوّعة لعلّها تكون ذات يوم مفيدة ليانْسون. مقعد الرّصيف، هذا المكان الذي اعتاد فيه جدّي تدخين غليونه بعد الانتهاء من تنظيف شِباك سمك موسى[1]، أستخدمه الآن كطاولة للمعاينة كلّما شعر يانْسون بحاجة للاستلقاء. حدث مرّةً، في ذروة عاصفة ثلجيّة، أن جعلني أجسّ بطنه لأنّه ظنَّ أنّه مصاب بسرطان المعدة، ومرةً طلب أن أفحص رجليه لأنّه كان متيقّناً بإصابته بمرض عضليّ خبيث. سخرية القدر أرادت ليديّ، بعد أن أجرتا لزمن طويل عمليّات معقّدة وحسّاسة، ألّا أستخدمها إلّا لكي أجسّ بشكل فوضويّ هذا الجسد الذي يتمتّع بقوّة يحسد عليها، جسد يانْسون.

لكن لا يمكن القول إنّ الكلمات التي نتبادلها تمثّل نقاشاً حقيقيّاً.

خطر لي مرّات أن أسأله رأيه بالحياة عموماً وعن الهاوية التي تنتظرنا، ولكنّه على الأرجح لن يفهم. حياته تدور حول الرّسائل والطّوابع والبريد المضمون وإشعارات الاستلام، وحوالات ماليّة وتحويلات مصرفيّة، وكمّية مرعبة من النشرات الإعلانيّة. وما يزيد الطين بلّة، المشاكل

(1) نوع من السّمك المفلطح.

الكثيرة التي يتسبّب بها مركبه وحوّامته المائيّة. فعندما يكون البحر صالحاً للملاحة، يستخدم مركبَ صيدٍ مرمَّماً اشتراه من فاسترفيك مجهّزاً بمحرّك سيفل (Säffle)، قطعة عتيقة لا تتجاوز سرعتها في أحسن الأحوال ثماني عقد. أمّا حوّامته المائيّة فقد حصل عليها من النرويج وأسرّ لي بأنّه خُدِع بها. بعد كلّ هذه الانشغالات، الأرجح أنّه ليس ليانْسون رأي في الهاوية.

كلّ يوم أتفقّد مركبي بدقّة. أخرجته من الماء منذ ثلاث سنوات بنيّة صيانته. وهو منذ ذلك الوقت متروك في المرآب، مقلوب على مَناصِب، مركب جميل مصنوع من الخشب بالأسلوب التقليديّ لأهل الشمال، عَطِب من سوء الأحوال الجوّية وإهمالي. لا ينبغي أن يكون الحال هكذا، عند الربيع سأباشر جدّياً بإصلاحه.

وأتساءل هل فعلاً سأقوم بذلك.

بعد عودتي إلى البيت استأنفت تركيب «البازل»[1] الذي يمثّل لوحة لرامبرانت تدعى «جولة الليل». فزت به في مسابقة نظّمها مستشفى لوليا. كنت آنذاك جرّاحاً شاباً يخفي قلّة ثقته بنفسه وراء واجهة عريضة من الخيلاء. البازل صعب بما أنّ اللوحة داكنة. لم أستطع أن أركّب اليوم إلّا قطعة واحدة. هيّأت عشائي وتناولته وأنا أصغي إلى المذياع. المِحرار منخفض إلى إحدى وعشرين درجة تحت الصفر. كانت السماء المظلمة صافية في الخارج؛ وقبل بزوغ الفجر ستزداد البرودة. إنّنا نسير على ما يبدو نحو رقم قياسيّ للحرارة المنخفضة. أترى مرّ مثل هذا البرد على الأرخبيل؟ ربّما، في أحد شتاءات الحرب العالميّة الثّانية؟ سأسأل يانْسون، لديه إطلاع جيّد على هذه الموضوعات.

---

(1) لعبة المجمّعة.

شيء ما كان يقلقني.

حاولت الاستلقاء لكي أقرأ كتاباً حول وصول البطاطا إلى بلادنا، لقد قرأته عدّة مرّات، الأرجح لأنّه لا ينطوي على أيّ خطر. إذ أستطيع تقليب صفحاته دون الشعور بأنّي ملاحق من قبل أيّة فكرة مزعجة وغير متوقّعة. حوالى الساعة الثّانية عشرة ليلاً، أطفأت الضوء. كان حيواناي قد أخلدا إلى النوم، فيما العوارض الخشبيّة للجدران تصرُّ وتطقطق.

حاولت أن أصل إلى قرار. أكان ينبغي الحفاظ على قلعتي؟ أم هل عليّ أن أعترف بأنّي هُزمت وأحاول بدرايةٍ تصريف المتبقّي لي من الوقت لأعيشه؟

لم أتّخذ أيّ قرار. بقيت مستلقياً، أتأمّل الظلمة في الخارج وأفكّر أنّ حياتي ستتواصل مثل ذي قبل. دون أن يطرأ أيّ تغيّر.

كان ذلك يوم الانقلاب الشتويّ. الليلة الأطول في العام والنهار الأقصر. فكّرت فيما بعد، مراراً، أنّ هذا كان له معنىً ولم أمتلك حينها الوعي الكافي لفهمه.

كان نهاراً عاديّاً، لا أكثر. لا أكثر من يوم بارد جدّاً، كان قد أُلقيَ فيه على الثلج، قرب رصيفي المتجمّد، نورس ميت وشريطان عاكسان مرسَلان من دائرة البريد.

(3)

انقضى عيد الميلاد، ومضى رأس السنة.

حمل اليوم الثالث من يناير عاصفة ثلجيّة قادمة من خليج فنلندا. وبينما كنت أتسلّق الصخرة خلف بيتي، رأيت الغيوم السُود وهي تتكدّس. وصل سُمْكُ الثلج خلال إحدى عشرة ساعة إلى أربعين سنتمتراً. ممّا اضطرني للخروج من النافذة لأكشط الجليد عن المدخل.

بعد نهاية العاصفة، دوّنت في دفتر يوميّاتي:

اختفت طيور الثرثار، وهُجِرَ شحم الخنزير.

ست درجات تحت الصفر.

لا يتجاوز عدد الأحرف ستّة وأربعين وبضع فواصل ونقاط. أيّة جدوى لهذا؟

حان الوقت لأغطس في الماء. انتهجت طريق الرّصيف. وصل الثّلج إلى ركبتيّ، واخترق الهواء البارد عمودي الفقريّ. أعدت فتح الحفرة بالفأس ونزلت داخلها. أحرقني البرد.

ولما هممتُ بالعودة إلى البيت، سكت الهواء فجأة بين هبّتي ريح،

وشعرت بالخوف. تلفّتّ حابساً أنفاسي.

وإذ بأحد هنالك على الجليد.

هيئة سوداء على خلفيّة بياض شاسع. كانت الشمس قد ارتفعت فوق خطّ الأفق لتوّها. حدّقت لأرى جيداً. إنّها امرأة. تبدو كأنها تسير مستندة إلى درّاجة. فيما بعد فهمت: كان ذلك عكّازاً رباعيّاً[1]. كنت أرتعش من البرد. وبصرف النظر عمّن تكون هذه المرأة، لم يكن باستطاعتي البقاء قرب حفرتي عارياً. عدتُ إلى منزلي بأقصى سرعة وأنا أتساءل عمّا إذا كنتُ فريسة وهْم.

ما إن انتهيت من ارتداء ملابسي حتّى أخذت المنظار وتسلّقت الصخرة.

لا ليس ذلك وهماً.

لا تزال المرأة هناك. تستند بيديّها على قبضتيّ العكّاز. تتدلّى من يدها حقيبة، وتُحكم على رأسها قلنسوة صوفيّة تطوّقها بوشاح إضافيّ. لكنّي لم أميّز وجهها. من أين أتت؟ ومن هي؟

فكّرت. إذا لم تكن تائهة، فلا بدّ أنّها تقصدني. لا أحد غيري في هذه النواحي.

تمنّيت لو أنّها تائهة. لا أريد لأحد أن يزورني.

لكنّها ظلّت جامدة على الجليد، مستندة إلى العكّاز. أخذ إحساسي بالضّيق يزداد. ولسبب أجهله بدت لي هذه المرأة مألوفةً.

كيف تمكّنتْ من مواجهة العاصفة، وعلاوةً على ذلك بعكّاز رباعيّ؟

---

(1) Déambulateur: عكّاز رباعيّ أو مَشّاية، والشائع استخدام التسمية الإنكليزيّة (ووكر Walker)، وهو هيكل بأربعة أرجل للمساعدة على المشي.

ثلاثة أميال تفصل جزيرتي عن الشّاطئ. يبدو من غير المعقول أنّها استطاعت المشي طوال هذه المدّة، واجتياز الجليد دون أن تموت من البرد.

ظللت لأكثر من عشر دقائق أراقبها بمنظاري. وكنت على وشك إنزاله حين التفتت نحوي.

لم تكن تلك اللحظة من لحظات الحياة التي يتوقّف فيها الزمن فحسب، وإنّما يتلاشى من الوجود.

عَبْرَ المنظار، بدا وجهها كما لو أنّه يرتمي للاقاتي، عرفتها، إنّها آرييت.

آخر مرّة رأيتها فيها كانت منذ أربعين عاماً تقريباً، رغم ذلك عرفتها على الفور، آرييت هورنفلد. المرأة التي أحببتها في الماضي أكثر من أيّ امرأة أخرى.

كان ذلك في مطلع شبابي. بعد أن أصبحت طبيباً، أمام دهشة أبي الكبيرة وفخر أمّي المفرط، نجحت في انتزاع نفسي من الفقر. وكانت قد مرّت عليّ بضع سنوات وأنا أزاول مهنتي، أقيم في ستوكهولم، كان ربيع 1966 رائعاً، والمدينة في حالة غليان. كان هناك شيء ما يتهيّأ، وكان جيلي قد تمكّن من كسر الحواجز، وفتَحَ أبواب المجتمع بشكل واسع فارضاً التغيير. كنّا معتادين أنا وهي على التسكّع في المدينة بعد انهزام النهار.

تكبرني آرييت ببضع سنوات. كانت تعمل في محلّ لبيع الأحذية، ولم يكن ليرد في ذهنها إكمال دراستها. كانت تقول إنّها تحبّني، وأنا أردّد أنّي أحبّها؛ كنت أوصلها إلى غرفتها الصغيرة التي استأجرتْها في هورنزغاتن، وكنّا نمارس الحبّ على سرير كنبة كادت تنهار تحت ثقلنا أكثر من مرّة.

بإمكاننا القول إنّ ما جمعنا تلك الأيام هو ولَه عارم. رغم ذلك خنتُها. أعطتني جامعة كارولينسكا أنستيتوت للطبّ آنذاك منحة من

أجل دورة تدريبيّة في أمريكا. وكان عليّ الطّيران في الثّالث والعشرين من مايو إلى أركنساس والبقاء هناك عاماً كاملاً. هذا ما أخبرت به آرييت. لكنّ الطائرة المغادرة إلى نيويورك، عن طريق أمستردام، كانت رحلتها في الحقيقة في الثاني والعشرين من مايو.

حتّى إنّي لم أودّعها. اختفيت، هكذا بمنتهى البساطة.

وطوال ذلك العام في أمريكا، لم أمنحها أيّة إشارة تدلّ على وجودي. لم أعرف عنها أيّ شيء ولم أكن أريد معرفة شيء. كنت أستيقظ في بعض الأحيان بعد أن أراها في نومي منتحرةً. أنّبني ضميري، ولكنّي لم أعدم الوسائل الكفيلة بتخديره.

ورويداً رويداً، غابت آرييت عن بالي.

لدى عودتي إلى السّويد، حصلت على وظيفة في مستشفى لوليا. ودخلت حياتي نساء أخريات. ولكن في بعض الأوقات، وخصوصاً حين أشعر بالوحدة أو أكون ثملاً، يحصل أن أفكّر فيها وأقول لنفسي إنّه ينبغي عليّ معرفة أخبارها، لمعرفة ما حدث معها فقط. عندئذ أتّصل بالاستعلامات وأسأل عن رقم آرييت كرستينا هورنفلد. ولكنّي دوماً كنت أغلق الخطّ قبل أن أزوَّد برقمها. لم تكن لديّ الجرأة لمقابلتها، لم أكن أجرؤ على اكتشاف الحقيقة.

وها هي على الجليد أمام بيتي.

سبع وثلاثون سنة، إذا أحصيناها بدقّة، مرّت منذ يوم اختفائي دون أيّ كلمة. عمري الآن ستّة وستون عاماً. إذن هي في التّاسعة والستّين وقريباً ستبلغ السّبعين. أوّل ما خطر لي هو العودة إلى البيت وإغلاق الباب. وعندما أخرج ستكون قد اختفت. ولن يكون لوجودها أيّ أثر.

ليس مهمّاً ما كانت تريده منّي، ستبقى سراباً. ببساطة لن أكون قد رأيت ما رأيت. وهي لم تصل يوماً أمام بيتي.

مرّت بضع دقائق.

كان قلبي يخفق بشدّة. ما زالت شريحة شحم الخنزير تتدلّى من الشجرة التي تطلّ على نافذتي، في وحدتها ذاتها. فرّت العصافير الصغيرة أثناء العاصفة، ولم ترجع حتّى الآن.

وجّهت منظاري إليها مرّة أخرى. كانت على الأرض! منطرحة على ظهرها، وذراعاها متصالبان وسط البياض. رميت منظاري واندفعت دون تفكير، وأنا أتعثّر بالثّلج السّميك. وجدتها غائبة عن الوعي. تأكّدت من أنّ قلبها ما زال يخفق. ولمّا اقتربت من وجهها شعرت بأنفاسها.

كان واضحاً أنّي لا أستطيع حملها إلى البيت. فأحضرت العربة المركونة خلف المرآب. المدّة التي استغرقها تمديد آرييت في العربة جعلتني سابحاً في العرق. لم تكن بهذا الثقل عندما كنّا معاً. أو لعلّي خسرت بعضاً من قوّتي. وضع آرييت في العربة، بين الجالسة وبين المتداعية، جعلها أشبه ما تكون بدمية هزليّة. لم تكن قد فتحت عينيها بعد.

عند حافة الشاطئ عَلَقت حمولتي. للحظةٍ قرّرت إخراجها من العربة وسحبها بحبل. لكنّ هذا ليس لائقاً. فأحضرت رفشاً وبدأت أفسح الطريق. العرق يتلألأ تحت قميصي. ونظري لم يحِدْ عن آرييت. لم تكن قد استعادت وعيها بعد. فحصت نبضها ثانيةً، كان سريعاً. فأخذت أجرف بكلّ قواي.

أخيراً نجحت في الصعود إلى البيت. كانت القطّة على المقعد تحت النافذة، تتأمّل المشهد. ثبّت ألواحاً خشبيّة على درجات المدخل، وفتحت

الباب وبدأت أجمّع زخمي. بعد المحاولة الثالثة نجحت بإدخال آرييت والعربة في مدخل البيت -على مرأى من الكلبة، التي كانت تنام تحت طاولة المطبخ. طردتها وأغلقت الباب. ثمّ حملت آرييت ووضعتها على المقعد. لم أنته من كلّ ذلك إلّا مقطّع الأنفاس، منهوك القوى، أتصبّب عرقاً. الأمر الذي اضطّرني للجلوس وأخْذ قسط من الراحة قبل معاينتها.

أخذت قياس ضغطها. كان منخفضاً، لكن لا يدعو للقلق. نزعت حذاءها ولمست قدميها، إنّهما باردتان لكن غير متجمّدتين؛ لا يوجد أيّ خوف بهذا الخصوص. ولا يظهر على شفتيها أيّ علامة تدلّ على الجفاف. انخفض نبضها إلى ستّ وستّين نبضة.

وبينما أنا منشغل بترتيب الوسادة وراء عنقها فتحت عينيها.

- رائحة فمك نتنة. أنفاسك كريهة.

هذه أوّل كلمات نطقتها، بعد كلّ هذه السنوات. وجدتها على الجليد، وصارعت كالمجنون لأحضرها إلى بيتي، ولم تجد في النهاية ما تقوله لي غير ذلك. في تلك اللحظة، انتابتني رغبة في طردها. لم أطلب منها المجيء، ولا أعرف ماذا تريد منّي، وبسببها عاودتني جرعات لا تطاق من تأنيب الضمير. هل أتت لتصفية حسابات قديمة؟

لم أكن أعرف شيئاً. ولكن هل يوجد تفسير آخر؟

اكتشفت أنّني كنت خائفاً. كأنّ فخاً أطبق عليّ للتوّ.

(4)

تلفّتت آرييت حولها.

- أين أنا؟

- في مطبخي. رأيتك منطرحةً على الجليد. فأحضرتك إلى هنا. كيف تشعرين بنفسكِ الآن؟

- أحسن. لكنّي متعبة.

- تريدين ماء؟

أومأت بالإيجاب. ملأت لها الكأس. وعندما أردت مساعدتها، رفضت وعدّلت من وضعها لتتناول الكأس بمفردها. فكّرت، وأنا أرمق وجهها، أنّه لم يطرأ عليها في الواقع تغيّر كبير. صحيح أنّها هرمتْ، لكنّها لا تبدو مختلفة.

أعادت الكأس.

- الأرجح أنّني أغمي عليّ.

- أيحصل لك هذا دوماً؟

- يحصل.

- وما رأي الطّبيب؟

- لم أستشره ليبدي رأيه.

- ضغط دمك طبيعيّ.

- لم أعان من الضّغط يوماً.

كانت تراقب غراباً صغيراً، في الجهة الأخرى من النافذة، يتسلّق شريحة شحم الخنزير. ثمّ نظرت إليّ بعينين صافيتين.

- سأكذب لو اعتذرت عمّا سبّبته لك من إزعاج.

- أنت لا تزعجينني.

- بلى أزعجك. لكنّي لا أكترث.

عدّلت جلستها على المقعد. فأدركتُ أنّها تتألّم.

- كيف استطعت الوصول إلى هنا؟

- أليس الأحرى أن تعرف كيف عثرت عليك؟ فبالرغم من أنّي أعلم بوجود جزيرة طفولتك على الساحل الشرقيّ، لم يكن الأمر غايةً في السهولة. ولكن في النهاية تمكّنت من العثور عليك. اتّصلت بدائرة البريد، وطلبت عنوان مَن يدعى فريدريك فيلين. لم يعطوني العنوان فحسب، وإنّما أخبروني أيضاً عن شخص يوزّع البريد على هذه الجزر.

تدريجيّاً عادت الصورة إلى ذهني، كنت رأيت زلزالاً في الحلم. صوت يَصمُّ، ثمّ فجأةً عاد الهدوء من جديد. لم يوقظني الضجيج، وإنّما عودة الهدوء. بقيت لدقائق أصغي في الظّلمة، والقطّة تغطّ تحت قدميّ... بدا كلّ شيء على عادته، فعدت إلى النوم.

أدركتُ أنّ الضجيج الذي سمعته في نومي كان صوت حوّامة يانْسون. لقد أوصل آرييت وتركها على الجليد.

- أردت أن أصل في الصباح الباكر، لكنّي شعرت أنّهم وضعوني في آلة

جهنميّة. ورغم أن الرُبّان كان لطيفاً، إلّا أنّ أجره كان باهظاً.

- كم أخذ منك؟

- ثلاثمائة كورون عنّي ومائتين عن العكّاز الرباعيّ.

- غير معقول!

- أيوجد رُبّان آخر في هذه المنطقة؟

- سأسعى ليعيد لك نصف المبلغ.

أشارت باتّجاه الكأس.

ملأته بالماء. كان الغراب الصغير قد اختفى. نهضت وأخبرتها أنّي ذاهب لأحضر عكّازها. تركت جزمتي آثار بقع كبيرة على أرضيّة المدخل. وعند طرف البيت ظهرت الكلبة وتبعتني إلى الشاطئ.

حاولت التفكير بأقصى وضوح ممكن.

خرجت آرييت من الماضي بعد سبعة وثلاثين عاماً. ما يعني أنّ الأمان الذي اعتقدت وجوده على هذه الجزيرة لا يعدو أن يكون وهماً. كنت أجابه حصان طروادة، متمثّلاً في حوّامة يانْسون المائيّة، وبالفعل استطاع تقويض جدران قلعتي، لا هذا فحسب، بل تقاضى أجراً سخيّاً أيضاً.

سلكت طريقاً على الجليد.

كانت ريح خفيفة تهبّ من الشمال الشرقيّ. عبرَ المشهدَ سربُ طير، كانت الصخور المحيطة بيضاء، وبدا النّهار مطوّقاً بهالة من ذلك الهدوء الغريب الذي يحدث عندما يتراجع البحر تحت الجليد، وتكون الشمس منخفضة في السماء. كان العكّاز الرباعيّ متجمّداً؛ نزعت عنه الجليد بحذر وأخذت أدفعه إلى الشّاطئ، تتبعني الكلبة. كان الوقت قد حان

لأتّخذ إجراءات من أجلها. الشيء ذاته مع القطّة، فجسداهما العجوزان يتسبّبان لهما بالألم.

أحضرت غطاء من المرآب فور عودتي إلى الجزيرة وفرشته على مقعد جدّي. لم أكن أستطيع الصعود إلى البيت دون خطّة عمل. لم يكن لحضور آرييت غير تفسير واحد: جاءت لمحاسبتي. تريد أن تعرف، بعد كلّ هذه السنين، لماذا هجرتها. بمَ أجيبها؟ الحياة عبرت، وانتهجت الأمور سبلها الخاصّة. نظرة واحدة إلى ما حدث لي لاحقاً أولى بها أن تجعل آرييت ممتنّة لاختفائي من حياتها.

بدأت أشعر بالبرد على المقعد. كنت أودّ النهوض حين سمعت صخباً، لم أعرف ما إذا كان ناجماً عن صراخٍ أو عن صرير محرّك، غير أنّ صداه أخذ يتردّد بعيداً على الجليد كما على الماءِ. أدركت أنّه يانْسون. بالرغم من أنّه لا بريد اليوم. لكنّه على الأرجح يقوم بإحدى رحلات النقل غير القانونيّة. عدت باتّجاه البيت. كانت القطّة منتظرةً على الدرج، لم أدعها تدخل.

ألقيت نظرةً على هيئتي في مرآة الممرّ، قبل دخولي المطبخ؛ ذقنٌ نابتة، شعر أشعث، شفتان غزتهما التجاعيد، وعينان غائرتان في محجريهما. لا شيء من الوسامة حقّاً. بعكس آرييت التي لم تغيّرها السنوات. لم تكن تنقصني الوسامة في شبابي، على ما أعتقد. على الأقلّ كنت أحظى بإعجاب الفتيات. وإلى أن أتى الحدث الذي وضع حدّاً لمهنتي، كنت شديد الاعتناء بمظهري وباختيار ثيابي. لكن ما إن انتقلت إلى الجزيرة حتّى ابتدأ التدهور. مرّت فترة نزعت أثناءها مرايا البيت الثّلاث عن الجدران. لم أكن أريد رؤية نفسي. كان يمكن أن تمرّ ستّة أشهر دون أن أنزل إلى الشّاطئ لأقصّ شعري.

مشّطت شعري بأصابعي ودخلت المطبخ.

كان المقعد فارغاً. اختفت آرييت. باب الصالون موارب، ولكن هناك أيضاً لا يوجد أحد باستثناء قرية النمل الكبيرة. لاحقاً سمعت تدفّق مياه السيفون. ثمّ عادت آرييت.

رأيت ثانية أنّها تتألم من طريقة جلوسها، ولكن يصعب معرفة مكان الألم.

جَلستْ في نفس المكان، إلّا أنّ الضوء المتسلّل من النافذة أضفى إشراقاً على وجهها. أحسّست أنّي أراها كما كانت من قبل، في تلك السهرات الربيعيّة الصافية عندما كنّا نتسكّع في شوارع المدينة، حيث كنت أعدّ خطّتي للرحيل دون أن أقول حتّى وداعاً. كلّما كان الموعد يقترب، كنت أكرّر أنّي أحبّها. خفت أن تقرأ في أفكاري الخيانة التي سأقترفها، غير أنّها صدّقتني.

كانت تَنظر إلى الخارج.

- كان يقف غراب صغير على شريحة اللّحم في شجرتك...

- هذا ليس لحماً، إنّه شحم خنزير. ما إن لاحت نذُر موجة البرد التي تحوّلت إلى عاصفة، حتّى هربت الطّيور الصّغيرة. لا أعرف أين تختبئ حين تهبّ الريح.

التفتت باتّجاهي.

- هيئتك مخيفة، قالت. أأنت مريض؟

- هذه هيئتي المعتادة. لو تأخر قدومك حتّى ظهر الغد لرأيتِني حليقاً.

- لا أفلح في التعرّف عليك.

- أنت، على أيّة حال، لم تتغيّري.

- لماذا توجد قرية نمل في صالونك؟

كانت نبرتها تلحّ في طلب الإجابة.

- لو لم تفتحي الباب، لما رأيتها.

- لم أكن أتطفّل. كنت أبحث عن المرحاض فقط.

كانت تتأمّلني بعينيها الرائقتين.

- لديّ سؤال أطرحه عليك، قالت. أعرف، أنّه كان ينبغي إبلاغك بزيارتي. ولكن لم أشأ المجازفة في أن أراك تهرب من جديد.

- ليس لديّ مكان آخر أذهب إليه.

- بلى، طبعاً، مثل كلّ الناس. على كلّ حال، كنت أريد التأكّد من أنّك هنا. لديّ ما أقوله لك.

- هذا فهمته.

- لم تفهم شيئاً على الإطلاق. ومع ذلك عليّ البقاء هنا بضعة أيّام. لكن أعاني صعوبة في صعود الدرج، أيمكنني النّوم على هذا المقعد؟

ليس لدى آرييت نيّة على لومي في الوقت الحاضر -هذا ما استخلصته مبدئيّاً من كلامها؛ ولذا كنت مستعدّاً لتقبّل أيّ شيء. تستطيع بالطبع النوم على المقعد إذا أرادت ذلك، وإلّا فلديّ سرير تخييم بإمكاني وضعه في الصالون إذا لم تعترض على النّوم برفقة النّمال. لم تعترض. فأحضرت السّرير ووضعته أبعد ما يكون عن قرية النمل التي كانت في منتصف الغرفة، بجانب الطاولة التي غمرت غطاءها أرتال من النّمال.

فرشت لها الأغطية ووضعت وسادةً. ثمّ أحضرت وسادة إضافيةً، إذ تذكّرت أنّها تفضّل النّوم ورأسها مرتفع.

ليس في النّوم فحسب.

بل في الحبّ أيضاً، كنت فهمت سريعاً أنّها كانت تحتاج وسادتين على الأقلّ. هل سألتها يوماً لماذا كان ذلك مهمّاً بالنسبة إليها؟ لا أتذكّر.

أعدّدت السرير وألقيت نظرةً من شقّ باب المطبخ، كانت آرييت تراقبني. شغّلت المكيّفين، وعدت إلى جوارها بعد أن تأكّدت من أنّهما يعملان بشكل جيّد. بدا أنّها تستعيد قواها، لكن كانت تحت عينيها هالتان قاتمتان. إنّها تتألّم. يظهر توتّر على وجهها، توتّر شخص مستعدّ دائماً لمواجهة ألم قد يداهمه في أيّة لحظة.

- سأذهب لأرتاح، قالت وهي تنهض.

فتحت لها الباب وأطبقته وراءها بتمهّل. فجأةً انتابتني رغبة في إحكام قفل الباب بدورتَي مفتاح ورميه. وفي يوم ما سأجد آرييت غارقة في منْملتي.

ارتديت السّترة وخرجت.

السماء صافية والرّيح بدأ عصفها يخفّ تدريجيّاً. أصغيت مترقّباً ضجيج حوّامة يانْسون المائيّة. ميّزت صوتاً يأتي من بعيد. إنّه على ما أظنّ أزيز منشار كهربائيّ. ربّما كان أحد مَن يمضون إجازة ينتهز الأيّام المتبقّية قبل عيد الغِطاس لينظّف محيط منزله.

نزلت إلى الرّصيف، ودخلت المرآب. كان مركبي هناك مثل سمكة ضخمة جانحة. رائحة قطران تنبعث من المرآب. منذ زمن بعيد لم يعد أحد هنا في الأرخبيل يستخدم القطران لطلاء أدوات الصّيد وسدّ ثقوب القوارب. ولكنّي أحتفظ ببضع عبوات لأشتَمّ رائحتها من حين لآخر. لا شيء يمنحني راحة مماثلة.

حاولت تذكّر وداعنا الذي لا يمكن تسميته كذلك بالفعل، عند ذلك المساء الربيعيّ، قبل سبعة وثلاثين عاماً. كنّا قد عبرنا جسر سترومبرون، وسرنا على طول الرّصيف، ثم إلى سكيبسبروكاجين حتّى سلوسن. عمَّ كنّا نتكلّم يا ترى؟ أذكر أنّها أخبرتني عن يوم عملها. كان لديها شغف لأن تحدثني عن زبائنها. كلّ شيء معها كان له أن يكون بداية مغامرة، حتّى لو كان خُفّاً أو عبوة ملمِّع. نتف من أحداث ونقاشات بدأت تعود. كأنّ أرشيفاً مغلقاً منذ دهر بدأ ينفتح في داخلي.

أطلت جلوسي على المقعد. ولدى صعودي إلى البيت أخيراً، ارتقيت على رؤوس أصابعي لأسترق نظرة من نافذة الصالون. كانت آرييت نائمةً متكوّرةً كطفل صغير. أحسّست بغُصّة. كذلك كانت تنام دوماً. صعدت إلى الصخرة خلف البيت وشردت في امتدادات البياض التي تحوطني من كلّ الاتّجاهات. شعرت أنّي في تلك اللحظة فقط فهمت ما فعلته ذلك اليوم، قبل سبعة وثلاثين عاماً. لم أتجرّأ يوماً على صياغة هذه الأسئلة: كيف عاشت آرييت اختفائي؟ في أيّة لحظة فهمتْ أنّي لن أعود؟ بصعوبة يمكنني تخيّل ألمها بعدما أدركتْ أنّي هجرتها.

عند عودتي كانت آرييت مستيقظةً تنتظرني، وقد سوّت جلستها من جديد على مقعد المطبخ. كانت القطّة العجوز على ركبتيها. جَلستُ.

- هل استطعت النوم؟ أتركتِ النمل وشأنَك؟
- منْملتك لها رائحة طيّبة.
- نستطيع أن نُخرج القطّة إذا كانت تزعجك.
- أترى أنّها تزعجني!؟

سألتها ما إذا كانت جائعةً وبدأت بتحضير الطعام. لديّ أرنب بريّ

في الثلّاجة اصطاده يانْسون، لكنّ تذويبه وطهوه سيستغرق وقتاً طويلاً. لذا شويت ضلوعاً مع البطاطا. كانت آرييت تتابع من مكانها على المقعد أدنى حركة تصدر عنّي. لم نكن نتكلّم تقريباً، وتوتّري كان يزداد لدرجة أنّي أحرقت يدي بالمقلاة. لماذا لم تكن تقول شيئاً؟ لماذا أتت؟

أكلنا بصمت. رفعتُ الأطباق وأعددت القهوة. كانت عادة جَدّيَّ ترك القهوة تغلي وفق الطريقة القديمة، لم تكن المصافي معروفة آنذاك. وأنا أيضاً أغلي القهوة. أنتظر أن تغلي وأعدّ حتّى السبعة عشر، فأحصل على مذاق رائع دوماً. وضعت فنجانين وملأت وعاء القطّة، ثمّ جلستُ على الكرسيّ ثانيةً. من البداية انتظرت أن تفسّر لي آرييت سبب وجودها في بيتي. بعد أن أنهت قهوتها، سألتها إذا كانت ترغب بالمزيد، فناولتني فنجانها. خربشت الكلبة على الباب. تركتها تدخل وأطعمتُها، ثمّ أغلقت عليها في الدهليز مع العكّاز الرباعيّ.

- أخبرْني، بدأت آرييت، هل فكّرت يوماً أنّنا سنلتقي؟

- لا أعرف.

- أسألك عمّا خَطرَ في ذهنك.

- لا أعرف ما الذي خَطرَ في ذهني.

- كما أرى، لا زلت على هذه الدرجة من المراوغة.

انسحبتْ إلى ذاتها. أذكر أنّ هذه عادتها عندما تُجرح مشاعرها. تمنّيت أن أمدّ يدي فوق فنجانَي القهوة لألمسها. وهي؟ أكانت ترغب في لمسي؟ كأنّ صمت أربعين عاماً بدأ يروح ويجيء بيننا. تتقدّم نملة ببطء على غطاء المشمّع. هل هي من نمال الصالون أم أنّها تاهت بعيداً عن بيتها الذي أظنُّه متوارياً في الناحيّة الجنوبيّة خلف عارضات الخشب؟

نهضتُ وأنا أخبرها أنّ عليّ إخراج الكلبة. كان وجه آرييت في العتمة. خرجتُ. كانت ليلة شتويّة ساكنة، مرصّعةً بالنجوم. عندما أرى مثل هذه السماء، آسف أنّي لست موسيقياً. نزلت إلى الرّصيف، لا أعرف لأيّ مرّة ذلك اليوم. ركضت الكلبة على الجليد تحت ضوء مصباح المرآب، ثمّ توقّفت عند المكان الذي كانت آرييت منطرحةً فيه ذلك الصباح. لا يبدو الأمر واقعياً، أن يُفتح باب هكذا فجأةً صوب حياة كنت أظنُّها شبه منتهية. الفتاة الجميلة التي أحببتها في الماضي وخنتها عاودت الظهور. حين كانت في الماضي تأتي للقائي بعد إنهاء عملها في متجر هامنغاتان للأحذية، كانت تدفع درّاجتها. أمّا ذلك اليوم، فجاءت متوكئةً على عكّاز رباعيّ. شعرت بالضّياع. عادت الكلبة وصعدنا إلى البيت.

استرقتُ نظرة من نافذة المطبخ، قبل أن أدخل.

كانت آرييت جالسة على الطاولة. لزمني بعض الوقت لألحظ أنّها تبكي. تباطأتُ حتّى مسحت دموعها، وعندئذ فقط فتحت الباب. وأجبرت الكلبة على البقاء في المدخل.

- أحتاج إلى النوم، قالت آرييت. إنّي منهكة. غداً سأخبرك بسبب قدومي.

ودون انتظار جوابي، نهضت وتمنّت لي ليلة طيّبة. تفرّست في وجهي للحظات، قبل أن تغلق الباب. ذهبت إلى غرفة التلفاز، لكنّي لم أشغّله. لقائي مع آرييت جعلني مُستنفداً. كنت خائفاً، بلا شكّ، من الاتهامات التي لن تلبث أن تمطر. بمَ أستطيع الإجابة؟ في الواقع، لا شيء البتّة.

غفوت على الأريكة.

في الثانية عشرة أيقظني ألم في رقبتي. ذهبت إلى المطبخ وألصقت أذني

بباب الصالون. صمت، ولا يرشح ضوء. رتّبت المطبخ، وأخرجت من الثلّاجة رغيف خبز وفطيرة كبيرة، وأدخلت الحيوانين، ثمّ صعدت لأنام. لا يمكنني النوم، فالباب المفضي إلى كلّ ما اعتقدته منتهياً، كان يصفق في الريح. كأنّهما معاً، آرييت والزمن يصفعانني على وجهي.

ارتديت مئزر الحمام وعاودت النزول إلى المطبخ. كان الحيوانان نائمين. يشير المِحرار الخارجيّ إلى سبع درجات تحت الصفر. كانت حقيبة آرييت متروكةً على المقعد. وضعتها على الطاولة وفتحتها. كان بداخلها مشط وفرشاة شعر، ومحفظتها، وقفّازان، وسلسلة مفاتيح، وهاتف محمول وزجاجتا أدوية لم يعنِ لي اسماهما شيئاً. حاولت فكّ رموز اللّصاقتين. يبدو أنّهما مُسكّنٌ للألم ومضادّ للاكتئاب. وصَفهما لها الطبيب أرفيتسون من ستوكهولم. بدأت أشعر بالضيق. تابعت البحث في حقيبتها، كان يوجد في قاعها دفتر عناوين، زوايا صفحاته مطويّة من كثرة الاستخدام وممتلئ بأرقام الهواتف. كانت دهشتي عظيمة وأنا أفتحه على صفحة (W)، إذ وجدت رقم الهاتف الذي كان لي في ستوكهولم في منتصف الستّينيّات.

حتّى إنّها لم تشطبه.

أكانت تحتفظ بالدفتر ذاته طوال هذه السنوات؟ وبينما أنوي إعادته إلى مكانه لاحظت ورقة مدسوسة في الغلاف الداخليّ، سحبتها وقرأتها.

ثمّ جلست على درجات المدخل الخارجيّ. كانت الكلبة تجثو إلى جانبي.

ظللتُ حتّى تلك اللحظة لا أعرف ما الذي أتت تفعله آرييت على جزيرتي.

لكنّي وجدت في حقيبة يدها رسالةً، مصطلحاتها لا تدَع لطبيب سابق

مثلي أيّ مجال للشكّ. آرييت مريضة جدّاً، وهي على قاب قوسين أو أدنى من الموت.

(5)

كان هبوب الريح متقطّعاً طوال الليل.

لم أنم جيّداً. بقيت مستلقياً على سريري، أسمع الريح وهي تحتدم على الجدران. تيّار الهواء القادم من النافذة الشمالية أقوى منه في الجهة الشرقية، إذن أستطيع تحديد اتّجاهها: شمالية غربية مع عصف مباغت. في اليوم التالي، سأدوّن ذلك في يوميّاتي. لكنّي لا أعرف هل سأشير إلى زيارة آرييت.

كانت في تلك الأثناء مستلقية على سرير التخييم في الطابق الأرضيّ. شغلتني الرسالة التي اكتشفتها في حقيبة يدها: سرطان معدة، انبثاث في مواضع عديدية، العلاج الكيميائيّ غير فعّال، والجراحة غير واردة. وفي 12 فبراير لديها موعد لمقابلة طبيبها في المستشفى.

ذلك ما كانت تحمله الرسالة بوضوح. آرييت على وشك الموت. علاجها الحاليّ لن يشفي ولن يطيل من عمرها ولو قليلاً، وكلّ ما سيفعله لن يتعدّى التخفيف من آلامها. هي في طريقها إلى المرحلة النهائيّة أو طور الرعاية الملطّفة، كما نقول في الوسط الطبّيّ.

لا علاج، ولكن أيضاً لا آلام غير ضروريّة.

في العتمة هناك، حيث كنت أتقلّب دون أن أتمكّن من النوم، عاودتني الفكرة ذاتها بإلحاح: آرييت هي التي ستموت ولست أنا. حتّى لو حمّلت

نفسي ذنب الخطيئة الكبرى من جرّاء خيانتي لها إلا أنّها هي التي حُكم عليها. لست مؤمناً. وباستثناء فترة قصيرة جدّاً خلال سنتي الأولى في كلية الطب، لم يكن لديّ ميل دينيّ أبداً، ولا أحاديث مع ممثّلين عن العالم الآخر، ولم يناشدني صوت داخلي لأجثو على ركبتي. بقيت أفكّر، هناك في يقظتي داخل العتمة، أنّ الشخص المريض ليس أنا، وهذا أراحني. لم أنم تقريباً. نهضت للتبوّل مرّتين، وفي المرّتين ألصقت أذني بباب الصالون. بالاستناد إلى الصمت السّائد، كانت آرييت نائمة، والنمل كذلك.

نهضت في السادسة.

فاجأني حين دخلت المطبخ أنّها تناولت إفطارها، أو على الأقلّ سخّنت ما تبقّى من قهوة المساء. لم تكن الكلبة والقطّة هناك، هي قطعاً من تركتهما يخرجان. فتحت باب المدخل. كانت طبقة رقيقة من الثلج الطريّ قد تشكّلت خلال الليل، ميّزت عليها خطوات شخص وآثار حيوانيّ.

كانت آرييت قد خرجت.

تفرّست في الظلمة. ما زال الفجر بعيداً، وهبّات الريح غير منتظمة. ثلاث سلاسل من الآثار كانت تمضي في نفس الاتّجاه وراء البيت. لم يتطلّب الأمر أن أسير طويلاً: كانت في الحديقة تحت أشجار التفّاح حيث المقعد الخشبيّ القديم، المكان الذي اعتادت جدّتي الجلوس فيه. كانت تحوك الصوف أحياناً، رغم انحسار بصرها، أو تبقى جالسة ويداها على ركبتيها، تستمع إلى وشوشة البحر المتواصلة حين لا يغطّيه الجليد. لم أكن في تلك اللّحظة أرى خيال جدّتي على المقعد، وإنّما آرييت. كانت قد أشعلت شمعة ووضعتها على الأرض، ووضعت حجراً لدرء الريح عنها. كانت الكلبة جاثية عند قدميها. بدت آرييت بذات الهيئة التي رأيتها

فيها بالأمس على الجليد. رأسها محشور في القلنسوة حتّى الأذنين، وتحيط وجهها بوشاح. جلست إلى جانبها. الحرارة تحت الصفر ببضع درجات، لكنّ الهواء أخفّ والبرد ليس قارساً.

- منزلك جميل، قالت.

- لا تستطيعين رؤية شيء في هذا الليل، وحتّى صوت البحر لا يُسمع بسبب الجليد.

- رأيت في منامي أنّ قرية النّمل باتت تتّسع حول سريري.

- أستطيع، إذا كنت تفضّلين، وضع سريرك في المطبخ.

انتصبت الكلبة وسارت لخطوات قبل أن تختفي في العتمة، كانت حركتها بطيئة، فالكلب الأصمّ كلب قلق. سألت آرييت إن كانت لاحظت صممها، فأجابت بالنفي. في تلك اللحظة ظهرت القطّة، تأمّلتْنا قليلاً وعادت. خطرت ببالي الفكرة التي عاودتني مراراً في السّابق: من الصعب فهم نوايا القطط. ولكن بالمقابل، هل كنت أعرف أنا نواياي؟ وهل تعرف آرييت نواياها؟

- لابدّ أنّك تتساءل عن سبب قدومي.

كانت نار الشمعة تتأرجح دون أن تنطفئ.

- لم أتوقّع زيارتك.

- خطر في ذهنك أنّك ستعود يوماً وتراني؟ هل تمنّيت هذا اللقاء يوماً؟

لم أجب. ليس لدى شخص تخلّى عن الآخر، دون أيّ تفسير، ما يقال. ثمّة خيانات لا يمكن غفرانها، ولا يمكن بأيّة طريقة تفسيرها. وما جعلتُ آرييت تتكبّده هو من هذا النوع. لن أقول شيئاً إذن. انتظرت، محدّقاً في نار الشمعة.

- لم آت لاتّهمكَ، وإنّما لأطالبكَ بالوفاء بوعدك.

أدركت على الفور ما تقصده.

بحيرة الغابة.

المكان الذي فيه سبحتُ في صيف سنواتي العشر، حين كنت مسافراً مع أبي إلى مناطق نورلند النائية، مسقط رأسه. وقد كنت وعدت آرييت بأن نذهب، بعد انتهاء عامي في أمريكا، إلى بحيرة الغابة ونسبح ليلاً في مائها المعتم. تخيّلتُ الأمر أشبه بحفل جميل؛ مياه داكنة وسماء صافية في ليلة صيف تصدح فيها أصوات البطّ الغوّاص. يقال عن هذه البحيرة إنّها بلا قاع. كنّا سنسبح فيها، وبعد ذلك لن يفرّقنا شيء.

- ربّما نسيتَ...

- أتذكّر بالضبط ما قلته.

- أريدك أن تأخذني إليها.

- نحن في الشّتاء، والبحيرة متجمّدة.

فكّرت في الحفرة التي أشقّها كلّ صباح في الجليد. أيمكن بذات الطريقة أن أفتح بحيرة كاملة في النورلند، حيث الجليد بقسوة الصوّان؟

- أريد رؤيتها، ولو مغطّاة بالثلج، أريد التأكّد إن كانت حقيقة.

- هي حقيقيّة، ولها وجود.

- لم تذكر لي يوماً اسمها.

- هي أصغر من أن تسمّى. ينتشر الكثير من هذه البحيرات الصغيرة في هذا البلد، تتخفّى داخل الغابات.

- أريدك أن تفي بوعدك، فقط.

نَهضت عن المقعد بصعوبة، فأوقعت الشمعة التي خمدت في الثلج. غرقنا في ظلمة كثيفة، كان ضوء نافذة المطبخ بعيداً. أدركت أنّ عكّازها الرباعيّ معها، فمدَدت يدي لأسندها، فصدّتني.

- لا أحتاج إلى مساعدة. أريد أن تفي بوعدك.

عندما ولجت آرييت، مع عكّازها الأخضر، في مستطيل الضوء الساقط على الثلج، أحسست بأنّي أراها ضمن شعاع قمر معكوس على الماء. في ما مضى، حين كنّا سويّة، كنا نعدّ نفسينا بصبيانيّة من عابدي القمر. أتذكر هي ذلك؟ أرى هيئتها الجانبيّة، وهي تتلمّس الأرض مع آلتها، مُحَاذرةً الحجارة المغطّاة بالثلج. أجد صعوبة في تخيّلها قريبة من الموت إلى هذه الدرجة؛ شخص قريب جدّاً من الحدّ الأخير، حيث سيتكفّل به بعدها عالم آخر أو ظلمة أخرى. تركت عكّازها أمام البيت وأمسكت بالدرابزين لتصعد ثلاث درجات. لمّا فتَحَتِ الباب، تسلّلت القطّة من بين قدميها. دخلت مباشرة إلى غرفتها. حين ألصقت أذني على بابها، سمعت طقطقة أقراص الدواء. لا شكّ أنّ معها أنواعاً مختلفة من الأقراص المضادّة للألم الذي يصاحب دوماً الأورام غير القابلة للشفاء. أخذت القطّة تموء وهي تحتكّ بساقي. أطعمتها، وجلست إلى طاولة المطبخ.

لا يزال الليل في الخارج.

حاولت قراءة درجة الحرارة، إلّا أنّ الرذاذ كان يغطي الزجاج الواقي لعمود الزئبق. فُتح باب الصالون وظهرت آرييت؛ شعرها مصفّف وترتدي كنزة جديدة، زرقاء بلون الخزامى. عبرت ذهني خاطرة صوب أمّي ودموعها المعطّرة. غير أنّ آرييت لم تكن تبكي، بل تبتسم وهي تأخذ

مكانها على المقعد.

- لم أتخيّل يوماً أن تصير هذا الرجل الذي يعيش بصحبة كلبة وقطة وقرية نمل.

- نادراً ما تدور الحياة كما نتخيّل.

- ليس لديّ نيّة في استجوابك بهذا الشأن. سبق أن قلت لك ما أريد.

- لا أعرف إذا كنت قادراً على إيجاد هذه البحيرة.

- أنا متأكّدة أنّك تستطيع. لم يكن لدى أحد حسٌّ بالاتّجاه أفضل منك.

هذا صحيح، لا أستطيع مخالفتها. دائماً أجد طريقي، في الطبيعة كما في متاهات الطرق الأكثر تعرّجاً.

- إذا حاولت التركيز، فسأجدها على الأرجح. إلا أنّي لا أفهم جيّداً...

- تريد معرفة سبب إصراري على رؤيتها؟

فجأةً، اكتسى صوتها رنيناً مختلفاً.

- بلى. أريد أن أعرف.

- لأنّ هذا أجمل وَعدٍ قُطِعَ لي طوال حياتي.

- أجمل...؟

- الوعد الوحيد الجميل بحقّ.

هذه هي بالضبط الكلمات التي استخدمتها، **الوعد الوحيد الجميل بحقّ**، كان وقعها عاتياً. كأنّها أدارت أوركسترا في رأسي، ورمت بي وسط العازفين؛ الوتريّات إلى جانبي، والنحاسيّات تصدح خلف رأسي.

- وعود، قالت، كم نُعطى من الوعود، نقطعها على أنفسنا، يَعِدُنا الآخرون بها؛ يتكلّم السياسيّون عن حياة أفضل للعجزة، عن المستشفى الذي لن يتعفّن فيه جلد من الاستلقاء، موظّفو البنك

يعدوننا بفوائد أعلى، الموادّ التي تعدنا بإنقاص الوزن، المساحيق التي تعدنا بشيخوخة أقلّ تجاعيد. فأن تعيش يعني أن تتقدّم في قاربك الصغير وسط سيول من الوعود المختلفة إلى ما لا نهاية. أيّة وعود تلك التي نذكرها؟ ننسى الوعود التي نرغب في تذكّرها ونذكر تلك التي كنّا نفضّل نسيانها إلى الأبد. الوعود المَخونة أشبه ما تكون بظلال ترقص حولك في الغسق. كلّما كبرت في العمر رأيتها أوضح. أجمل وعد كان في حياتي، ذلك الذي قطعته أنت عندما قلت إنّك ستأخذني إلى بحيرة الغابة. أريد إذن أن أراها بأمّ عينيّ وأحلم بأنّي أسبح فيها قبل فوات الأوان.

فهمت أنّي مضطرّ لأخْذها إلى الشمال. ربّما كان الشيء الوحيد الذي باستطاعتي فعله، هو تأجيل الرحلة حتّى انقضاء ذروة الشّتاء. لكنّها قد لا تجرؤ على انتظار الربيع، بسبب مرضها؟

خطر في ذهني إخبارها عن معرفتي بمرضها. لكنّي لم أفعل.

- هل أدركتَ ما قصدتُه بالوعود التي تحاصرنا؟

- حاولت تجنّب الخضوع لها. كم يسهل خداعنا...

وضعت يدها على يدي.

- لقد عرفتك سابقاً. كنّا نمضي في شوارع ستوكهولم، لا يحضرني إلّا الربيع ونحن سائران معاً، لا أذكر لا مطراً ولا ظلامَ ليل. إلا أنّ من كان يسير إلى جانبي في تلك الأيّام ليس هو من أراه الآن أمامي. كان يمكن أن يحدث أيّ شيء لذلك الرجل سِوَى أن ينتهي وحيداً في آخِر هذا الأرخبيل.

ما زالت يدها على يدي. لم أتحرّك.

- وأنت؟ سألتني. أتتذكّر هل كان ذلك ليلاً.

- لا. كنّا ما نزال في النّهار.

- لا أدري ما الذي حدث.

- ولا أنا.

شدّت قليلاً على يدي.

- لا داعي للكذب. تعرف بالطبع. سبّبت لي حزناً هائلاً. لا أعتقد إلى الآن أنّي قد تجاوزته. أتريد أن تعرف ماذا كان ردّ فعلي؟

لم أجب. سحبتْ يدها واستندت على ظهر المقعد.

- أريدك أن تفي بوعدك فقط، قالت. عليك مغادرة الجزيرة لأيّام قليلة ليس إلّا. ثمّ تستطيع العودة لاحقاً، ولن أزعجك ثانيةً.

- لا نستطيع الذهاب إلى ذلك المكان. إنّه بعيدٌ جدّاً، وسيّارتي بحالة سيئة.

- أحتاج إلى أن ترشدني إلى الطريق فقط.

فهمت أنّ ليس لديها أيّة نيّة للتراجع. لقد عاد وعد البحيرة الصغيرة يطبق على خناقي، بعد كلّ هذه السنين.

لاحظت أنّ السماء بدأت تضاء في الجهة الأخرى من النافذة. انتهى اللّيل.

- أنا تزوّجت، قالت فجأةً. وأنت، ماذا فعلت؟

- طلّقت.

- إذن تزوّجتَ أيضاً، ممّن؟

- ليس من الأشخاص الذين تعرفينهم.

- أشخاص! بالجمع؟

- اثنتان. الأولى كانت ممرّضة تدعى بيرجيت. بعد سنتين من الزواج، لم يبقَ بيننا ما يقال. فضلاً عن أنّها أرادت تغيير عملها لتصبح مهندسة مناجم. من أين لي دراية بالصخور؟ الثانية اسمها روز ماري. كانت تعمل في مجال الأثريّات. ليس لديك فكرة عن المرّات التي غادرتُ فيها غرفة العمليّات بعد نهار مرهق لألحقها إلى مزادات البيع العلنيّ، هنا وهناك، وأعود بعدها إلى البيت وأنا أجرجر خزائن ريفيّة قديمة، ولا عن عدد الطاولات والكراسي التي غسلتها في أحواض استحمام قديمة. وبعد أربع سنوات، انتهت القصة.

- أعندك أولاد؟

أومأتُ بالنفي.

في الماضي، الماضي البعيد، تخيّلت أنّي عندما أصبح عجوزاً سأكون محاطاً بأبناء يمنحوني الغبطة. لقد فات الأوان.

إنّني أُشبه مركبي الجافّ، المركون تحت غطاء.

واجهتُ آرييت.

- وأنتِ.

أطالت النظر إليّ قبل أن تجيب.

- لديّ ابنة.

فكرت أنّه من الممكن أن تكون ابنتي. لو لم أهرب أو أصرّ على عدم التواصل معها لاحقاً.

- اسمها لويز.

- اسم جميل.

وقفت لأباشر إعداد القهوة. كان قد أشرق النهار. انتظرت غليانها،

وعددتُ حتّى السبعة عشر قبل أن أطفئ النار وأتركها تنْقع. أخرجت الفناجين، وقطّعت شرائح من الفطائر التي ذاب عنها الثلج أخيراً. كنّا مثل عجوزين يتهيّآن ليشربا قهوتهما في صبيحة أحد أيّام الأسبوع العاديّة من شهر يناير. فكّرت في آلاف النّاس الذين يقيمون في الوقت ذاته هذا الحفل الطقوسيّ المخصّص للقهوة والفطائر. حفلتنا إحدى هذه الحفلات، لا أكثر ولا أقلّ. ولكن يا ترى هل كان في أيٍّ منها ظروف مشابهة لغرابة الظرف الذي كان يحدث في مطبخي؟

بعد القهوة، دخلت آرييت الصالون حيث توجد قرية النمل، وأغلقت الباب خلفها.

لأوّل مرّة، لا أعرف منذ كم سنة، أتنازل عن حمّامي الشتويّ. تردّدت مطوّلاً، وكنت على وشك التعرّي وإحضار الفأس حين عدلت عن رأيي. فيبدو أنّي لن أحظى بحمّاماتي الشتويّة طالما لم آخذ آرييت لترى البحيرة الصغيرة.

ارتديت سترتي بدل مئزر الحمّام ونزلت حتّى الرصيف. تغيّر الطقس بطريقة غير متوقّعة؛ بدأ الجليد بالذوبان، وأخذ الثلج يعْلق بنعل حذائي.

خلوت بنفسي ساعتين على الرصيف. تخلّلت الشّمس غطاء الغيم. ذهبت إلى المرآب، كان الماء يقطر من سطحه. فتحت إحدى عبوات القطران، هدّأتني رائحته، وكدت أغفو وسط أشعة الشّمس الشاحبة.

فكّرت في الأيّام التي عشناها معاً. كأنّي أنتمي إلى زمن ما عاد له وجود. أحيا في مشهد مهجور بغرابة، يخصّ الذين فقدوا زمام السيطرة لعدم امتلاكهم المقدرة الكافية على التأقلم والأزمنة الحديثة. فمثلاً، في الزمن الذي كنّا فيه أنا وآرييت عاشقين، كانت جميع الناس تدخّن في كلّ

الأمكنة وبأيّ وقت. مرحلة شبابي ممتلئة بمَنافض السجائر. مازلت أذكر الأطباء والأساتذة الذين درّبوني ليتاح لي لاحقاً ارتداء الصدرية البيضاء، جميعهم كانوا يدخّنون بكثرة. الساعي الذي كان يقوم بجولة البريد آنذاك كان اسمه يلمار هدليوز. في الشّتاء، كان ينتعل زحّافتين للتنقّل من جزيرة لأخرى. لم يكن وزن حقيبة ظهره يُعقل على الرغم من الغياب شبه الكامل لجنون النشرات الإعلانيّة آنذاك.

انقطعت تداعياتي باقتراب صوت محرّك.

كان يانْسون قد مرّ بالأرملة أكربلوم، وأتى مندفعاً صوبي بسرعة هائلة ليحاصرني بآلامه المختلفة. نوبة الألم الحادّة في أسنانه قبل عيد الميلاد عبرت. طلب منّي آخر مرّة أن ألقي نظرة على بضع بقع بنّيّة على ظاهر كفّه اليسرى. اطمأنَّ حين قلت له إنّها تغيّرات طبيعيّة بسبب العمر، وإنّه سيعمّر أكثر منّا جميعاً. فعندما نتوارى نحن الشيوخ سيكمل يانْسون جولته على متن قاربه النفّاث أو حوّامته الهدّارة، تبعاً للموسم. شرط ألّا يكون قد أعفيَ من الخدمة قبل ذلك. ولا أظنُّ أنّه لن يُعفى.

رأيته وهو ينعطف، أطفأ المحرّك، ثمّ رسا وهو يفكّ طبقاته المكدّسة من المعاطف والقلنسوات. بدا أشعث الشّعر وهو يترجّل على الرّصيف، أحمر الوجه.

- أتيت لأتمنّى لك عاماً سعيداً.

- شكراً.

- الشّتاء مستقرّ.

- على ما يبدو.

- تعرّضت إلى اضطرابات في المعدة بعد رأس السنة، وإلى صعوبة في

الذهاب إلى بيت الراحة، إمساك كما يسمّى.

- تناولْ خوخاً مجفّفاً.

- أيمكن أن يكون هذا عارضاً لشيء آخر.

- لا.

كان يانْسون عاجزاً عن السيطرة على فضوله. لم يتوقّف عن إلقاء النظرات باتّجاه البيت.

- كيف احتفلت برأس السنة.

- لم أحتفل.

- أمّا أنا فقد اشتريت ألعاباً ناريّة. منذ زمن طويل لم أقم بذلك! لكن للأسف انطلقت إحدى المفرقعات مباشرة إلى المحطَبة.

- أنام عادةً في الثانية عشرة ليلاً. ولم أجد في كون ذلك هو اليوم الأخير من أيّام السنة ذريعة كافية لأغيّر عاداتي.

كنت أرى بوضوح أنّ على طرف لسانه سؤالاً يحرقه عن وجود آرييت. أكيد أنّها لم تخبره بأيّ شيء سوى رغبتها في الوصول إلى منزلي.

- هل جلبت لي بريداً؟

بدت دهشة يانْسون كبيرة، لم أسأله هذا السؤال من قبل.

- لم أجلب شيئاً. حركة البريد ضعيفة عند بداية العام.

انتهت المحادثة والمعاينة. ألقى يانْسون نظرة أخيرة إلى البيت قبل أن يعاود الصعود إلى السبوتنك[1]، أدرت ظهري وأقفلتُ عائداً. حين أدار

(1) سبوتنك (Spoutnik): هو أوّل قمر صناعيّ يسبح في الفضاء، أطلقه الاتّحاد السوفياتي السابق في الرابع من أكتوبر عام 1957 ضمن سلسلة الأقمار الصناعية السوفياتية. اعتُبر هذا القمر الصناعيّ سبقاً حقّقه الاتّحاد السوفييتي على الولايات المتحدة الأمريكية في إطار الحرب الباردة. ويورده الكاتب هنا للسخرية.

المحرّك، صمَمتُ أذنيّ. ولمّا التفتّ رأيته يختفي داخل إعصار ثلجيّ، وراء الرأس المسمّى أنتونسون، تخليداً لذكرى رئيس الصيادين الذي كان ذاهباً وهو في حالة سُكْر شديدة ليركن مركبه أثناء موسم الشّتاء، فاصطدم بعنف بهذه الصخرة.

حين عدت كانت آرييت جالسة على طاولة المطبخ. لاحظت أنّها تبرّجت. على أيّة حال كانت أقلّ شحوباً. رأيت ثانيةً أنّها ما زالت جميلة، كنت أحمق بهجراني لها.

جلست قبالتها وبادرتها الكلام:

- سآخذك إلى البحيرة الصغيرة. سأفي بوعدي. يلزمنا يومان بسيّارتي القديمة لنصل. سنضطرّ لقضاء ليلة في الفندق. لست متأكّداً من أن أجد البحيرة من المحاولة الأولى، فطرق الغابات، في تلك الأنحاء، تتغيّر حسب مواقع تقطيع الأشجار. ولست متأكداً أيضاً من أنّ الطريق المقصود سيكون سالكاً، ممّا قد يضطرّنا للاستعانة بأحدهم ليشقّ لنا الطريق. بالمحصّلة، سيلزمنا أربعة أيّام على أقلّ تقدير. أين تريدينني أن أوصلك في نهاية الرحلة؟

- تستطيع حينها أن تتركني على الطريق.

- على الطريق؟ مع العكّاز الرباعيّ؟

- تمكّنت من الوصول إلى هنا، أليس كذلك؟

سمعت قسوةً مباغتةً في صوتها، فلم أصرّ. لو أرادت أن أتركها على الطريق، فلن أعارض.

- نستطيع الذهاب في الغد، إذا أردتِ. سيوصلك يانْسون حتّى الشاطئ.

- وأنت؟

- سأجتاز المسافة سيراً.

نهضتُ؛ فجأةً كان لديّ أشياء كثيرة يجب إنجازها. كان عليّ أوّلاً إحضار المنشار لأهيّئ فتحة بباب المدخل، من أجل القطّة. ثمّ يلزم فعل شيء من أجل الكلبة لتستطيع استخدام وِجَارها المهجور منذ سنين. أنوي كذلك ترك طعام أسبوع لهما. صحيح أنّهما سيلتهمان كلّ شيء فوراً، فلا وجود للتبصّر عندهما. لكن سيكون لديهما الضروريّ للبقاء على قيد الحياة دون طعام لأكثر من يوم.

استغرقت باقي اليوم وأنا أنشر لوح الخشب، وأثبّت براغي في بعض النوابض، وأقنع القطّة بأن تدشّن مأواها الجديد أسفل الباب. مضى العمل بأسرع ممّا توقّعت. أمّا وِجَار الكلب فقد كان بحالة سيئة. سمّرت على سطحه ورقة مطليّة بالقار للعزل، وحشرت فيه بضعة أغطية قديمة. وما إن انتهيت حتّى استقرّت الكلبة بداخله.

تلك الليلة، كانت المرّة الأولى التي أتّصل بها بيانْسون.

- تور يانْسون ساعي البريد.

قالها كما لو كان يتهجّى لقب نبالة.

- هذا أنا فريدريك. هل أزعجك؟

- أبداً. بأيّة حال، أنت لا تتّصل دوماً...

- لم أتّصل أبداً قبل اليوم. هل أنت متفرّغ للقيام برحلة صباح الغد؟

- سيّدة مع عكّاز رباعيّ؟

- وأظنُّ، نظراً لما سلبته منها لتوصلها إلى هنا، أنّ رحلة الغد ستكون مجّانيّة. وإلّا فلن أتردّد في تقديم شكوى لقيامك بخدمة مواصلات غير

قانونيّة في الأرخبيل.

لزمَ الصمت. كنت أسمع تنفّسه على الطرف الآخر من الخطّ.

- في أيّة ساعة؟ سأل أخيراً.

- ليس لديك بريد توزّعه غداً. هل الساعة العاشرة مناسبة؟

وبينما كنت أعمل على إعداد الرحلة، خصّصتْ آرييت الجزء الأطول من النهار لترتاح. كنت أتساءل إن كانت ستحتمل مشقّة كبيرة كهذه. في قرارة نفسي، لم أكن أشعر أنّها مشكلتي. كان ينبغي عليّ الوفاء بوعدي فقط. أخرجت الأرنب المقليّ من الثلّاجة. ونويت أن أعدّه بالفرن من أجل العشاء. كانت جدّتي تضع في كتاب المطبخ وصفتها الخاصّة، تشرح فيها الطريقة المثلى لتحضير الأرنب المقليّ. وقيّض لي النجاح أكثر من مرّة في اتّباع تعليماتها. وقد نجحت ذلك المساء أيضاً.

لمحت بريقاً في عيني آرييت حين جلست على مائدة العشاء. فهمت أنّ الطقطقة التي أسمعها تأتي من الصالون أحياناً، ليست لعبوات الأدوية وإنّما لزجاجات كحول، تتناولها سرّاً في غرفتها! شرعت بتناول الطعام وأنا أفكّر أنّ السفر إلى بحيرة الغابة المتجمّدة قد يكون أصعب من المتوقّع.

كان طعم الأرنب لذيذاً، لكنّها كانت تماطل في الأكل. أعرف ذلك، مرضى السرطان يعانون في الغالب من فقدان شهيّة مزمن.

أعددت القهوة لاحقاً. وناولت المتبقّي من الطعام لحيوانيّ. غالباً ما يتمكّنان من تقاسم الطعام دون حاجة للعراك أو لاستخدام المخالب. أراهما أحياناً كزوجين قديمين، مثل جَدّيَّ تقريباً.

أخبرت آرييت بأنّ يانسون سيأتي في الغد في العاشرة. أعطيتها مفتاح سيّارتي، وأوصافها وفي أيّة زاوية أركنها. بذلك تستطيع انتظاري في مكان

دافئ ريثما أصل.

وضَعَتِ المفاتيح في حقيبة يدها. ثمّ سألتني دون تمهيد إن كنت قد افتقدتها، خلال هذه السنوات.

- بلى. افتقدتك. لكنّ الحنين يصيبني بالكآبة. يخيفني الحنين.

لم تسألني شيئاً إضافياً. مضت إلى حجرة الصالون وحين عادت كانت عيناها أشدّ بريقاً. لم نتكلّم كثيراً تلك الليلة. أعتقد أنّنا كنّا خائفين من أن نفسد رحلتنا. فضلاً عن ذلك، كان لدينا دائماً، حين نكون معاً، سهولة في البقاء صامتين.

شاهدنا فيلماً عن مجموعة من الأشخاص يموتون من كثرة الأكل. لم نتبادل الآراء في النهاية. غير أنّي كنت متأكّداً أنّنا كان لدينا الرأي ذاته.

كان الفيلم سيّئاً.

لم أنم جيّداً تلك الليلة.

بين غفوتين، تخيّلت كلّ ما من شأنه أن ينتهي أثناء هذه الرحلة بشكل سيّئ. وتساءلت إن كانت آرييت أخبرتني الحقيقة كاملة. كان لديّ في الواقع شعور بأنّ ما تريده شيء آخر، وأنّ زيارتها المفاجئة بعد هذه السنين كلّها إنّما هي لسبب مختلف تماماً.

في انتظار أن أتمكّن من النوم أخيراً، عقدتُ عزمي على أن أكون حذراً، على أيّة حال. لم أكن أستطيع توقّع ما يمكن أن يحصل.

أردت فقط أن أكون مستعدّاً، في حالِ حدوث شيء.

ظلّ القلق يحوّم، مع نذيره الأبكم.

(6)

كانت الصبيحة حين انطلقنا صافية، ولا أثر للرّيح.

وصل يانْسون في الوقت المحدّد. وضع العكّاز أوّلاً، ثمّ سويّةً ساعدنا آريت على الاستقرار خلف مقعده. لم أخبره بأنّي ذاهب أيضاً. ولكن لا بدّ أنّه سيصعد إلى البيت حين لن يجدني في زيارته القادمة على الرّصيف. وربّما يظنُّ أنّي متُّ في الداخل. لذا قرّرت أن أعلّق له كلمة على باب المدخل: «أنا لم أمت».

اختفت الحوّامة المائيّة وراء الرأس، وأنا شرعتُ بالسّير.

كنت قد ثبّتُّ على حذائي نعلين لهما مسامير، لأتفادى الانزلاق على الجليد. حقيبة ظهري تزن تسعة كيلوغرامات، تحقّقت من وزنها بميزان جدّتي. سرت بسرعة مع حرصي على ألّا أتعرّق. أخاف دوماً حين أسير على تلك المياه العميقة التي يواريها الجليد. يوجد في عرض البحر، قبالة شاطئ جزيرتي الشرقيّ، فجوة بعمق ستة وخمسين متراً تسمّى ليرسنكان. يتملّكنا في ذلك المكان شعور بأنّنا نسير، متوازنين، على سطح هشّ موضوع فوق الهاوية.

كنت أزمّ أجفاني، متفادياً أشعّة الشّمس المبهرة المنعكسة على الجليد. في البعيد، رأيت جوّالين يتّجهون على زلّاجاتهم إلى الجزر الصغيرة النائية.

لا أحد غيرهم. الأرخبيل في الشّتاء مثل الصحراء. عالم خالٍ، من حين لآخر تظهر فيه قوافل المتزلّجين أو رحّالة مثلي. لا شيء هنا غير ذلك.

حين وصلت مرفأ الصيد القديم، غير المستخدم تقريباً، كانت آرييت تنتظرني في سيّارتي. حشرت العكّاز قدرَ ما استطعت في صندوق السيّارة، وأخذت مكاني خلف المقود.

- شكراً، قالت. شكراً لأنّك وفيت بوعدك.

داعبتْ ذراعي، بحركة خاطفة. أدرتُ محرّك السيّارة، وبدأت رحلتنا الطويلة باتّجاه الشمال.

بدأت الرحلة بداية سيّئة.

فما إن اجتزنا كيلومترين حتّى باغتنا ظبي وسط الطريق. كما لو كان في الكواليس ينتظر إشارة ظهوره. دست على المكابح بقوّة. وبفارق صغير وصعوبة قصوى تجنّبنا الاصطدام. انزلقت السيّارة، إذ يستحيل التحكّم بالمقود على الصقيع، وكدنا نصدم كومة ثلج على جانب الطريق. حدث كلّ شيء بسرعة فائقة. صدرت عنّي صرخة، لكن لا صوت من آرييت، ولا أيّ شيء. ببضع قفزات واسعة اختفى الظبي داخل الغابة.

- لم أكن مسرعاً، قلت أخيراً.

محاولة بائسة، وغير مجدية، لأبرّر ما حدث. كأني أتحمّل ذنب ظهور الظبي بهذه الطريقة.

- انتهت بالسلامة، أجابت آرييت.

التفتّ إليها. ربّما لا تؤثّر بنا مثل هذه الحوادث عندما نكون على مقربة من الموت.

كانت السيّارة قد علقت، أثناء ذلك. فأحضرت رفشاً من صندوقها، وبدأت بتحرير العجلات الأماميّة، ثمّ كسرت بضعة أغصان من التنّوب ووضعتها أمام العجلات. ارتجّت السيّارة قبل أن تقلع، وتمكّنا من مواصلة السير. كان قلبي يخفق بقوّة. الذين لا يعانون من مرض قاتل يخافون ظهور الظباء المباغت.

أبعد بعشرة كيلومترات، لاحظت السيّارة تجنح إلى اليسار. فرملتُ، وخرجت. كانت العجلة الأماميّة مثقوبةً. ما كان لهذه الرحلة أن تعرف بداية أسوأ. تجربة بغيضة، أن تفكّ البراغي وأنت جاثٍ على ركبتيك، وتعالج باليد عجلات وسخة وسط الثلج. لم تفارقني شروط النظافة الملزمة للجرّاح قبل كلّ عمليّة.

كنت أتصبّب عرقاً حين انتهيت أخيراً من إبدال العجلة، كنت غاضباً أيضاً. فلن أعثر أبداً على تلك البحيرة اللعينة، ولن تقوى آربيت على تحمّل المشاقّ، ولن يطول الأمر حتّى يظهر من محيطها، مثل شيطان، شخص لا يريد تفويت فرصة اتّهامي بأنّي تصرّفت بشكل غير مسؤول، حين ذهبت بهذه الطريقة مصطحباً شخصاً مريضاً.

واصلنا التقدّم.

الطريق زَلِقٌ، والثلج يرفع أسواراً حقيقيّة حولنا. مرّت بنا بضع شاحنات وتجاوزنا أمازونيّة[1] قديمة تركن على جانب الطريق. خرج منها رجل برفقة كلبه. كانت آربيت صامتةً تحدّق من النافذة.

---

(1) أمازونية (Volvo Amazon): سيّارة من تصنيع شركة فولفو معروفة بهذا الاسم، أصدرتها فولفو ضمن سلسلة تدعى 120 بين 1956 – 1970، كانت مثالاً للقوّة والسرعة في حينها.

بدأت أتذكّر رحلتي في الماضي بصحبة أبي. كان للتوّ مطروداً حينها، لرفضه العمل ليلاً في المطعم الذي كان يعمل به حينذاك. منذ مغادرتنا ستوكهولم، اتّجهنا شمالاً. وبتنا ليلة في فندق رخيص قرب غيفل. أظنُّ أنّ المكان يدعى فوروفيك، إن لم أكن مخطئاً. اقتسمنا الغرفة ذاتها، كانت الحرارة خانقة، في شهر يوليو، ذلك الصيف الأشدّ قيظاً في نهاية الأربعينيات.

يعدّ المطعم الذي كان يعمل فيه أبي من أفضل مطاعم ستوكهولم؛ ما يعني أنّ دخله كان مجزياً. وكانت أمي، لمرّةٍ، أقلّ بكاء. أتذكّر أنّه أحضر لها ذات مساء قبّعة جديدة فبكت، تلك المرّة من الفرح. وباعث الهديّة أنّه كان ذلك اليوم يقوم بخدمة مدير أحد أكبر مصارف البلد، وقد أفرط المدير في الشرب، مع أنّه كان وقت الغداء، فترك له إكراميّة سخيّة.

فهمت أنّ إكراميّة سخيّة كانت، بالنسبة لأبي، مهينة مثل إكراميّة شديدة التواضع، أو حتّى غياب إكراميّة. على أيّة حال، حوّلها إلى قبّعة حمراء لأمي.

عرض علينا بعد ذلك رحلة باتّجاه الشمال: إجازة لبضعة أيّام بمثابة هديّة قبل أن يضطرّ مجدّداً للبحث عن عمل. رفضت أمّي مرافقتنا.

كنّا نملك سيّارة قديمة؛ لا بدّ أن أبي ادّخر المال لسنوات حتّى استطاع شراءها. صعدنا السيّارة في الصباح الباكر، تركنا ستوكهولم وانتهجنا طريق أوبسالا.

نمنا إذن في الفندق الذي ربّما اسمه فيروفيك. أتذكّر أنّي استيقظت قُبَيل الفجر، ورأيت أبي، وأنا أفتح عينيّ، واقفاً أمام النافذة، عارياً، يحدّق عبرَ الستارة الرقيقة. كأنّه متجمّد داخل فكرة. في لحظة بدت لا نهائيّة، غير

أنّها خاطفة، أصبتُ بالذّعر إذ ظننتُ أنّ أبي كان يهجرني، ولم يتبقَّ منه في الغرفة سوى جلده، وأنّ ذلك الجِلد كان يخفي تحته هوّة كبيرة. لا أعرف بالضبط المدّة التي ظلّ فيها واقفاً أمام النافذة، ولكن أتذكّر ذعري المفاجئ ويقيني المطلق في أنّه تخلّى عني. أخيراً استدار نحوي ونظر إليّ في سريري، حيث كنت مغطّى إلى ذقني وعيناي شبْه مغمضتين. عاد للنوم إلى جانبي وعندما سمعت أخيراً أن تنفّسهُ انتظم، وأنّه نائم، استدرت والتصقت بالجدار وغفوت.

وصلنا في اليوم التالي.

لم تكن البحيرة كبيرة. مياهها سوداء بالكامل. وعلى الشاطئ المقابل للجهة التي نقف فيها تنتصب بعض الصخور الكبيرة، لم تكن بالنسبة للآخرين أكثر من غابة كثيفة. لا يوجد شاطئ بالمعنى الحقيقيّ، ولا أيّ فاصل بين الماء والشجر. كأنّ الماء والغابة يتصارعان دون أن يملك أيّاً منهما القوّة على إسقاط الآخر.

لمس أبي كتفي.

- تعال، سنسبح.

- ليس لديّ لباس للسباحة.

رمقني مبتسماً.

- وإن يكن؟ أتظنُّ أنّ لديّ لباس سباحة؟ من سيرانا برأيك؟ العمالقة[1] الأشرار المختبئون في الغابة؟

تعرّى. كنت أسترق النظر إليه، دون أن أعرف أين أختبئُ من الإحراج.

(1) ترول Troll أو عملاق كائنات خرافيّة لها مكانة مميّزة في ميثولوجيا بلدان الشّمال، تسكن الكهوف والآبار وفي أعماق الغابات، بعضها يتّصف بالخير واللّطف، وبعضها الآخر بالشرّ والقسوة.

اندلق بطنه الكبير إلى الخارج حين نزع سرواله الداخليّ. خلعت ثيابي بدوري مع إحساسي الواضح بأنّ شخصاً يراقبني، رغم طمأنة أبي لي، هو الذي كان في تلك اللحظة غاطساً في الماء. جسده الذي يشبه حوتاً عملاقاً وضع البحيرة كلّها في حالة من الاضطراب، وهو يكسر مرآة سطحها إلى ألف قطعة، ويرشق بها الصخور على الضفّة الأخرى. غامرت ونزلت إلى الماء أنا أيضاً. أحسست بالبرد. لسبب ما، توقّعت أن يكون له نفس حرارة الهواء. ولكن بعكس حرارة الغابة المرتفعة، كان الماء بارداً. بلّلت نفسي بسرعة وخرجت راكضاً.

أمّا أبي، فكان يسبح بضربات قويّة واسعة جاعلاً الماء ينتصب حوله، ويغنّي. لم أعد أتذكّر اللّحن، لعلّه كان ترنيمة هناءٍ، شلّالَ ماء أسود ينتفض ويمتزج بغنائه النادر.

فيما أستعيد هذه الصور البعيدة وأنا إلى جانب آرييت في السيّارة، أدركت أنّه لا شيء طوال حياتي ترك لي ذكرى بمثل هذه الحدّة. خمسة وخمسون عاماً تبدّدت، ومع ذلك كنت أرى أنّ حياتي يمكن اختصارها بهذه الصورة: أبي يسبح، بمفرده، في بحيرة الغابة الصغيرة؛ وأنا عارٍ بين الأشجار، أنظر إليه. كنّا كائنين متّحدين، وقد انفصلا.

هكذا كانت الحياة: شخص يسبح، وآخر ينظر إليه.

بدأت تجتذبني فكرة التقاء البحيرة مجدّداً. لم يعد الرهان أن أفي بوعدي لآرييت فقط. وإنّما لأعطي نفسي أيضاً متعة اللقاء بما قد ظننته فُقِدَ للأبد.

كنّا نجتاز مشاهد من طبيعة غارقة في الشّتاء.

كانت الحقول البيضاء تمتدّ تحت بخار الثلج والسديم المتجمّد. مداخن

البيوت تزفر تشكيلاتٍ عموديّةً، وآلاف صحون الاستقبال الفضائيّ[1] المرصّعة بخيوط الثلج تتّجه بعيونها المعدنيّة صوب الأقمار الصناعيّة البعيدة.

وقفت بعد بضع ساعات في محطّة على الطريق لتزويد السيّارة بالوقود، وشراء سائل لمسح الزجاج، وتناول الطعام. ذهبت آرييت دون أن تنتظرني إلى بار الشواء الملاصق للمحطّة. انتبهتُ إلى طريقتها في التنقّل، متمهّلة، خطوة خطوة، كانت تتألّم. حين وافيتها بعد قليل، كانت منشغلة بالطعام. كانت الوجبة النهاريّة سجقاً مدخَّناً. أمّا أنا فاخترت من قائمة الطعام شرائح سمك. كنّا وحدنا تقريباً. كان هناك سائق شاحنة من ذوات الوزن الثقيل يغفو في زاوية منكبّاً على فنجان قهوته. استطعت أن أقرأ على سترته أنّه يساهم في «تقدّم السّويد».

ونحن؟ فكّرت. آرييت وأنا، بطريقنا المتّجه شمالاً، هل كنّا نساهم في تقدّم بلدنا؟ أم نحن لا أكثر من كائنين يعيشان على هامش الحياة، بلا أدنى قيمة؟

نظرت إلى يديها المجعّدتين، وهي تلوك السجق، وخطر لي أنّهما داعبا جسدي منذ زمن طويل وأثارا فيَّ لذّة لا أظنُّ أنّي شعرت بمثلها لاحقاً.

نهض سائق الشاحنة وغادر المطعم.

أحضرت سمكتي فتاة بالغت في التبرّج وترتدي صدرية مبقّعة. كان الراديو يدور بصوت منخفض. ميّزت أنّها نشرة الأخبار، لكن لم أميّز ما يقال. كنت في الماضي أحد المهووسين بالأخبار، أتتبّعها على الدوام. أقرأ،

---

(1) صحون الاستقبال أو أطباق الاستقبال هي الآلات الشبيهة بصحونٍ، التي تعلّق في سقوف البيوت وتؤمّن التقاط البثّ التلفزيونيّ الفضائيّ عبر الأقمار الصناعيّة.

أسمع، أطّلع، كان العالم يفرض حضوري. في أحد الأيّام، تغرق فتاتان في قناة غوتا، وفي اليوم التالي يُقتل رئيس برصاصة. كان يجب أن أكون مطّلعاً على كلّ جديد. أقلعت عن هذه العادة خلال سنوات العزلة على الجزيرة. فلم أكن أقرأ أيّة صحيفة، فقط أشاهد نشرة الأخبار التلفزيونيّة مرّة واحدة كلّ يومين على أقصى تقدير.

لم تكن آرييت قد لمست محتوى صحنها تقريباً. ذهبتُ لأحضر لها القهوة، ولاحظت أنّ الثلج بدأ يهطل في الخارج. ما زالت القاعة خاويةً. دخلت آرييت الحمّام لاحقاً مع عكّازها. حين عادت كانت عيناها تلمعان. صدمني ذلك دون أن أفسّر أسبابه. ما كان لي أن ألومها على رغبتها في تخفيف ألمها. ولا يمكن لأحد أن يحمّلني مسؤوليّة تناولها الكحول سرّاً.

كأنّها قرأت أفكاري، فسألتني دون سابق إنذار عمّا كنت أفكّر فيه؟

- أفكّر في روما، قلتُ متهرّباً من السؤال، دون سبب وجيه. شاركت إحدى المرّات بمؤتمر للجرّاحين هناك، كان المؤتمر متعِباً ومنظّماً بطريقة سيّئة، وفي اليومين الأخيرين رفضت الرجوع وأخذت أتسكّع في فيلا بورغيزي[1]، وبعد أن تركت الفندق الفخم حيث كنّا نزلنا، استأجرت غرفة في نزل دنسين، المكان الذي كانت تسكنه في الماضي كارين بلكسين[2]. غادرت روما وأنا أشعر أنّي لن أعود

(1) حديقة فيلا بورغيزي (بالإيطالية: Villa Borghese)، حديقة طبيعية واسعة، تُعدّ واحدة من أشهر معالم روما، تضمّ عدداً من المباني والمتاحف، وهي ثاني أكبر حديقة عامّة في روما بمساحة 80 هكتاراً، بعد حديقة فيلا دوريا بامبيلي.

(2) كارين بلكسين Karen Blixen (1885 – 1962): اسمها «كارين كريستيانز دنسين»، كاتبة وروائيّة دانماركيّة كتبت عدداً من أعمالها تحت اسم مستعار (سيولا)، ومن أشهر أعمالها: «ظلال العشب»، و«سبع حكايات قوطية»، و«خارج أفريقيا»، الذي حُوّل إلى فيلم سينمائيّ نال جائزة الأوسكار سنة 1985.

إليها مجدّداً.

- أهذا كلّ شيء؟

- كلّ شيء.

لم يكن هذا صحيحاً. عدت بعد سنتين. كانت الكارثة قد وقعت، تركت ستوكهولم وأنا في حالة غضب، لأحصل على شيء من السلام. وصلت المطار بلا تذكرة. وكان هناك رحلتان إلى جنوب أوروبّا تقصدان روما ومدريد. اخترت روما لأنّها الأقرب.

طوال أسبوع وأنا أتسكّع في الشوارع، ورأسي مزدحم بالظلم الكبير الذي وقعتُ ضحيّته. شربت كثيراً، ولمرّتين أو ثلاث وجدتُني في صحبة سيّئة، وفي اللّيلة الأخيرة اعتدوا عليّ وجرّدوني ممّا أملك. فعدت إلى السّويد بأنف مكسور. أعاده إلى مكانه طبيب من مستشفى سودر وأعطاني بعض مسكّنات الآلام. بعد ذلك، أصبحت روما أقلّ مكان في العالم أرغب في معاودة زيارته.

- ذهبتُ إلى روما، قالت آرييت. كان مبعث ذلك أنّ حياتي أصبحت تدور حول الأحذية. فما اعتقدتُه في شبابي ثمرة صدفة، أي عملي بائعة أحذية في حين كان أبي مشرفاً على مصنع أوسكاريا في أوريبرو، لاحقني في الواقع حتّى النهاية. في العمق، لم أفعل في حياتي سوى أن أستيقظ في الصباح مع أحذية تدور في رأسي. سافرت مرّة إلى روما للتدرّب وبقيت شهراً هناك عند معلّم هرِم كان يصمّم أحذيةً لأشهر الشخصيّات في العالم. كلّ حذاء يصمّمه كان مثل آلة كمنجة من تصميم ستراديفاريوس. كان يصف الأقدام كأنّها شخصيّات معروفة. إحدى مغنّيات الأوبرا لا أتذكّر اسمها كان لها قدمان شرّيرتان، تستخفّان بحذائيها ولا تعبّران لهما

عن أيّ احترام. بالمقابل، كان لدى أحد رجال المال المجريّين قدمان تُعربان لحذائيهما عن حنان كبير.

تعلّمت من هذا الرجل العجوز ما يجعل صناعة الأحذية في مصاف الفنّ. بعدئذ، لم تعد تجارة الأحذية بالنسبة لي كما في السابق.

- معظم الأسفار التي نحلم بها لا تتحقّق. أو نحقّقها في المخيّلة. والميزة، حين نحلّق في هذه الرّحلات الداخليّة، أنّنا يكون لدينا مكان كافٍ لتمديد أرجلنا.

عدنا لانتهاج الطريق.

بدأت أتساءل عن المكان الذي سننام فيه. لم تكن الشّمس قد غربت بعد. لكن كنت أريد قدر الإمكان تجنّب القيادة ليلاً. لأنّ نظري الليليّ بدأ بالتراجع في الأعوام الأخيرة.

بدا مشهد الطبيعة الشتويّ مدهشاً في تماثله. لا شيء يحدث في الأماكن التي نقطعها.

بالطبع هذا وهم، ثمّة دائماً ما يحدث. بعد اجتيازنا ذروة أحد التلال، لمحنا معاً في اللحظة ذاتها كلباً يقتعد قارعة الطريق. تمهّلت مخافة أن يخطر في باله القفز إلى الطريق. قالت آرييت بعد أن تجاوزناه أنّ حول رقبته قلادة. انتبهت وأنا أنظر في المرآة أنّه يركض خلفنا. فرملت، فلحقنا الكلب.

- يلاحقنا، قلت.

- أعتقد أنّهم تخلّوا عنه.

- ما الذي يجعلك تقولين هذا؟

- الكلاب تنبح عادةً عندما تركض وراء السيّارات لكنّ هذا لم يفعل.

كانت على صواب. أوقفت السيّارة على جانب الطريق. جثا الكلب أمام بابي، متدلّي اللسان. لم يتحرّك لمّا مدّدت يدي باتجاهه. التقطت القلادة، كان عليها رقم هاتف. أخرجت آرييت هاتفها من الحقيبة وطلبت الرقم. ما إن بدأ الرنين حتّى ناولتني الآلة. كان يرنّ في الفراغ.

- لا أحد.

- إذا تابعنا، فسيركض خلفنا حتّى يهلك.

طلبت آرييت رقماً آخر. لمّا أتاها الردّ، فهمتُ أنّها اتصلت بالاستعلامات، التفتتْ باتّجاهي، بعد أن أغلقت الخطّ.

- المشتركة اسمها سارا لارسون وتقطن في هوغتونيت. مزرعة قريبة على مكان يسمّى روديبين، هل لدينا خريطة؟

- لا توجد واحدة مفصّلة بما يكفي.

- لا نستطيع ترك الكلب على الطريق.

نزلت وفتحت الباب الخلفيّ للسيّارة. قفز دون تردّد إلى الداخل وتكوّر على المقعد. خطر لي أنّ كلباً وحيداً لا يختلف عن شخص شديد الوحدة.

بعد بضع عشرات من الكيلومترات، وصلنا إلى قرية وجدنا فيها متجراً. فسألت عن مزرعة هوغتونيت. كان البائع شابّاً، يرتدي قبّعة معكوسة، رسم لي الخريطة.

- وجدنا كلباً، شرحت له.

- سارا لارسون لديها كلب، كلب صغير، ربّما ضاع منها؟

عدت إلى السيّارة وبسطت الخريطة المخربشة لآرييت ثمّ قفلنا عائدين بالاتّجاه المعاكس. كان الكلب لا يزال متكوّراً في الخلف، في حالة من

الترقّب، لاحظت ذلك جيّداً. دلّتني آرييت على درب لا يكاد يُرى مدخله، بين انجرافين ثلجيّين. سلكناه. كان ذلك مثل الولوج إلى عالم يختفي فيه كلّ اتّجاه. عالم محروم من جهات الأفق. يتعرّج الطريق بين أشجار التنّوب المغطّاة بالثلج. كان الثلج قد جُرفَ عنه بشكل جيّد، لكن لا يبدو أن أيّة سيّارة استخدمته بعد مرور الجرّافة.

- أرى آثار حيوان، قالت آرييت. تذهب بالاتّجاه المعاكس، صوب الطريق.

كان الكلب قد نهض يتشمّم الهواء، أذناه منتصبتان، ونظراته منصبّة على الزجاج الأماميّ. سرت على فروته قشعريرة، كما لو أنّه شعر بالبرد. اجتزنا جسراً قديماً مخلخل الأحجار. يحاذي القناة التي تلت الجسر سياج خشبيّ نصف مهدّم. انفرجت الغابة. فظهر لنا في الأعلى منزل غير مطليّ منذ زمن طويل، فيه مرآب وأبعد قليلاً حظيرة متهدّمة. أطفأت المحرّك وأفلتّ الكلب. ركض إلى البيت، وحفّ بالباب، ثمّ جلس وانتظر. لا يوجد أيّ دخان يتصاعد من المدخنة. وزجاج النافذة مغطّى بصقيع متجمّد. والمصباح مطفأ عند مدخل الدرج. لم يكن هذا فألاً حسناً.

- كأنّها لوحة، قالت آرييت. معروضة وسط الغابة على حامل الطبيعة. تركها الفنّان وغادر.

أخرجت العكّاز من صندوق السيّارة. قالت آرييت لا ضرورة لذلك، فهي تُفضّل الانتظار في السيّارة. وقفتُ وسط الباحة وأصغيت. بقي الكلب جالساً في نفس المكان، ونظره مسمّر على الباب. خارج الثلج تبرز جرّافة صدئة، تشبه حطام سفينة في البحر. بدا كلّ شيء مقفراً، ولا من أثر، باستثناء آثار الكلب. حدسي كان يتأكّد. طرقت الباب، فنهض الكلب.

- من يجب أن يفتح؟ همستُ له. من تنتظر؟ ما الذي كنت تفعله على جانب الطريق؟

طرقت مرّة ثانية، عالجت المقبض، لم يكن الباب مقفلاً. تسلّل الكلب بين قدمي. في الداخل رائحة بيت مغلق- لا يشبه بيتاً سيئ التهوية، بل كما لو أنّ الزمن قد توقّف فيه. ذهب الكلب في الاتّجاه الذي افترضت أنّه المطبخ ولم يعاود الخروج. ناديت دون أن أحظى بجواب. كان على يساري غرفة مفتوحة وممتلئة بأثاث ينتمي إلى زمن آخر؛ لاحظت ساعة حائط من تلك التي يكون رقّاصها وراء الزجاج، كان يتأرجح دون صوت. على اليمين، يرتفع درج نحو الطابق العلويّ. لكنّني فضّلت اللحاق بالكلب. ووقفت عند باب المطبخ.

كانت امرأة مسنّة ممدّدة على بطنها فوق أرضيّة رماديّة اللون. أدركت فوراً أنّها ميتة. مع ذلك قمت بما يجب فعله في هذه الحالة. جثوت على ركبتي، وجسست نبضها على مستوى الرقبة، ثمّ المعصم، ثمّ الصدغ. فعل لا طائل منه بما أنّ الجسد بارد ومتصلّب. خمّنت أنّها سارا لارسون. كان جوّ المطبخ بارداً. ولاحظت أنّ نافذته مواربة، من هناك خرج الكلب إذن طالباً النجدة. نهضت متلفّتاً حولي، لا يوجد أيّة فوضى. الاحتمال الغالب أنّ سارا لارسون ماتت بسبب طبيعيّ. ربّما توقّف قلبها عن الخفقان نتيجة سكتة دماغيّة. قدّرت عمرها بين الثمانين والتسعين عاماً. لديها شعر أبيض سميك متجمّع بعِقْصَة عند عنقها. أدرت الجثمان بحذر. كان الكلب يراقبني متأهباً، ثم أخذ يشمّ وجهها. كما لو أنّي أتأمّل لوحة أخرى غير التي اكتشفتْها آرييت. كنت أرى صورة عزلة يستحيل شرحها بالكلمات. كان للميتة وجه جميل، يوجد جمال يخصّ فقط النساء المسنّات جدّاً، المدوّنة

على تجاعيدهنّ كلّ العلامات، وكلّ ذكريات حياة قد مضت. أتكلّم عن النساء المسنّات جدّاً، اللّائي تطالب الأرض بأجسادهنّ.

تذكّرت أبي في آخر أيّامه، إذ كان يعاني قبل موته من سرطان عامّ. كان يضع تحت سريره حذاء مطليّاً وملمّعاً إلى درجة الكمال. إلّا أنّه لم يكن ينبس ببنت شفة. لشدّة خوفه من الموت صار أخرس، ونَحَل حتّى بات يصعب التعرّف إليه. هو أيضاً، كانت الأرض تطالب به.

عدت إلى آرييت، التي كانت قد خرجت من السيّارة في تلك الأثناء وتستند إلى عكّازها الرباعيّ. رافقتني إلى البيت، وشدّت على يدي بقوّة ونحن نصعد الدرج. كان الكلب لا يزال في المطبخ.

أردت مراعاة آرييت.

- هي ميتة وممدّدة على الأرض، متصلّبة وشاحبة. لست مضطرّةً لأن تريها.

- الموت لا يخيفني. ما أكرهه هو فكرة أن أكونَ مجبرة على البقاء ميتة كلّ هذا الوقت الطويل.

مجبرة على البقاء ميتة كلّ هذا الوقت الطويل.

فيما بعد، سأتذكّر كلمات آرييت هذه، التي قالتها في عتمة المدخل قبل دخولنا المطبخ مباشرةً.

صمتنا لدقائق. ثمّ تجوّلت داخل البيت، أبحث عن أثر لقريب محتمل يمكنني الاتّصال به. حسبَ صور الجدران كان يوجد زوج في الماضي. لكن بدا واضحاً أنّ سارا لارسون كانت تعيش وحيدة مع كلبها. حين نزلت إلى الطابق الأرضيّ رأيت آرييت مشغولة، وهي تنحني بمعاناة بالغة، في بسْط قطعة قماش نظيفة على وجه الميتة. والكلب كان ممدّداً في

سلّته بجانب الموقدة، يتأمّلنا بنظرة يقظة.

اتّصلت بالشرطة. استغرقت وقتاً قبل أن أفلح في إرشادهم إلى مكاننا بالضبط.

خرجنا ننتظر. كنّا كلانا مقهورين. لم نكن نتكلّم، لكنْ لاحظت أنّنا كنّا نحافظ على مسافة قريبة أحدنا من الآخر. بعد وقت قصير، اخترقت أنوار مصابيح كثافة الغابة ورأينا سيّارة الشرطة تقترب. نزل منها شرطيّان شابّان. الفتاة لها شعر أشقر طويل تحت قبّعتها معقود كذيل الحصان، لا يبدو أنّها تجاوزت العشرين. عرّفا بنفسيهما: آنا وإيفرْت. ظلت آرييت خارجاً فيما رافقتُهما إلى المطبخ.

- ما مصير الكلب؟ سألت الفتاة.

- سنأخذه.

- ثمّ؟

- الأرجح أنّه سينام في غرفة عزل ريثما يطالِب به صاحبه. وإذا لم يبادر شخصٌ إلى ذلك أرسلناه إلى مكتب الخدمات العامّة. وفي أسوأ الحالات سيُحقن بإبرة.

كانت أجهزة الإرسال المثبّتة على حزاميهما ترسل طقطقات متواصلة. دوّنت الفتاة اسمي ورقم هاتفي. لم يعد هناك داعٍ لوجودنا، كما قالت الفتاة. انحنيت أمام السلّة وداعبت رأس الكلب. هل كان له اسم؟ ماذا سيكون مصيره الآن؟

كانت الشّمس تغرب حين عدنا إلى انتهاج الطريق. تتناوب الأضواء في إظهار يافطات، تخصّ أمكنة لم أسمع بها من قبل.

حين نسافر في سيّارة عبر مشهد شتويّ، يتملّكنا إحساس بأنّنا نخترق جدار الصوت. كلّ شيء صامت، في الداخل والخارج. فصول الصيف والربيع والخريف لا تصمت أبداً. وحده الشّتاء أخرس.

وصلنا إلى تقاطع طرق. لمحت لافتة تشير إلى فندق يبعد عن مكاننا تسعة كيلومترات. «كوخ الثعلب»، هكذا كان يسمّى النُّزُل. لا أدري ما الذي يستطيع توفيره لنا، ولكن يلزمنا سرير لهذه الليلة.

تبيّن أن النُّزل الصغير كان مبنىً كبيراً على هيئة قصر ريفيّ وسط حديقة كبيرة، وكانت مركونة في موقفه عدّة سيّارات.

تركت آرييت، ودخلت البهو المضاء حيث وجدت رجلاً عجوزاً يعزف بشرودٍ على البيانو. نهض حين شعر بوجودي. طلبت منه غرفتين لليلة واحدة.

- للأسف النُّزُل ممتلئ. أتت مجموعة لتحتفل بعودةِ قريبٍ لها من أمريكا.

- حقّاً لم تبقَ أيّة غرفة؟

راجع سجلّه.

- حسناً، يمكن تدّبر واحدة...

- أحتاج اثنتين.

- هي غرفة كبيرة مزدوجة، تطلّ على البحيرة. في الطابق الأوّل، هادئة جدّاً. كانت محجوزة ولكنّ أحد أعضاء المجموعة مرض. وهي الوحيدة التي أستطيع عرضها على حضرتك.

- هل السرير مزدوج، أم هي بسريرين منفصلين؟

- سرير مزدوج، مريح جدّاً. لم يسبق أن شكا أحد من النوم عليه. إنّ

أميراً راحلاً من أمراء هذه المملكة قد أقام في الغرفة أكثر من مرّة وكان مرتاحاً جدّاً. وأنا، وإن كنت من دعاة الملكيّة، إلّا أنّني أقرّ بأنّ ضيوفنا الملكيّين يكونون أحياناً متطلّبين بشدّة. وهذا ينطبق على الجيلين الجديد والقديم على حدّ سواء.

- حسنا أيمكن فصل السرير؟

- بالمنشار فقط.

خرجت لأشرح الوضع لآرييت. غرفة واحدة، سرير مزدوج. نستطيع أن نبحث عن مكان آخر.

- هل يقدّمون العشاء؟ كانت تريد أن تعرف. أمّا النوم فلا أبالي، أستطيع النوم في شتّى الظروف.

عدت إلى مكتب الاستقبال. خيّل لي أنّي عرفت اللّحن الذي كان يعزفه الرجل بتردّد على البيانو. لحن شاع في مرحلة شبابي. ستميّزه آرييت دون تردّد.

سألت إذا كنّا نستطيع تناول العشاء.

- لدينا وجبة خاصّة اسمها «تذوّق النبيذ»، أنصح بها جدّاً.

- هذا فقط؟

- ألا يكفيك؟

بدا عدم الرضا صريحاً جدّاً في نبرته.

- حسنا سنستأجر الغرفة. ونحن مسروران جدّاً بفكرة وجبة التذوّق.

عدت للمرّة الثانية وساعدت آرييت في انتزاع نفسها من مقعدها. كانت تتألّم بوضوح. عبرنا الممرّ المغطّى بالثلج بخطوات بطيئة، ثمّ السطح المائل المخصّص للكراسي المتحرّكة، ودخلنا دفء مكتب الاستقبال ثانيةً.

كان الرجل قد عاد إلى مكانه أمام البيانو.

- Non ho l'età («ما زلت صغيرة»)، أعلنت آرييت مباشرةً. نحن رقصنا على لحن هذه الأغنية. أتذكُر المغنيّة؟ جيليولا تشنكويتّي، تلك التي فازت في مسابقة «يوروفيزن»، كان ذلك في عام 1963 أو 1964.

تذكّرت، أو على الأقلّ أقنعت نفسي بأنّي أتذكّر. بعد كلّ هذه السنوات من العزلة على الجزيرة، لم أعد أثق بذاكرتي.

- سأعبّئ قسيمة المعلومات لاحقاً. لنرَ الغرفة أوّلاً.

أوصلنا الرجل والمفتاح بيده إلى آخر ممرّ يؤدّي إلى باب وحيد محفور رقمه في خشب قاتم. كان رقم غرفتنا «ثلاثة». فتح الباب وأضاء مصباح السقف. الغرفة كبيرة، وجميلة جدّاً، غير أنّ السرير أقلّ عرضاً ممّا كنت آمل.

- يُغلق مطبخنا بعد ساعة، نبّهنا قبل أن يخرج.

ألقت آرييت بكلّ ثقلها على جانب السرير. بغتةً بدا لي الوضع غير واقعيّ. بماذا ورّطت نفسي، هل فعلاً سأتقاسم السرير معها، بعد كلّ هذه السنوات؟ ولماذا هي وافقت؟

- لا بدّ أن أجد كَنَبة لي...، بادرت قائلاً.

- الأمر لا يضايقني. لم أشعر يوماً بالخوف منك. وأنت؟ خائف من أن أغرز فأساً في جمجمتك وأنت نائم؟ أصغِ إليّ، أحتاج للبقاء لحظات بمفردي، وبعد نصف ساعة سأتعشّى بكلّ سرور، ولا تهتمّ، أستطيع دفع ثمن وجبتي.

عدت إلى عازف البيانو ودوّنت اسمي في السجلّ. كانت المجموعة

تحتلّ جزءاً من قاعة الطعام، مخفيّاً بباب منزلق، ترحّب صاخبةً بقريبها الأمريكيّ. ذهبت أنتظر في إحدى الصالات. كان اليوم طويلاً. كنت قلقاً. تتّسم الأيّام على الجزيرة دوماً بالبطء الشديد، بينما هنا كنت أشعر بأنّي مختطَفٌ من قبَل قوى لا أملك إزاءها أيّ دفاع.

كان باب الصالة مفتوحاً فرأيت آرييت قادمة عبر الممرّ، مع عكّازها الرباعيّ. كأنّها تجدّف على ظهر مركب غريب. لاحظت ترنّحها. هل تناولت الكحول؟ دخلنا المطعم. كانت كلّ الطاولات شاغرة تقريباً. عرضت علينا نادلة لطيفة، ساقاها متورّمتان وملفوفتان في ضمادة، طاولة منعزلة قليلاً. تنبّهت تلقائيّاً إلى ما علّمني إيّاه أبي: التأكّد من انتعال النادل أو النادلة حذاءً متيناً. ذلك كان حال أبي، إلّا أنّ هذه النادلة لم تكن معنيّة بهذا الشرط. كانت آرييت جائعة. أمّا أنا فلا. ورغم ذلك، تذوّقت بشراهة أنواع النبيذ التي كان يقدّمها لنا فتىً نحيل غطّت البثور وجهه. وبينما كانت آرييت تستفسر، وتطرح الأسئلة. كنت صامتاً، مكتفياً بشرب ما يقدّمونه لنا من أنبذة أستراليّة، وأخرى من جنوب أفريقية. أيّة أهميّة؟ في تلك اللحظة كنت أبحث عن الخدَر.

شربنا نخبنا، مرّة إثر مرّة. ثملت آرييت بسرعة؛ لم أكن وحدي من يفرط في الشرب. متى ثملتُ آخر مرّة يا ترى وفقدت السيطرة على تصرّفاتي؟ في حالات استثنائيّة جدّاً، يحصل ذلك معي. أعدّ جلسة الشرب على طاولة المطبخ، حين تزداد وطأة الكآبة على الجزيرة. ودوماً ينتهي الأمر بنفس الطريقة: أرمي حيوانيَّ خارجاً، وأنام في سريري بكامل ملابسي. غير أنّ ذلك لا يحدث مطلقاً في الشّتاء. ربّما في أمسية ربيعيّة صافية، أو في بداية الخريف، عندما يستفحل القلق، أُخرج بضع زجاجات من مخزوني

الاحتياطي. أستطيع لو أردت الطلب من سيستيمت[1] عن طريق يانْسون، لكن لم أنوِ يوماً، ولا في الأحلام، أن أطلِعَ يانْسون على عاداتي الكحوليّة. أشتري زجاجاتي بنفسي عن الشاطئ.

أغلقَ المطعم. كنّا آخر الزبائن. شربنا وأكلنا دون أن نتكلّم عن المكان ولا عن وجهتنا، كان بيننا ما يشبه تواطؤاً ضمنيّاً. حتّى لم نأتِ على ذكر سارا لارسون وكلبها. ورغم احتجاجات آرييت، طلبت تسجيل الوجبة على حسابي. خرجنا، لم تكن خطواتنا واثقة جدّاً. تملك آرييت قدرة عجيبة على الترنّح مع عكّازها؛ لم أفهم كيف كانت تفعل ذلك. فتحت باب الغرفة وأخبرتها بأنّي سأقوم بجولة، لأتمشّى قليلاً. طبعاً ذلك لم يكن صحيحاً. ولكن لم أكن أريد إحراجها بحضوري وهي تتهيّأ للنوم. وأظنُّ أنّي كتب بالقدْر ذاته أودّ أن أجنّبني الإحراج.

ذهبت وجلست في صالة القراءة المكسوّة برفوف كتب ومجلّات قديمة. لم يكن ثمّة من أحد. الرجل الذي كان يلعب على البيانو اختفى. ومجموعة المحتفلين أيضاً، لم أعرف أين ذهبوا. أصغيت. لا شيء. داهمني النعاس فجأةً. كما لو أنّه سقط عليّ. حين استيقظت، لم أعرف أين أنا؛ حسبَ ساعتي، نمت ما يقارب الساعة. عندما نهضت كدت أقع تحت تأثير كلّ النبيذ الذي شربته؛ عدت إلى الغرفة. كانت آرييت نائمة، وقد تركت مصباح السرير من جهتي مضاءً. خلعت ثيابي دون إحداثِ صخبٍ، واغتسلت في الحمّام، ثمّ انزلقت تحت الأغطية. حاولت أن أخمّن

(1) Systemet: اختصار لكلمة Systembolaget، سلسلة مخازن حكومية تمتلك احتكار بيع الكحول في السّويد (حاشية في الترجمة الفرنسيّة).

إن كانت نائمة أم تتظاهر بالنّوم. كانت تدير ظهرها، وترتدي قميصَ نوم أزرق فاتحاً. اشتهيت تمرير يدي على ظهرها. أطفأت المصباح وبقيت أستمع إلى تنفّسها في الظلمة. كان جزء منّي مشغولاً بالمخاوف. غير أنّ هناك ما أفتقده منذ زمن طويل: الشعور بأنّي لست وحدي، لا أكثر من ذلك. كانت العزلة مطرودة لبرهة.

ما إن غفوت حتّى استفقت على صراخ آرييت. في حالة من الذهول أضأت مصباح السرير. كانت جالسة باستقامة على السرير، تصرخ من اليأس والألم. عندما أردت لمس كتفها، ضربتني بقسوة على وجهي.

ما أدّى إلى نزيف في أنفي.

تلك الليلة لم ننم أكثر من ذلك.

(7)

مثل دخان رماديّ، كان الفجر يطلع على البحيرة المغطّاة بالثلج.

خطر لي وأنا أقف أمام النافذة أنّي رأيت أبي في الوضع ذاته حيث كنت أقف. لست بالبدانة التي كان عليها، رغم أنّ بطني صار أميل للترهّل. لكن من يراني؟ لا أحد باستثناء آرييت، التي كانت تستند إلى ثلاث وسائد خلف ظهرها.

كنت أفكّر بما حدث مباشرةً بعد صراخها الذي أيقظني، وبعد أن ضربتني على وجهي.

كنت رجلاً شبه عارٍ في مشهد شتويّ، يمكن قول ذلك.

كان لديّ رغبة في النزول إلى البحيرة المتجمّدة التي أراها أمامي لأوسّع فيها حفرةً. كنت مشتاقاً لألم الماء المثّلج. ولكن أعرف أنّي لن أقوم بذلك، وسأبقى بالغرفة مع آرييت. سنرتدي ملابسنا ونتناول فطورنا ونكمل رحلتنا.

فكّرت في حلم آرييت، هذا الذي استفاقت منه بصرخة كبيرة. الجزء الذي روته لي بدا بمجمله غامضاً. كأنّها وهي تبحث عن حلمها لم تجد غير الحطام؛ كان شخص يدقّ المسامير في جسدها لأنّها ترفض التخلّي عنه. شخص كان مصرّاً بعناد على اقتلاع صدرها. كانت تتخبّط، في غرفة أو

مشهد، محاطةً بأناس لم تتعرّف على وجوههم. كلماتهم أقرب إلى أصوات طيور مفعمة بالتّهديد.

أيقظتني صرختها. أردت لمسها لتهدأ، أو ربّما لأُهدّئ نفسي، لكنها كانت لا تزال في المنطقة الرماديّة حيث لا يُعرفُ بعد من الذي انتصر، الواقع أم الحلم. هذا ما جعلها تضربني، كانت تدفع عنها أشباحاً تحاول اقتلاع صدرها. أعادتني الضربة العنيفة إلى الاعتداء الذي تعرّضت له في روما، والألم الذي شعرت به حينها.

لكن هذه المرّة دون أنف مكسور.

حشوت فتحتَي أنفي بورق حمّام، وطوّقت رقبتي بمنشفة مبلّلة بماء بارد، فتوقّف النزيف بعد قليل. طرقت آرييت باب الحمّام وسألتني إن كانت تستطيع مساعدتي. أجبتها بالنفي. أردت البقاء بمفردي. حين عدت إلى الغرفة بسدّادات ورقيّة في فتحتي أنفي، كانت قد استلقت ثانية وخلعت قميص النوم الذي كان يتدلّى عن ناصية السرير. لاحقت نظرتي.

- لم أقصد إيذاءك، قالت.
- بالتأكيد لا تقصدين. كنتِ في حلمك.
- كان أحدهم يحاول تمزيقي إرباً إرباً. السرير من جهتي مبتلٌّ بالعرق فاضطررتُ لخلع قميصي.

قرّبت الكرسيّ إلى النافذة التي تطلّ على البحيرة وجلست. لم يكن انجلى اللّيل بعد. ومن بعيد كان يتناهى إلى السمع نباح كلب.

نباح موجز، مثل إشارة متقطّعة. أو كما يتكلّم المرء حين لا أحد يصغي له.

أخذت آرييت تروي لي حلمها.

نظرت إليها وفكّرت أنّها المرأة ذاتها التي عرفتها في الماضي وأحببتها. وإن بدت في الوقت عينه مختلفة جدّاً. تساءلت عمّا يجعلني أفكّر في ذلك، وأدركت لاحقاً أنّ صوتها لم يتغيّر. كنت في الماضي أكرّر لها أنّها تستطيع بأيّة حال كسب عيشها بالعمل مجيبة هاتف. لها أجمل صوت هاتفيّ سمعته في حياتي.

- كانت تتربّصني أشباح في الغابة، أخذت تخبرني. هاجمتني ولم يكن لديّ أيّة وسيلة للدفاع عن نفسي. لكنّي الآن انتهيت منه. حقّاً إنّ بعض الكوابيس لا تعود أبداً. تَفرَغُ من طاقتها، فلا يبقى لها وجود.

- أعرف أنّك مريضة جدّاً.

لم أكن أنوي إخبارها. اندفع الكلام وحده. تفحّصتني دون أن تفهم.

- كان هناك رسالة في حقيبة يدك. وبينما أبحث عن تفسير لوقوعك على الجليد عثرت عليها وقرأتها.

- لماذا لم تخبرني من قبل؟

- شعرت بالخجل من العبث في حقيبتك. لو فعل معي أحد ذلك لاستشطت غيظاً وغضباً.

- كذلك كنت طوال حياتك، دوماً تعبث بأشياء الآخرين.

- ليس صحيحاً.

- بلى، أصغ إليّ. لم يعد في وسعنا الكذب. لا أنت ولا أنا. أليس صحيحاً؟

احمرّ وجهي خجلاً، معها حقّ. كنت دائماً أفتّش في أغراض الآخرين. وأفتح بريدهم، ثمّ أعيد لصق الظروف. كانت أمّي تحتفظ بمجموعة

رسائل تعود إلى مطلع شبابها، تبوح فيها بأسرار لصديقتها. كانت تحزمها بشريطة وقد أوصت بإحراقها بعد موتها. وبالفعل نفّذتُ وصيّتها، ولكن ليس قبل أن أقرأها. كنت أهتمّ دائماً بمذكّرات عشيقاتي، وأعبث بالأدراج، كنت أسمح لنفسي بتفتيش مكاتب زملائي. هناك مرضى كنت أستطلع مَحافِظهم بدقّة. لم أكن آخذ مالاً. ما كنت أريده شيء آخر. أسرار كلّ واحد منهم. نقاط ضعفهم. دون أن يعلموا.

آرييت هي الوحيدة التي أمسكتني بالجرم المشهود.

كنّا في زيارة لأمها، فانتهزت فرصة بقائي بمفردي وفتحت درج الطاولة الأوّل، حينئذ وبلا صخب عادت آرييت وسألتني عمّا أفعل. وأخبرتني أنّها اكتشفت أيضاً عادتي في العبث بحقيبة يدها. تلك اللحظة كانت من أسوأ لحظات حياتي. لا أذكر بماذا أجبتها، لم نعد لإثارة الموضوع ثانيةً. ولم أعاود الاقتراب من أغراضها. ولكنّي بقيت مستمرّاً في التدخّل بحياة أصدقائي وزملائي. وها هي تذكّرني بمن كنت.

سوّت الغطاء وأشارت لي بالجلوس إلى جانبها. مجرّد معرفتي بعريها تحت الغطاء أثارني على نحو مفاجئ. جلستُ، ووضعتُ يدي على ذراعها. كان لديها على باطن ساعدها وحمة ولادة على هيئة زركشة، عثرتُ عليها. كلّ شيء كما كان خطر لي. طوال الوقت الطويل الذي مضى، بقينا كما نحن.

واصلت آرييت كلامها:

– لم أستطع أن أخبرك. لأنّك ستظنُّ أنّي أتيت لهذا السبب. لأطلب منك إنقاذ ما لا أملَ فيه.

– دائماً هناك أمل.

- لا أنا ولا أنت نؤمن بالمعجزات. سيكون رائعاً لو حدثت. ولكن أن نؤمن بها وننتظرها، فهذا مضيعة للوقت المتبقّي لنا. قد أستطيع أن أحيا عاماً، أو نصف عام. على أيّة حال أستطيع تحمّل بضعة أشهر أخرى مع العكّاز الرباعيّ والمسكّنات. فلا تكلّمني عن الأمل، ليس لمثلي يقال هذا الكلام.

- هناك دائماً اكتشافات متطوّرة. وبسرعة مذهلة أحياناً.

عدّلت ثانية من جلستها على الوسائد.

- أتصدّق أنت ما قُلتَه الآن للتوّ؟

لم أجبها. تذكّرت ما قالته لي يوماً بأنّ الحياة تشبه الحذاء. لا يمكن للمرء تصوّره على المقاس ما لم يكن كذلك بالفعل. الحذاء الضيّق جدّاً جزء من الواقع.

- أودّ أن أطلب منك شيئاً، قالت من جديد، قبل أن تنفجر بالضحك بطريقة مباغتة. ألا يمكنك نزع سدّادت أنفك؟

- هذا هو طلبكِ؟

- لا.

دخلتُ الحمّام وسحبت اللفافة الورقية المبلّلة. توقّف النزيف، لكنّ أنفي كان لا يزال يؤلمني، سوف يظهر ازرقاق وتورُّم. لم يزل الكلب ينبح في الخارج.

عدت وجلست على السرير.

- أريد منك فقط أن تستلقي إلى جانبي. قالت آرييت.

أطعتها. كانت رائحتها فوّاحة. شعرت بتكويرات جسدها عبر الغطاء. كنت إلى يسارها، كما كنّا دوماً. مدّت يدها وأطفأت المصباح

الجانبيّ. كانت الساعة بين الرابعة والخامسة فجراً. كان ضوء المصباح في الساحة قرب النافورة يتسلّل عبر الستارة.

- حقّاً أريد أن أراها، البحيرة التي أهديتني إيّاها. لم تهدني يوماً خاتماً ولا أظنُّ، حتّى لو جلبته، أنّي كنت سأقبله. لكن بالمقابل منحتَني هذه البحيرة الصغيرة. وأريد أن أراها قبل أن أموت.

- لن تموتي.

- بالطبع سأموت. يأتي وقت نفقد فيه القدرة على إنكار ما يحدث. بالمناسبة، الموت هو البداهة الوحيدة في الحياة. حتّى المجنون يدركه عندما تحين ساعته.

صمتت، كان الألم يعاودها، ثمّ تابعت:

- تساءلت مرّات كثيرة لماذا لم تخبرني بشيء. مثلاً، بأنّك التقيت بفتاة أخرى، أو بأنّك لم تعد تريد البقاء معي. هذا كان يمكنني فهمه. لماذا لم تقل أيّ شيء؟

- لا أدري.

- بلى. دائماً كنت تعرف ما الذي تفعله، حتّى حين تدّعي العكس. لماذا اختبأت؟ أين كنت عندما انتظرتك في المطار؟ بقيت هناك ساعات. حتّى عندما لم يتبقّ إلّا رحلة سياحيّة متأخّرة ومتّجهة إلى تينيريف، كنت لا أزال منتظرة. خطر لي أنّك مختبئ وراء أحد الأعمدة، تراقبني وتضحك بمفردك.

- لماذا كنت سأضحك؟ حينذاك كنت قد رحلت.

بدا أنّها تقلّب أفكارها.

- قد رحلت؟

- في ذات الساعة، وذات الرحلة، ولكن قبل ذاك بيوم واحد.
- كنت متعمّداً إذن؟
- لم أكن أعلم أنّي سأجد مقعداً شاغراً. ذهبت إلى المطار فحسب. وكان أحد الركّاب غائباً عن النداء، فاستطعت تبديل بطاقتي.
- لا أصدّقك.
- هذه هي الحقيقة.
- لا. لم تكن كذلك يوماً. لم تكن تُقدم على أيّ شيء ما لم تُعدّ له على أحسن وجه. كنت تقول عندما نكون جرّاحين، لا يمكن أن نسمح لأنفسنا بانتهاز الفرصة حين تأتي. وكنت تكرّر أنّك جرّاح من أعلى رأسك حتّى أخمص قدميك. أعرف أنّك خطّطت لكلّ شيء. كيف تريد مني تصديق كذبة كهذه؟ بقيت أنت ذاتك. بلا أيّ تغيّر. تمضي حياتك بالكذب. تنبّهت إلى ذلك متأخّرةً.

بدأ صوتها يعلو، صارت تصرخ. حاولت تهدئتها وأنا أطلب منها أن تفكّر قليلاً في النائمين إلى جوارنا.

- لا أبالي بالجوار. قل لي كيف بوسع أحد أن يفعل ما فعلته بي.
- قلت لك، لا أدري.
- هل كرّرتها مع أخريات؟ هل التقطتهنّ بشباكك وتركتهنّ يتخبّطن وحيدات ليخرجن من هذه الورطة؟
- لا أعرف عمَّ تتكلّمين.
- هذا كلّ ما لديك لتقوله لي؟
- أحاول أن أكون نزيهاً.
- تكذب، كلّ ما تقوله لا توجد فيه كلمة حقيقيّة. كيف تحتمل نفسك؟

- ليس لديّ شيء آخر أقوله.

- أريد معرفة ما الذي يدور في رأسك.

لمستْ جبيني.

- ماذا يوجد هنا في الداخل؟ لا شيء أبداً؟ سواد فقط؟

عادت للاستلقاء وأدارت ظهرها. كنت أتمنّى أن يكون مشهد الشجار قد انتهى.

- حقّاً ليس لديك ما تطلبه مني؟ ولا حتّى اعتذار؟

- إنّني أعتذر.

- لو لم أكن مريضةً إلى هذا الحدّ، لكنت لطمتك، لكنت أوسعتك ضرباً. ما كنت لأترك لك ولو لحظة هدوء. لقد نجحت تقريباً في أن تحطّم حياتي. كنت أتمنّى أن تقول شيئاً- أيّ شيء يساعدني على الفهم.

لم أجب. ربّما أحسست بنفسي أخفّ. تكون الأكاذيب دوماً كالأحمال، حتّى لو بدت في البداية غير ملموسة. سحبت آرييت الغطاء إلى ذقنها. همستُ:

- تشعرين بالبرد؟

كان صوتها هادئاً حين أجابتني:

- طوال حياتي أشعر بالبرد. بحثت عن الدفء في كلّ مكان، في الصحاري وفي البلدان الاستوائية، لكن دوماً كنت أشعر بأنّ نازلةَ كهفٍ[1] صغيرة معلّقة في داخلي. كثيرون من النّاس يجرّون أحزانهم، وآخرون قلقهم. أنا أجرّ نصلي الجليديّ. فيما تجرّ أنت

(1) نوازل الكهوف هي تشكّلات حجريّة خيطيّة تنشأ في أعماق المغارات.

قرية نمل في صالون منزل صياد.

- لا أستخدم تلك الغرفة، ولا أدفئها في الشّتاء، أكتفي بتهويتها صيفاً. مات فيها جدّاي. ويخيّل لي بمجرّد دخولها أنّي أسمع تنفّسهما وأشمّ رائحتهما. اكتشفت النمل فيها أحد الأيام. وحين عدت فتحت الباب بعد بضعة أشهر، كان النمل قد بدأ ببناء منْملته. فتركت الأمر يحصل.

استدارت آرييت باتّجاهي وحدجتني بنظرة.

- ما الذي حدث؟ ليس هذا حديث تملّق، أريد حقّاً معرفة ما حدث. لماذا انتقلت إلى الجزيرة؟ على حدّ قول الرجل الذي أوصلني إليك، أنت تسكنها منذ نحو عشرين عاماً.

- يانْسون مخادع. يبالغ دائماً. أتيت الجزيرة منذ اثني عشر عاماً.

- جرّاح يتقاعد في... سنّ الرابعة والخمسين؟

- لا أريد التكلّم في الأمر. حدث خطب ما.

- تستطيع قوله لي.

- لا أريد.

- سأموت قريباً.

أدرت ظهري وأنا أفكّر أنّه لم يكن يجب التنازل لها. ليست البحيرة ما تريده، كانت تريدني أنا.

لم يتسنَّ لي الوقت لأفكّر أكثر.

تكوّرت عليّ، غلّفني دفء جسدها، وملأ فجأةً ما كان يجعلني منذ مدّة طويلة صَدَفة سخيفةً وجوفاء. هكذا كنّا ننام دوماً. أحملها على ظهري حتّى عتبة النوم. خطر لي أنّنا منذ ما يقرب الأربعين عاماً ونحن نائمان

هكذا، دون توقّف: نوم غامض كنّا نستيقظ منه للتوّ.

- ماذا حدث لك؟ تستطيع الآن أن تخبرني.

- اقترفت خطأ كارثيّاً أثناء عمليّة. بعدئذ حاولت التملّص من المسؤولية. حُوكمتُ. ليس في محكمة وإنّما أمام الهيئة الوطنيّة للصحّة، ما تسبّب لي بتلقّي إنذار لم أتحمّله. هذا كلّ ما بوسعي قوله الآن. فلا تطلبي أكثر.

- إذن، كلّمني عن البحيرة الصغيرة.

أصبح صوتها همساً.

- هي سوداء، يقال إنّها لا قاعَ لها ولا ضفاف. ابنة مبهمة وفقيرة لعائلة البحيرات الواسعة والفاتنة ذات المياه الصافية. يصعب تخيّل وجودها، وتصديق أنّها ليست أكثر من قطرة حبر سكبتها الطبيعة. مرّة حين كنت صغيراً رأيت أبي يسبح فيها. وهذا قلته لك. ولكن ما لم أقله لك يوماً هو ما فهمته آنذاك. أدركت معنى الحياة. وعرفت أنّ النّاس متلاحمون لكي يتفرّقوا، هذا كلّ شيء.

- هل توجد أسماك في هذه البحيرة؟

- لا أعرف. ولكن إذا وجدت، فستكون سوداء بالكامل، غير مرئيّة في ظلمة الماء. أسماك سوداء، ضفادع سوداء، وبعوض أسود. وبالقاع، إذا كان ثمّة قاع، إنقليس وحيد يتحرّك في الطمي ببطء.

شدّت عليّ بقوّة أكبر. خطر لي أنّها تحتضر، وأنّ دفئها سيتحوّل قريباً إلى برد غادر. ماذا قالت؟ نازلة كهف متجمّدة في داخلها؟ إذن، الموت بالنسبة لها جليد، لا شيء آخر. ليس الموت عينه عند كلّ شخص، هذا الظلّ الذي يلاحقنا يتبدّى لنا بأقنعة مختلفة. كانت تتملّكني رغبة في أن

أستدير وأضمّها بكلّ قواي. لكن كان هناك ما يمنعني من القيام بذلك. ربّما كنت لا أزال خائفاً من السّبب الذي دفعني إلى هجرها في الماضي؟ ربّما من الحميميّة الطافحة، والمشاعر المفلتة من عقالها؟

لم أكن أعرف شيئاً عن ذلك، ولكن ربّما صرتُ راغباً في أن أعرف.

غفوتُ على الأرجح. ولما تنبّهتُ، كانت تجلس على طرف السرير. شعرت بالهلع حين رأيتها ترتمي على ركبتيها وتزحف إلى الحمّام. عارية، ثقيلة الثديين، وجسدها شائخ أكثر ممّا توقّعت. هل تزحف لأنّها أوهن من أن تمشي أم لم ترد إيقاظي بصوت عكّازها؟ لا أعرف. اغرَوْرَقَت عيناي بالدّمع. أغلقَت الباب، لم أعد أرى بوضوح. وحين أعادت فتحه، كانت قد استطاعت الوقوف على رجليها، لكن مع رجفة. عادت واستلقت لِصْقي.

- لست نائماً، قلت. لم أعد أفهم ما يجري.

- تلقّيت زيارة غير منتظرة في جزيرتك. خرجت امرأة من ماضيك وانبثقت أمامك على الجليد. وها أنت فجأة تفي بوعد قطعتَه.

شممت أثناء تكلّمها رائحة كحول. أتكون قد أخفت زجاجة بين أغراض الحمّام؟

- بعض الأدوية لا تتوافق مع الكحول، قلت لها. بل معظمها.

- لو خيّرت سأختار الكحول.

- تشربين بالسرّ.

- انتبهت أنّك لاحظت. وأفضّل الاستمرار على هذا النحو.

- ما الذي تشربينه؟

- أكوافيت[1] من السّويدي العاديّ. ينبغي التوقّف غداً في أحد فروع سيستمبولجيت. بدأ احتياطيّ ينفد.

بقينا متلاصقَين في السرير ننتظر الصباح.

كانت تغفو بشكل متقطّع. توقّف الكلب عن النباح. عاودت النهوض، وانتصبت أمام النافذة. شعرت أنّي أصبحت أبي بفارق خمسة وخمسين عاماً. كان واحدنا يذوب في الآخر إلى أن صرنا واحداً.

كنت قد رأيت وحدته على ضفّة البحيرة الصغيرة. وبتّ أدرك أنّها كانت أيضاً وحدتي.

كانت تلك الوحدة تخيفني. لم أكن أريدها. لم أكن أريد أن أكون الرجل الذي يُغرق جسده في حفرة الماء الجليديّة ليتأكّد من أنّه لا يزال على قيد الحياة.

(1) الأكوافيت (Aquavit) مشروب كحوليّ قويّ، إسكندنافيّ الأصل، يكون بنكهة الكراوية أو الشبت. والتسمية مأخوذة من التعبير اللّاتينيّ Aqua vitae، ويعني «ماء الحياة».

(8)

تركنا الفندق قبل التاسعة بقليل.

كان الصباح محتجباً وراء الضباب، الحرارة فوق الصفر ببضع درجات، والهواء معتدل. لم يعد رجل البيانو للظهور. حلّت مكانه آنسة في مكتب الاستقبال، سألتنا بدورها إن كنّا قد نمنا بشكل جيّد، وإذا كانت إقامتنا مرضية. كانت آرييت واقفة على بعد خطوات منّي مستندةً إلى عكّازها.

- نمنا بشكل رائع، أجابتها. السرير واسع ومريح.

سدّدتُ فاتورة الفندق، وسألتُ إن كان لديها خريطة. غابت لدقائق ثمّ عادت ومعها دليل خرائط للطرق.

- أعطيكما إيّاه، قالت. نسيَهُ شخص من لُوند الشهر الفائت.

مضينا قُدماً في الضباب.

كأنّنا نسير في بلاد بلا طرق. أقود ببطء بسبب انخفاض الرؤية. فكّرت في كلّ المرّات التي كنت أغوص فيها في مثل هذه السحابة الكثيفة قرب جزيرتي، حين كان الضباب يأتي من البحر. كنت أفلت المجدافين تاركاً للبياض أن يغلّفني. كان إحساسي به دوماً أشبه بمزيج نادر من الأمان والتهديد. كانت جدّتي تحكي وهي جالسة على مقعدها تحت شجرة التفّاح، قصصاً عن أناس دخلوا الضباب يجدّفون قواربهم. كانت تعتقد

أنّ في وسط الضباب ثقباً يبتلع من يدخله، فلا يعود منه أبداً.

بدت الأضواء أشبه بالعيون، وهي تثقب الضباب من حين لآخر. كانت تمرّ سيّارة مسرعة أو شاحنة، ثمّ نعود وحدنا ثانية.

في القرية التي تجاوزناها، يوجد أحد فروع سيستيمبولوجيت. أخذتُ طلب آرييت، لكنّها أصرّت على دفع ثمنه. فودكا، أكوافيت، كونياك وكلّها زجاجات من سعة الخمسمائة ميللتر.

أخذ الضباب يتبدّد شيئاً فشيئاً؛ وأحسست في الجوّ بما ينذر بثلج قريب. وفيما كنت أدير المحرّك، فتحت آرييت إحدى الزجاجات وابتلعت عدّة جرعات من الزجاجة مباشرة. لم أقل شيئاً؛ لم يكُ ثمّ ما يقال.

فجأةً تذكّرت:

أفتنُلوتن. هذا هو اسم الجبل الذي كان يرتفع بالقرب من البحيرة التي رأيت فيها أبي يسبح كحيوان الفظّ[1] السعيد.

أفتنُلوتن.

تذكّرت أنّي سألته عن معنى الاسم. لكنّه لم يكن يعرف. أو على الأقلّ، لم يجبني.

أفتنلوتن.

كأنّها كلمة مأخوذة من أغنية راعٍ قديمة. جبل صغير عديم الشأن، ستّمائة متر أو أكثر قليلاً، يقع بين بحيرةِ لينسيون في بيترهوغدال وألفروس.

أفتنلوتن. لم أقل شيئاً لآرييت لأنّي لم أكن متأكّداً بعد من أن أجد طريق البحيرة.

(1) الفظّ (Morse): حيوان لطيف، غير عدوانيّ إذا لم يتعرّض للاعتداء، يصنّف ضمن الفقمات الكبيرة، له نابان يستخدمهما للدفاع عن نفسه وبمثابة كلّابتين لتسلّق الجليد.

سألتها إن كان كلّ شيء على ما يرام. اجتزنا خمسة كيلومترات قبل أن تجيبني. الصمت والمسافة مترابطان. يسهل أن تظلّ صامتاً حين يتوجّب عليك قطع طريق طويل.

أخبرتني أنّها لا تتوجّع. وبما أنّ ذلك غير صحيح، لم أتكلّف عناء سؤالها ثانية.

توقّفنا لنأكل قرب حدود هاربيدالين. لم تكن توجد سوى سيّارة واحدة خارج المطعم. شيء ما في ذلك المبنى، في ذلك المكان، وضعني في حيرة لم أدرك سرّها. بيت قديم مصنوع من جذوع الأشجار. كانت نار الموقد متّقدة في الداخل والجوّ يعبق برائحة شراب التوت البريّ الذي أتذكّره منذ الطفولة. ظننت أنّه لم يعد له وجود، إلّا أنّه كان لا يزال يقدّم في هذا المطعم.

جلسنا. تراقبنا رؤوس الغزلان والطيور المحنّطة من أعلى الجدران، وحتّى على الرفّ كان ثمّة جمجمة. لم أستطع تمالك نفسي عن محاولة تخمين لأيّ حيوان كانت، وفي النهاية عرفت أنّها كانت جمجمة دبّ. وفيما كانت الجمجمة لا تزال بين راحتي، عادت النادلة التي قد أسمعتنا لازمة الأطباق اليوميّة.

- مات الدبّ ميتة طبيعيّة، قالت. لكنّ زوجي أراد أن أقول إنّه هو الذي قتله. وبما أنّه لم يعد موجوداً أستطيع الآن قول الحقيقة. كان قد وجده ميتاً قرب ريسفاتنت. كان الدبّ عجوزاً وقد استلقى ليموت بالقرب من جذع شجرة صنوبر.

تذكّرت بغتة أنّي أتيت إلى هذا المكان من قبل، حين سافرت برفقة

أبي. ربّما كانت رائحة التوت البريّ هي التي أحيت الذكرى. كنت جالساً بصحبة أبي في هذا المطعم. أكلنا وشربنا عصير التوت البريّ.

هل كانت الطيور المحنّطة حينها تطلّ على الزوّار بعيونها الجامدة؟ لا أتذكّر. لكن أعرف أنّي أتيت. وأرى أبي وهو يمسح فمه بطرف المنديل، ويتفقّد ساعة الحائط ويلحّ عليّ في أن أسرع، فالطريق كان لا يزال طويلاً أمامنا.

ثمّة خريطة مثبّتة على الحائط بالقرب من الموقد. يظهر فيها أفتنلوتن وبحيرة لينسيون، وجبل آخر كنت قد نسيته يدعى فنوسيين. اسم غير مفهوم، أقرب إلى النكتة. نكتة بعلوّ خمسمائة متر مغطّاة بالتنّوب. بعكس أفتنلوتن الذي هو في ذات الوقت اسم جميل ورصين.

اخترنا لحم البقر بالصلصة. انتهيت من الأكل قبل آرييت وجلست أنتظرها بجانب الموقدة.

عند مغادرتنا وجدت آرييت صعوبة في تجاوز عارضة العتبة مع عكّازها. سارعتُ لمساعدتها.

- دعني، أستطيع تدبّر أمري.

قالتها بما يشبه الزئير.

عدنا إلى السيّارة بخطى بطيئة على الثلج. خطر لي أنّنا لم نعشْ معاً، مع أنّ كلَّ من يصادفنا ينظر إلينا كثنائيّ قديم، إذ يبدي واحدنا صبراً غير محدود تجاه الآخر.

- ليس لديّ قدرة على المتابعة اليوم، قالت آرييت داخل السيّارة.

رأيت العرق يتلألأ على جبينها، بسبب الإنهاك. عيناها شبه مغمضتين كأنّها ستغفو. خطر لي إنّها تموت. «هنا. الآن. في سيّارتي».

تساءلت مرّات كثيرة عن مكان موتي. هل سيكون في سريري، أم في الشارع، في المتجر أم على الرّصيف الخشبيّ بانتظار يانْسون؟ لكن لم يخطر لي على بالٍ أن يكون في سيّارة.

أصرّت:

- يجب أن أرتاح. وإلا فلن أعرف كيف ستنتهي هذه الرحلة.

- ينبغي إخباري عندما لا تستطيعين المواصلة.

- هذا ما أفعله في هذه اللّحظة. غداً سيكون يوم البحيرة، وليس اليوم.

وجدت في القرية الأقرب إلينا نُزلاً عائليّاً، بيتاً أحمر وراء الكنيسة. استقبلتنا سيدة لطيفة. وعندما رأت العكّاز عرضت علينا غرفة واسعة في الطابق الأرضيّ. ومع أنّي أفضّل أن تكون لي غرفة مستقلّة، إلّا أنّه لم تكن لديّ البداهة الكافية للاعتراض. وبينما استلقت آرييت، رحت أتصفّح رزَم المجلّات المرميّة على الطاولة. غفوت وبعد بضع ساعات خرجت لأشتري فطائر البيتزا من صالة مقفرة، حيث كان رجل عجوز يتمتم وحده، وعند قدميه يجثو كلب رماديّ.

أكلنا، ونحن جالسان على السرير. بدت آرييت منهكة، فعادت لتستلقي من جديد بعد أن أنهت حصّتها من البيتزا. سألتها إن كانت تريد التحدّث، فهزّت رأسها بالنفي.

خرجت عند الغروب لأتجوّل في القرية الصغيرة. كان ثمّة أكثر من متجر فارغ وعلى واجهته ورقة تشير إلى الهاتف الذي ينبغي التوجّه إليه لمن يهمّه أن يستأجره. كما لو أنّها نداء استغاثة. منطقة سويديّة صغيرة في محنة. جزيرة جَدّيَّ كانت جزءاً من الأرخبيل السّويدي الهائل والمهجور الذي

لم يكن يحظى باهتمام أحد، والذي لم يكن يضمّ الجزر البحريّة فقط وإنّما أيضاً قرى داخل البلد. هنا لا يوجد رصيف، ولا حوّامة الماء الغاضبة التي تثير إعصاراً من الثلج وهي ترسو مع البريد والصحف الإعلانيّة. ومع ذلك فإنّ السير في هذه القرية الصغيرة والخاوية ولّد لديّ انطباعاً بأنّي أسير على جزيرة في نهاية الأرخبيل. كان الضوء الأزرق لأجهزة التلفاز المشغّلة في المنازل يسقط على الثلج، وتتسلّل أحياناً عبر النوافذ نتَف من برامج مختلفة. هكذا كنت أتخيّل الوحدة: لا تشاهد النّاس البرنامج ذاته إلّا استثنائيّاً. في المساء، تدفن الأجيال نفسها في عوالم منفصلة ترمى على الأرض من هذا القمر الصناعيّ أو ذاك.

على الأقلّ كان لدينا برامج مشتركة في الماضي كنّا نستطيع التحدّث عنها. عن أيّ شيء نستطيع التكلّم اليوم؟

وقفت أمام محطّة قطار قديمة وأحكمتُ شدّ الوشاح حول عنقي. برد، والريح قد هبّت. ذهبت إلى رصيف المحطّة الخاوي. هناك عند سكّة الموقف المغطّى بالثلج، عربة بضائع تنتظر مثل ثور مهجور في ميدانه. على ضوء عمود الشارع تمكّنت من قراءة جدول قديم للمواعيد معلّق خلف زجاج مكسور. نظرت إلى ساعتي. يفترض أن يمرّ قطار باتّجاه الجنوب بعد بضع دقائق. انتظرت وأنا أفكّر أنّه قد حدثت معي أشياء أغرب من أن يظهر في الظلمة قطار شبحيٌّ ويغيب باتّجاه الجسر متخطّياً النهر المتجمّد.

لم يصل أيّ قطار. لم يصل شيء. لو أنّ بحوزتي علف لوضعته أمام عربة البضائع. تابعت تسكّعي، كانت السماء مليئة بالنجوم. حاولت أن أميّز حركة هناك في الأعلى، نيزكاً، قمراً صناعيّاً، أو همسة إله من الآلهة التي يزعمون أنها تسكن في الأعالي. لكن لا شيء، كانت السماء خرساء.

وصلت إلى الجسر، ولمحت جذع شجرة منغرزاً في نهر متجمّد. انكسار أسود في الأرض وسط البياض. فجأةً، ما عدت أتذكّر اسم هذا النهر. ربّما كان لوسْنان، لكنّي لست متأكّداً.

بقيت لفترة طويلة على الجسر. بغتةً، بدا كما لو أنّي لم أعد بمفردي تحت القناطر المعدنيّة. أصبحنا كثراً، وأدركت أنّ أولئك الذين أراهم كانوا أنا. بكلّ الأعمار، من الطفل الذي كان يركض على جزيرة جدّيْهِ، مروراً بالرجل الذي كان بعد عدّة سنوات قد هجر آرييت، إلى ما أنا عليه الآن. للحظة قصيرة تجرّأت على رؤية نفسي، كما كنت وكيف أصبحت.

بحثت بين الأشخاص المحيطين بي عن الشخص الذي كان ممكناً أن أكونه، لكن لم أجد أحداً، ولا حتّى رجلاً يرتدي سترة النادل البيضاء مقتفياً أثر والده.

لا أعرف كم استغرقت من الوقت هناك. حين عدت على طريق النُزل العائليّ، اختفت الأخيلة.

تمدّدت على السرير، لامست ذراع آرييت وغفوت.

حلمت في تلك الليلة أنّي تسلّقت جسراً حديديّاً، وتوقّفت عند أعلى القنطرة الضخمة، رغم معرفتي أنّي سأُدفَعُ للأسفل إلى الجليد بين لحظة وأخرى.

كانت ندف الثلج تتساقط حين بدأنا في اليوم التالي بالبحث عن طريق الغابة. لم تكن لديّ أيّة ذكرى عن المشهد الذي كان عليه سابقاً. ولا شيء في المشهد الطبيعيّ المملّ يمنح لذاكرتي أدنى علامة. أعرف فقط أنّنا كنّا في الجوّار. في مكان ما وسط مثلّث أفتنلوتن وبيترهوغدال وفنوسيين، كانت

تقع البحيرة الصغيرة التي نبحث عنها.

بدا التحسّن على آرييت هذا الصباح. عندما أفقت وجدتها قد استيقظت وارتدت ثيابها. تناولنا إفطارنا في صالة ضيّقة حيث كنّا الزبونين الوحيدين. كانت قد حلمت هي أيضاً ليلة أمس، حول أمر متعلّق فينا: ذكرى لرحلة قمنا بها في الماضي إلى بحيرة جزيرة مالار. هذه الذكرى كانت ممحوّةً لديّ.

لكن لمّا سألتني آرييت إن كنت أتذكّرها، أومأت بالإيجاب. بالطبع، أذكر كلّ ما مرّ معنا.

كانت أكوام الثلج مرتفعة، وطرق العبور نادرة، وأغلبها غير مجروف. عادت لي على نحو مفاجئ صورة من مرحلة يفاعتي. طرق الغابات، أو بالأحرى شعور مرتبط بطريق الغابة.

أمضيت صيفاً عند أحد الأقرباء من جهة أبي، في يامتلاند. كانت جدّتي مريضة حينذاك، وهذا ما منعني من الإقامة على الجزيرة جرياً على العادة. هناك عقدت صداقة مع صبيّ من عمري، كان والده رئيس المحكمة الإدارية. كنّا ننزل معاً إلى غرفة القلم في المحكمة ونفكّ الحبال الصغيرة التي تحزم سجلّات محاضر التحقيق القديمة. كانت خلافات الأبوّة أكثر ما يثير اهتمامنا آنذاك، مع كلّ تفاصيلها المذهلة والجذّابة التي كانت تحصل داخل السيّارات على المقعد الخلفيّ، ليلتي السبت والأحد. كانت هذه السيّارات تركن دوماً على طريق غابة ما. كأنّه لم يتكوَّن أحد في هذا البلد إلّا على المقعد الخلفيّ. كنا نلتهم جلسات الاستماع إلى الشهود حيث كان الشبّان، على مضض وبالقليل من الكلمات، يبرّرون أفعالهم، ما حدث أو لم يحدث، على طريق الغابة المذكورة. كان الثلج يتساقط دوماً في هذه

الشهادات، ولم تكن توجد أبداً حقيقة بسيطة ومباشرة يمكن التشبّث بها؛ يطغى دوماً ارتباك كبير، ارتباك يدفع الشبّان إلى القسم بالشرف لكي يستعيدوا حريّتهم فيما تصرّ الفتيات على عكس ذلك، إذ يؤكّدن أنّه بالفعل هو هذا الشابّ بالتحديد ولا أحد سواه، وعلى هذا المقعد بالذات، وفي طريق هذه الغابة بالضبط. كنّا نشعر بالسرور أمام الآلاف من هذه التفاصيل الغامضة وأعتقد أنّنا حلمنا بقوّة، إلى أن وصلتنا الحقيقة، أن نستطيع يوماً ما، نحن أيضاً، أن نقرب فتيات على المقاعد الخلفيّة للسيّارات المركونة على طريق الغابة تحت الثلج.

هكذا كانت الحياة. كلّ ما رغبنا فيه كان مغامرة دائمة على طريق الغابة. ودون أن أعرف بالضبط لماذا، أخذت أسرد هذه الذكريات لآرييت. في هذه المرحلة، بدأت أنتهج تلقائياً كلّ طريق سالك نصدفه.

- لا أنوي أن أكلّمك عن خبراتي على المقعد الخلفيّ، قالت. لم أفعلها حين كنّا معاً ولن أبدأها الآن. ثمّة لحظة مهينة في حياة كلّ النساء. والأسوأ للكثيرات منّا، هو أشياء حدثت في سنّ مبكرة.

- حين كنت طبيباً، كنت أخوض أحياناً في نقاشات مع زملائي عن عدد الأشخاص الذين لا يعرفون آباءهم الحقيقيّين. كثيرون أقسموا أنّهم أبرياء لكي يستعيدوا حرّيتهم، وآخرون تحمّلوا مسؤوليّات لا ذنب لهم فيها. في حالات كثيرة لم تكن الأمّهات أنفسهنّ يعرفن من كان الأب.

- الشيء الوحيد المتبقّي لي من تلك المحاولات الجنسيّة المبكّرة واليائسة كلّياً، هو رائحتي، كم كانت غريبة! ورائحة الصبيّ التي كانت تخنقني حينها. هذا كلّ ما أتذكّره، إثارة مشوّشة ومجموع تلك

الروائح الغريبة.

ظهرت على الطريق قبالتنا، بغتةً، حاصِدَة أشجار تشبه وحشاً ضخماً. فرملت بشكل مفاجئ، فانزلقت السيّارة إلى انجراف ثلجيّ وغاصت عجلاتها. نزل الرجل الذي كان يقود الحيوان من مقصورته. ودفع السيّارة فيما كنت أضغط دوّاسة البنزين عائداً إلى الوراء. ترجّلت بعدما تمكّنا أخيراً من تحريرها. كان الرجل ذا بنية قويّة، يسيل من زاوية شفتيه خيط تبغ المضغ، ويشبه على نحو غريب آلته الضخمة التي يقودها.

- تائه؟ أراد أن يعرف.

- أبحث عن بحيرة.

زمّ أجفانه.

- تبحث عن ماذا؟

- بحيرة.

- أليس لها اسم؟

- دون اسم.

- ورغم ذلك تبحث عنها؟ حسناً. يوجد الكثير هنا وما على الشخص إلّا أن يختار. ما حاجتك إليها؟

كنت أعرف أنّه وحده مجنون يبحث عن بحيرة بلا اسم في ذروة الشّتاء داخل غابة. فأخبرته بالحقيقة، وأنا أفكّر أنّ غرابة الأمر ربّما تجعله قابلاً للتصديق.

- منذ خمسة وخمسين عاماً سبحت مع أبيك في بحيرة من ناحية أفتنلوتن. هكذا هو الأمر؟

- بلى، ووعدت المرأة التي تجلس هناك بأن أريها هذه البحيرة، إنّها مريضة.

شعرت بأنّه متردّد، ثمّ قرّر أن يصدّقني، غالباً ما تفرض الحقيقة نفسها على الملاحظة، هذا ما حسبته.

- وتعتقد أنّ مشاهدة البحيرة ستشفيها؟

- ربّما.

هزّ رأسه. مفكّراً.

- توجد بحيرة هناك في نهاية الطريق قد تكون هي.

- أتذكّر أنّها كانت مدوّرة تماماً، وليست كبيرة إطلاقاً، تصل الغابة إلى ضفّتها.

- إذن من المرجّح أن تكون هي. وإلّا فلا أدري، فالغابة مليئة بالبحيرات.

مدّ يده مصافحاً وقدّم نفسه:

- هارالد زفنبك. لا نصادف الكثير من الأشخاص في هذه المنطقة شتاءً، هذا نادر. حسناً. أتمنّى لك التوفيق، وكذلك للأمّ هناك في السيّارة.

- هي ليست أمّي.

- لا أدري! بالتأكيد هي أمّ شخص ما.

تسلّق جانب آلته إلى المقصورة وأدار المحرّك. عدت إلى السيّارة.

- ما هي هذه اللّهجة التي كان يتكلّم بها؟ سألت آرييت.

- لهجة الغابة. أعتقد أنّ لكلّ شخص في هذه المنطقة لهجته الخاصّة. يفهمون بعضهم بعضاً، ولكن لا يتكلّمون بنفس الطريقة، ذلك أنسب لهم. يمكن أن نتخيّل أنّ كلّ شخص في هذه الأمكنة هو سلالة خاصّة، شعب خاصّ، قبيلة مفردة لها تاريخ استثنائيّ. ولن

تجدي أحداً يأسى على اللغة التي تموت معهم. ولكن بالطبع، ثمّة دائماً شيء ما ينجو.

تابعنا. الغابة شديدة الكثافة، يتصاعد الطريق بنا عبر منحدر سهل. هل أتذكّره؟ حين قدمت مع أبي بالشوفرليت القديمة ذات اللون الأزرق الرماديّ، والتي كان دائم الاعتناء بها، هل كان ثمّةَ طريق صاعد؟ شعرت بأنّنا في الطريق الصحيح. تجاوزنا المنطقة التي تتكوّم فيها الجذوع المقطّعة حديثاً. كانت الآلة الكبيرة التي يقودها هارالد زفنبك قد مزّقت أشلاء الغابة. فجأةً بدت المسافات غير نهائيّة. تأكّدت في المرآة من أنّ الغابة لا تعاود الانبثاق خلفنا. كما لو أنّي أمضي عكس الزمن. تذكّرت تسكّعي بالأمس والجسر وأخيلة ماضيّ. ربّما كنّا نمضي صوب بحيرة صيفيّة، كنّا أنا وأبي نستعدّ لدخولها؟

واجهتنا بضع منعطفات حادّة، وانجرافات مرتفعة جدّاً.

وصلنا إلى نهاية الطريق.

كانت البحيرة ممتدّة أمامنا تحت غطائها الأبيض. أطفأت المحرّك، لقد وصلنا. لم يكن ثمّة ما يقال. كانت هي حقّاً، بلا أدنى شكّ. بعد خمسة وخمسين عاماً، ها أنا قد رجعت.

كان الغطاء الأبيض المفروش يرحّب بنا. داهمتني رغبة مباغتة بالانحناء، وأنا أفكّر في الطريقة التي عادت بها آرييت لملاقاتي على الجزيرة. كانت رسولة، حتّى لو لم تكن لتمثّل إلّا نفسها. أو قد أكون أنا من ناديتها. هل انتظرتُ طيلة تلك السنوات يوم رجوعها؟

لم أكن أعلم. إلّا أنّنا قد وصلنا.

(9)

قلت لآرييت: إنّ البحيرة أمامنا. تأمّلَتْ مطوّلاً البياض المتماثل من خلال الزجاج الأماميّ.

- يوجد ماء تحت الثلج إذن؟

- ماء أسود. وكلّ كائناته في طور السبات. لكنّها هي بالفعل.

نزلنا، وأخرجت العكّاز الرباعيّ من صندوق السيّارة، فغرز في الثلج.

- عودي إلى السيّارة ريثما أفسح لك درباً، قلت لآرييت. سأدير المحرّك ثانية لتتدفّئي. إلى أين تريدين أن تصلي؟ إلى الضفّة؟

- إلى وسط البحيرة.

أدرت المحرّك، وساعدت آرييت على الرجوع إلى مقعدها، حملت الرفش وأخذت أجرف. ثمّة تحت الثلج بعشرات السنتمترات طبقة جليد. بدأ العمل ببطء. خطر لي أنّه من الممكن أن أنهار وأموت في مكاني، من جرّاء الجهد.

أخافني ذلك. لمّا سمعت ضربات قلبي أبطأت وتيرة العمل. في آخر تحليل أجريته كانت نسبة السكّر مرتفعةً قليلاً، أمّا بقيّة التحاليل فكانت جيدة. لكن يمكن أن يكون للجلطة أسباب غير مرئيّة وتضرب بوقت غير متوقّع، مثل انتحاريّ مجهول يفجّر نفسه بغتةً في إحدى غرف القلب.

ليس من النادر لرجال في سنّي أن يموتوا وهم يجرفون الثلج، موت مفاجئ فيه شيء من الإحراج، إذ يبقى رفش حديديّ صغير ممسوكاً بأصابعهم المتصلّبة.

احتجت إلى وقت طويل لتهيئة درب سالك إلى وسط البحيرة. وصلت إلى الهدف مبلّلاً بالعرق، والتشنّج يمسك بظهري وذراعيّ. كان غاز العادم يشكّل غيمة وراء السيّارة. لم أكن أسمع صوت المحرّك من مكاني، فبدا الصمت كاملاً، لا طيور ولا أيّة حركة داخل هذه الغابة الخرساء.

تمنّيت رؤية نفسي من بعيد وأنا مختبئ بين الأشجار: مترصّد يراقب نفسه.

فكّرت وأنا عائد إلى السيّارة أنّ كلّ شيء سينتهي قريباً.

سأوصل آرييت إلى المكان الذي تدلّني عليه، ونتبادل تحيّة الوداع. أعرف فقط أنّها تقيم في ستوكهولم. وعندئذ سيكون باستطاعتي الرجوع إلى جزيرتي. قرّرت وأنا أفكر في كلّ هذا أن أرسل بطاقةً بريديّةً ليانْسون. لم أتخيّل أن أكتب له يوماً. ولكنّي أحتاج إليه الآن. سأشتري بطاقة تمثّل غابات واسعة، والأفضل أن تكون مغطاةً بالثلج. وسأضع إشارة في الوسط وأخبره: «أنا هنا. سأرجع قريباً. أطعِمْ حيوانيّ».

كانت آرييت مع عكّازها خارج السيارة. مشينا معاً الدرب الذي فتحته للتوّ. شعرت أنّنا نسير في موكب من بوّابة الكنيسة إلى الهيكل.

بماذا تُفكّر؟ كانت تتلفّت حولها كأنّها تبحث عن أثر لحياة بين الأشجار. إلّا أنّ كلّ شيء، خلا أزيز محرّك السيّارة، بدا صامتاً.

- طوال حياتي ظللت أخاف الجليد، قالت فجأةً.

- ومع ذلك كان لديك الجرأة في أن تصلي إلى جزيرتي.

- أخاف، ولكن لا يعني ذلك أنّي لا أجرؤ على تحدّي مخاوفي.

- تكاد هذه البحيرة تكون متجمّدة حتّى قاعها. تبلغ سماكة الجليد فيها عدّة أمتار، وهي تكفي لحمل فيل.

انفجرت بالضحك.

- سيكون رائعاً لو ظهر فيل على هذه البحيرة ليهدّئ من روعي! فيل مقدّس يطمئن تلك التي تخشى رقّة الجليد...

وصلنا للوسط.

- أعتقد أنّي أستطيع تخيّلها، قالت. دون جليد.

- الأجمل حين تمطر، أتساءل على الدوام إذا كان هناك في العالم شيء أجمل من زخّة مطر خفيفة في صيف السّويد. توجد في بلدان أخرى نصب تذكاريّة عظيمة، قمم شاهقة أو هاويات تبعث على الدّوار. أمّا نحن فلدينا أمطارنا الصيفيّة.

- والسّكون.

لم نقل بعدها شيئاً، كنت أحاول فهم مغزى وصولنا إلى هناك. وعدٌ تمّ الوفاء به متأخّراً جدّاً، بعد سنوات طوال. لا يتعدّى الأمر ذلك. لقد انتهت الرحلة ولم يبق إلّا الخاتمة: عدد من الكيلومترات على الطرق الجليديّة باتّجاه الجنوب.

قطعت آرييت الصمت:

- لم أفهم أبداً لأيّ سبب أردتَ إحضاري إلى هنا.

- والآن فهمتِ؟

- أتصوّر أنّها ربّما تكون جميلة في الصيف.

التفتت إليّ.

- هل أتيت إلى هنا بعد هجرك لي؟ بصحبة شخص آخر؟
- كلّا، حتّى لم تخطر الفكرة على بالي.
- لماذا تخلّيت عني؟

اندفع السؤال بقوّة غير متوقّعة. لاحظت أنّها مضطربة من جديد، وهي تتشبّث بمقبضيّ عكّازها.

- عرضّتَني إلى ألم لا يطاق. بذلت جهداً هائلاً لأملك القوّة على نسيانك، ولم أنجح في ذلك. والآن، وقد وصلت إلى بحيرتك أخيراً، أشعر بالندم لأنّي جئت باحثةً عنك. فما الذي كنت أتوقّعه؟ وشيكاً سأموت. فلماذا أكرّس الوقت القليل المتبقّي لأنكأ جروحاً قديمة؟ ما الذي أتيت أفعله هنا؟

سكتنا لبرهة قصيرة. خيّم صمتٌ، ونظراتنا لا تلتقي. ثمّ أدارت عكّازها الرباعيّ وعادت على الدرب الذي أتينا منه. انتظرت قليلاً قبل اللّحاق بها. كلّ شيء سينتهي قريباً. الرحلة تدنو من نهايتها.

لمحت في تلك اللحظة ظلّاً على الثلج، لم ألاحظه حين كنت أصارع بالرفش لأفتح درباً لآرييت. ظلٌّ داكن. حدّقت به دون أن أستطيع تمييزه. حيوان ميت؟ حجر؟ لم تنتبه آرييت لتوقّفي، وأنا أحيد عن الدرب. اقتربت من الظلِّ الداكن.

كان ينبغي أن أتحسّس الخطر، وأن ينذرني حدسي، ومعرفتي بالجليد ونزواته. فلم أدرك إلّا متأخراً أنّ هذه البقعة الداكنة ليست إلّا الجليد نفسه. كنت أعرف أنّه، لأسباب مختلفة، يمكن للجليد أن يكون رقيقاً في دائرة ضيّقة حتّى لو كان شديد السَّماكة حولها. كنت على وشك تجنّبها وأنا أخطو إلى الوراء، بيد أنّها انهارت، وسقطتُ داخلها. وصل الماء إلى

ذقني. كان يفترض أن أكون معتاداً على الاحتكاك العنيف مع البرد، بعد الحمّامات الشتويّة التي لا تحصى. لكنّ هذا شيء آخر. لم أكن مستعدّاً، ولم أحفر الحفرة بنفسي. صرخت. لم تلتفت آرييت وتراني في الحفرة، إلّا في النداء الثاني. كنت مشلولاً من البرد، وكان صدري يحرقني، جعلتُ أعبّ الهواء الجليديّ بيأس، ملء رئتي، وأنا أبحث عن القاع تحت قدميّ. حاولت التشبّث بطرف الحفرة، إلّا أنّ أصابعي قد تخدّرت.

صرخت، صرخة قلق قاتل. لاحقاً، أخبرتني آرييت أنّها سمعت ما يشبه صراخ حيوان.

ولا شكّ أنّها كانت الشخص الأقلّ مقدرة في العالم على نجدتي، هي التي لم تكن تقوى على الوقوف على قدميها.

لكنّها هناك على الجليد فاجأتني، على الأقلّ بقدر ما فاجأت نفسها. اقتربت مع عكّازها، بأسرع ما تستطيع. ثمّ تمدّدت على الجليد، وقلبت عكّازها الرباعيّ ودفعته باتّجاهي لأتمسّك بعجلته. لا أعرف كيف تمكّنا من انتشالي خارج الحفرة. كانت تسحب بذراعيها وهي تزحف على الثلج عائدة للخلف. وما إن صرتُ في الخارج حتّى اندفعتُ إلى السيّارة، بين مترنّح وزاحف. كنت أسمع صوت آرييت ورائي، دون أن أفهم ما تقوله؛ ما كنت أعرفه فقط هو أنّي إن توقّفت سقطتُ على الثلج ولن تكون لديّ القوّة على النهوض ثانية. لم أبقَ في الماء أكثر من بضع دقائق، غير أنّها كانت كافية تقريباً لتقتلني. لا أتذكّر طريقي إلى السيّارة. لم أكن أرى شيئاً، ربّما كنت أغمض عينيّ كي لا أرى المسافة التي تفصلني عنها. حين ارتطم وجهي بصندوقها لم أكن أبالي بشيء سوى خلع ثيابي المبتلّة، المثلّجة، ولفّ جسدي بالغطاء الموجود على المقعد الخلفيّ. لا أعرف كيف قدرت على

فعل ذلك. كانت في أنفي رائحة قويّة من غاز العادم حين خلعت أخيراً آخر قطعة من ثيابي وفتحت الباب بصعوبة. لففت نفسي بالغطاء، ولا أتذكّر ما حدث بعد ذلك.

حين صحوت كانت آرييت متعرّية مثلي وتطوّقني في حضنها.

في عمق وعيي كان البرد قد تحوّل إلى شعور بالحرقة. أوّل ما رأيته وأنا أفتح عينيّ هو شعر آرييت وعنقها. شيئاً فشيئاً بدأت أستعيد ذاكرتي.

كنت حيّاً. كانت آرييت قد خلعت ثيابها وراحَتْ تضمّني تحت الغطاء بقوّة إليها لتدفّئني. لاحَظتْ أنّني استعدت وعي.

- كان ممكناً أن تموت، قالت.

- الجليد انهار فجأةً.

- ظنَّنت أنّه صراخ حيوان. لم أسمعك يوماً تصرخ هكذا.

- كم مضى من الوقت؟

- ساعة.

- كلّ هذا؟

أغلقت عينيّ. كان جسدي يحرقني.

- لم أكن أريد رؤية البحيرة من أجل أن تموت، قالت.

صرنا في النهاية لا أكثر من عجوزين عاريين في سيّارة قديمة. كنّا قد أثرنا الأمور التي كانت تجري في الماضي، وربّما كانت لا تزال تحدث، في المقاعد الخلفيّة للسيّارات المركونة على الطرق المعزولة للغابات. حيث يمارس الحبّ وتشترى الحرّية لاحقاً بحنث اليمين. أمّا نحن اللّذان كان لدينا مائة وخمسة وثلاثون عاماً إذا جمعنا عمرينا، فكنّا نكتفي بالتشبّث

أحدنا بالآخر، الأوّل لأنّه نجا، والثانية لأنّها لم تُترك وحيدة في الغابة.

مضت ساعة. ثمّ عادت آرييت إلى المقعد الأماميّ لترتدي ملابسها.

- كان الأمر أسهل في الماضي حين كنت شابّة. جدّة خرقاء مثلي... لديها صعوبة في ارتداء ملابسها داخل سيّارة.

أحضرتْ لي ثياباً من حقيبة الظهر التي في الصندوق. وأدفأتها قبل أن أرتديها فوق المقود حيث يتسلّل دفء المحرّك إلى المقصورة. انتبهت فجأةً إلى أنّها بدأت تُثْلِج. أقلقتني فكرة أن يتكوّم الثلج على الطريق ويعيق رجوعنا.

ارتديت ملابسي بأسرع ما يمكن. كانت حركاتي أشبه بحركاتِ سكران.

كان الثلج يتساقط بندف كبيرة حين تركنا البحيرة، إلّا أنّ الدرب كان لا يزال سالكاً.

عدنا إلى النزل العائليّ ذاته. في هذه المرّة، آرييت هي التي اضطرت للخروج مع عكّازها لتشتري البيتزا التي حلّت محلّ العشاء.

تقاسمنا إحدى زجاجات الكونياك.

كان وجهها آخر ما رأيته قبل أن أغفو.

كان قريباً جدّاً من وجهي. أظنُّها كانت تبتسم، آمل أن يكون كذلك.

(10)

عند استيقاظي في اليوم التالي، وجدت آريت جالسة أمام دليل خرائط الطرق. كان جسدي كلُّه يؤلمني، كما لو بعد عراك. سألتني عن حالتي، فأجبت «جيّدة».

- الفوائد، قالت مع ابتسامة واسعة.

- أيّة فوائد؟

- فوائد الوعد. بعد كلّ هذه السنين.

- ماذا تريدين؟

- انعطافة.

أرتني المكان الذي نحن فيه على الخارطة، وعوضاً عن النزول باتّجاه الجنوب، انزلقت إصبعها باتّجاه الشرق، صوب ساحل هالسينغلاند. وثبّتتها بالقرب من هوديكسفال.

- هناك، قالت.

- ما الذي ينتظرك هناك؟

- ابنتي. أريدك أن تلتقي بها. لن يستغرق الأمر منك إلّا يوماً إضافياً، أو ربّما اثنين.

- لماذا تقيم هناك؟

- لماذا تقيم أنت على جزيرتك؟

بالطبع، كان لها الكلمة الفصل. ذهبنا باتّجاه الساحل. كان المشهد يتكرّر في كلّ مكان: بيوت وحيدة، مع صحونها للاستقبال الفضائيّ وباحاتها المقفرة التي لا يُرى فيها أحد.

في نهاية ما بعد الظهيرة، أعلنت آرييت أنّها لن تقوى على المواصلة، فتوقّفنا في ديلسبو. كانت غرفة الفندق صغيرة ومغبرّة. تناولت آرييت دواءها ونامت، منهكة. ربّما تكون قد غافلتني وشربت. خرجت. اشتريت من الصيدليّة التي عثرت عليها نسخة من *Patient-FASS*، قاموس الأدوية. ثمّ جلست في مقهى وقرأت كلّ ما يخصّ علاج آرييت.

بدا من غير الواقعيّ أن أكون أمام فنجان قهوة وقطعة حلوى باللّوز، وسط بضعة أولاد يصرخون ليسترعوا انتباه أمّهاتهم الغارقات في قراءة مجلّات ممزّقة، وأن أدرك إلى أيّ حدّ كانت آرييت مريضة. كان يزداد شعوري بأنّي في زيارة لعالم فقدته خلال سنوات إقامتي على الجزيرة. طوال اثني عشر عاماً، كنت أنكرت أن يكون وراء الصخور التي كانت تحوطني عالمٌ كان بالفعل يعنيني. كنت قد تحوّلت إلى ذلك النّاسك الذي يقبع في مغارته، جاهلاً ما يجري خارجها.

في ذلك المقهى في ديلسبو، فهمت أنّي لم أعد قادراً على استعادة تلك الحياة. طبعاً، سأعود إلى جزيرتي. ليس لديّ مكان آخر أذهب إليه. ولكن لا شيء سيعود كما كان. لحظة اكتشافي الظلّ الداكن فوق الجليد، اصطفق باب ورائي، ولن يُفتح ثانيةً.

اخترت من كشك للصحف بطاقة بريديّة تصوّر سياجاً خشبيّاً مغطّى بالثلج وأرسلتها إلى يانْسون.

طلبت منه أن يطعم حيوانيّ، نقطة على السطر.

عندما عدت، كانت آرييت مستيقظة. حين رأت الكتاب الذي أحضرتهُ، هزّت رأسها معلنةً:

- ليس لديّ اليوم رغبة في إثارة مآسيّ.

نزلنا لنتعشّى في المطعم.

كانت تصلنا من المطبخ رائحة قويّة للشحم المحروق. فكّرت أنّ زماننا هو زمن المواد نصف المطبوخة وزيت القلي. بسرعة أبعدتْ آرييت صحنها وهي تعلن أنّها لم تعد جائعة. قلت لها إنّها رغم ذلك يجب أن تحاول الأكل. لماذا قلت لها ذلك؟ شخص على حافّة الموت لا يأكل أكثر ممّا يحتاجه للفترة القصيرة المتبقّية من حياته.

عدنا وصعدنا بسرعة. كانت الجدران الفاصلة بين الغرف رقيقة، وكان شخصان يتحادثان في الغرفة المجاورة؛ رغم جهودنا، لم نستطع أن نلتقط ما يقولانه.

- ما زلت تسترق السمع وراء الأبواب؟ سألتني آرييت دون سابق إنذار.

- ليس عندي أيّة فرصة في التقاط الأحاديث التي تدور على جزيرتي.

- كنت دائماً تتجسّس عليّ حين أتكلّم بالهاتف. تتظاهر بقراءة كتاب أو بمطالعة صحيفة، كي تخفي أذنيك الكبيرتين. أتذكر ذلك؟

قولها أثار غضبي. لكنّها محقّة بالطبع. كنت طوال حياتي شخصاً يسترق السمع، بدءاً بأبويّ حين كنت أحاول أثناء حديثهما فكّ لغز همساتهما القلقة. اختبأت خلف شقوق الأبواب لأسمع أحاديث زملائي، مرضاي، فعلت كلّ شيء لألتقط محادثات حميمة لغرباء، في المقاهي

وداخلَ القطارات. هكذا توصّلت إلى أنّ جميع الأحاديث تقريباً تنطوي على آثار كذب غير مرئيّة. تساءلت إذا كان الأمر دوماً هكذا، إذا كانت البشريّة قد لجأت منذ البدء إلى هذه الحِيَل الصغيرة الكاذبة لتزيد فُرَصَ تحقيق التواصل فيما بينها.

صمت جيراننا في الغرفة. كانت آرييت متعبة. استلقت وأغمضت عينيها.

لبست سترتي بسرعة وخرجت في القرية الصغيرة الخاوية. الضوء الأزرق يسقط في كلّ الأمكنة من الشبابيك الخشبيّة. من حين لآخر تعبر درّاجة ناريّة، أو سيّارة مسرعة، ثمّ يخيّم الصمت ثانية. كانت آرييت تريدني أن أقابل ابنتها. لماذا؟ هل أرادت أن تريني بذلك أنّها استطاعت تدبّر أمرها من دوني، وأنّها رُزقت الابن الذي لم أُرزَق به؟ انتابني حزن، هناك، على الرّصيف الذي كنت أسير عليه في ذلك الليل الشتويّ.

وقفت بالقرب من حلبة تزلّج مضاءة، حيث يندفع بضعة شبّان بسرعة كبيرة مع عصيّ الباندي[1] المحنيّة وكرة حمراء. عادت لي طفولتي بقوّة: الصوت الجافّ لأسنّة أحذية التزلّج على الجليد، العصيّ التي تلاحق الكرة، الصرخات المتقطّعة، والوقوع الذي ننهض منه بسرعة فائقة. هذه هي الذكرى التي أحفظها عن اللعبة، رغم أنّي لم أمسك عصاً مقوّسة في حياتي؛ لقد وجّهوني أكثر باتّجاه الهوكي، الذي هو في ذاكرتي لعبة أكثر عنفاً ممّا كنت في تلك اللحظة أراه تحت بصري.

أن ينهض المرء بسرعة فائقة حين يقع.

---

(1) لعبة الباندي (Bandy): هي رياضة شتوية تلعب على الجليد، تشبه هوكي الجليد إلا أنّ قواعدها قريبة من قواعد كرة قدم، نشأت في إنجلترا، وتعتبر إنجلترا وروسيا وفنلندا والسويد من أقوى الدول في هذه الرياضة.

هذا هو الدرس الأكبر لمباراة الهوكي المرتبطة بطفولتي. وسوف يكون صالحاً في عالم الكبار.

أن ينهض المرء بسرعة فائقة، لا أن يظلّ طريح الأرض كما فعلت أنا بالضبط. لم أعاود النهوض ثانية، بعد خطيئتي القاضية.

وأنا مستمرّ في مراقبة اللّاعبين، انتبهت إلى صبيّ أصغر من الآخرين، وبدين علاوة على ذلك، إلّا إذا كان ملتحفاً بالثياب أكثر من رفاقه. غير أنّه الأمهر. والأكثر سرعة، يتحكّم بالكرة دون النظر إليها، يناور بلمح البرق ويكون دائم الاستعداد ليستلم بإتقانٍ الكرة التي يمرّرها له زميله. كان رفاقه يدركون تفوّقه. بدين صغير على مزلاجه كان أكثر زهواً من أيّ أحد آخر. حاولت التماهي مع أحد اللاعبين الذين يرمحون على الجليد كالطيور. أيّ منهم يمكن أن يكون أنا، مع عصاي للهوكي، الثقيلة جدّاً؟ بأيّ حال لن أكون الصغير السريع، صاحب الموهبة الواضحة جدّاً. سأكون أحد الآخرين، **حبّة أويسة العنب** كما كان يقال، التي يمكن سحبها في أيّة لحظة من اللعبة واستبدالها بحبّة أخرى.

أن لا يماطل المرء في النهوض أبداً حين يقع.

كنت قد وقعت في ما ينبغي تجنّبه أكثر من أيّ شيء.

عدت إلى الفندق. لم يكن الحارس موجوداً في الليل، باب المدخل يُفتح بمفتاح باب الغرفة. كانت آرييت تحت الأغطية. لاحظت وجود زجاجة أكوافيت على طاولة السرير من جهتها.

- ظنَنت أنّك غادرت، قالت وهي تفتح عينيها. سأنام الآن فقد أخذت رشفة وتناولت المنوّم.

استدارت على جنبها. وما هي إلّا هنيهات وإذا بها غفت. حاولت

جسّ نبضها بحذر ممسكاً معصمها. ثمانٍ وسبعون نبضة في الدقيقة. جلست على الأريكة، شغّلت التلفاز وشاهدت نشرة أخبار آخر السهرة بعد أن ضبطت الصوت على درجة منخفضة، حتّى أذناي الجاسوسيّتان ما كانتا تستطيعان التقاط ما يقال. صور معتادة؛ أناس تنزف، آخرون جائعون، آخرون يتألّمون. ثمّ موكب كبير من الرجال الذين، ببزّاتهم الأنيقة، يضاعفون من تصريحاتهم، إلى ما لا نهاية، ودون رحمة، جميعهم بذات الابتسامة وذات الغرور. أطفأت التلفاز واستلقيت. قبل أن أغفو تذكّرت الشرطيّة الشابّة ذات الشعر الأشقر.

في اليوم التالي عند الساعة الواحدة ظهراً وصلنا قرب هوديكسفال. كان انهيار الثلج قد توقّف والطريق سالك وما من جليد. أشارت آرييت إلى منعطف باتّجاه مكان اسمه رنجفالن. كان الطريق تالفاً لكثرة استخدامه من قبَل عربات الغابة العملاقة. انعطفنا مرّة أخرى. كنّا هذه المرّة على طريق تتلاحم فيه الغابة. سألت نفسي أيٌّ من الأشخاص هي ابنة آرييت، لتعيش منفيّة إلى هذه الدرجة. الشيء الوحيد الذي سألت آرييت عنه هو ما إذا كانت لويز متزوّجة أو لديها أطفال. أتى جوابها بالنفي. من وقت لآخر، كنّا نرى جذوع الأشجار مكدّسة على جانب الطريق. طريق كان يذكّر بذاك الذي سلكناه لنصل إلى بيت سارا لارسون.

انفرجت الغابة لاحقاً، لمحت بضع أبنية لمزارع متهالكة، وأسيجة محطّمة. وفي وسط فسحة الغابة تقف مقطورة تخييم[1] كبيرة ممدّدةً بخيمة.

– وصلنا، قالت آرييت. ابنتي تسكن هنا.

(1) يُدعى بالعاميّة "كارافان" والكلمة آتية من الفرنسية caravane.

- في مقطورة؟

- وهل ترى بيتاً في مكان ما؟ أقصد بيتاً له سقف؟

ساعدتها على النزول ورحت أُحضر العكّاز الرباعيّ من صندوق السيّارة. كان صوت محرّك يصل من مكان يبدو أنّه كان في السابق وجار كلب. قدّرت أنّه مولّد كهرباء. ويعلو سقف المقطورة صحن استقبال فضائيّ. الإطلالة جميلة. تأمّلناها لدقائق. لا شيء يحدث. كنت أفتقد جزيرتي بشدّة.

فُتِح باب المقطورة فجأةً. وظهرت منه امرأة.

كانت تلبس مئزر حمّام ورديّاً وحذاءً بكعب عالٍ. يصعب تحديد عمرها. تمسك بيدها لعبة ورق.

- أقدّم لك ابنتي، قالت آرييت.

دافعةً عكّازها، تقدّمت نحو المرأة، التي كانت قد نزلت درجات المقطورة القليلة، بتوازن خطر، على كعبَيها.

لم أتحرّك.

- أقدّم لك أباكِ، قالت آرييت لابنتها.

كان هناك ما يوحي بأنّ السماء ستُثلِج. فكّرت بيانْسون. كنت مستعداً أن أعطي كلّ شيء مقابل أن يأتي فقط ويأخذني بحوّامته المائيّة.

الغابة

(1)

ليس عند ابنتي بئر.

وبالطبع، لا يوجد صنبور في مقطورتها، وما من مضخّة في الساحة. ولكي أحضر الماء، وجب عليّ نزول المنحدر واجتياز غَيْضَة إلى مزرعة مهجورة، نوافذها مشرّعة للريح، تحت أبصار الغربان الجاثمة فوق المدخنة. إذ توجد هناك مضخّة ماء صدئة. ضغطت عليها، لم يكن حديدها الصدئ يصرّ بل يصرخ.

لم تتحرّك الغربان.

هذا أوّل طلب لابنتي، أن أذهب وأملأ دلوين بالماء. أحسست بالارتياح لأنّها لم تقل أيّ شيء إضافيّ. كان يمكنها أن تصرخ لأغرب عن وجهها. أو العكس، أن تظهر سعادةً خرقاء بأنّها التقت أباها أخيراً. لكنها اكتفت بأن طلبت منّي إحضار الماء. لم أُجب، حملت الدلوين وخرجت في الثلج. تساءلت ما إذا كانت معتادة على جَلب الماء مرتديةً مئزر الحمّام والكعب العالي. غير أنّ أكثر ما كنت راغباً في معرفته هو ما حصل في السنوات الماضية، ولماذا لم يخبرني أحد بشيء.

كانت المزرعة المهجورة تبعد نحو مائتي متر عن فسحة الغابة، حيث أعلنت لي آرييت أنّ المرأة الواقفة أمام مدخل المقطورة هي ابنتي. أدركت

فوراً أنّ ذلك صحيح. آرييت لا تجيد الكذب. ومنذ تلك اللحظة، وأنا أحاول تخمين لحظة حدوث الحمل بها. إنّ الاحتمال الوحيد المعقول هو أنّ آرييت اكتشفت الأمر فور سفري. إذن فقد حدث الحمل قبل نحو شهر من انفصالنا.

كنت أبذل قصارى جهدي لتجميع ذكرياتي.

كانت الغابة صامتةً. ولديّ شعور بأنّي أتسلّل على الدّروب هارباً كعفريت من حكاية خرافيّة. لم نمارس الحبّ يوماً إلّا على سرير كنبتها. هناك إذن تشكّلت ابنتي. في البداية، لم تكن آرييت تعرف، حين كانت تنتظرني عبثاً، أنّها حبلى. عَرفت ذلك لاحقاً بعد مدّةً وجيزة؛ في تلك اللحظة التي كنت فيها قد اختفيت بالفعل.

ملأت الدلوين، ثمّ تركتهما على الأرض ودخلت المنزل المهجور. لمَّا دفعت الباب بقدمي انخلع أحد مفاصله لشدّة تلفه.

تجوّلت في الغرف، كانت تعبق برائحة العفن وقد أودى التآكل بالخشب. كان ما تبقّى في الداخل أشبه بحطام سفينة من ذاك الذي يُعثر عليه في قاع البحر. تبدو مزق صحف قديمة خلال فجوات أحدثها تسلّخ ورق الجدران. تظهر في إحداها جريدة ليوزنان، بتاريخ 12 مارس 1969: **حدث اصطدام في**... كانت التتمّة ناقصة. ونقرأ أبعد قليلاً: **تظهر في هذه الصورة مدام متسون، وهي تعرض لنا آخر منسوجات غرزة الصليب، مطرّزة بحبّ**... الصورة ممزّقة؛ فيظهر وجه مدام متسون ويدها اليسرى، ولكن لا يظهر أيّ منتَج بغرزة الصليب. في غرفة النوم، عثرت على بقايا سرير مزدوج، مهشّم إلى ألف قطعة كما لو أنّ أحدهم هجمَ عليه بفأس. شخص ما، في ذروة غضبه، دمّره كي لا يعود أحد إلى استخدامه.

حاولت رؤية الأشخاص الذين عاشوا في ذلك المكان ومضوا ذات يوم دون عودة. إلّا أنّ وجوههم ظلّت غير مرئيّة. البيوت المهجورة تشبه الواجهات الفارغة التي تُرَى في المتاحف أحياناً. خرجت وأنا أفكّر أنّ ابنة أتتني، بطريقة غير متوقّعة، في غابات بجنوب هوديكسفال. ابنة ينبغي أن يكون عمرها، إذا كان توقّعي في مكانه، سبعة وثلاثين عاماً، وتعيش في مقطورة. امرأة تسير على الثلج بمئزر حمّام ورديّ وكعبٍ عالٍ.

على كلّ حال، كنت متأكّداً من شيء واحد.

لم تكن آرييت قد أبلغتها بشيء. تعرف بالتأكيد أنّ لها أباً، ولكن لم يكن لديها أيّة فكرة أنّ هذا الأب هو أنا. لم أكن وحدي في هذا الإرباك. صفعتنا آرييت بالذهول معاً.

حملت الدلوين الممتلئين وعدت أدراجي. لماذا تعيش ابنتي في مقطورة وسط الغابة؟ من هي؟ حين صافحتها، لم أجرؤ على مواجهة عينيها. كان لعطرها رائحة قويّة. ويدها رطبة.

وضعت الدلوين للحظة كي أريح عضلات يدي.

- لويز، قلت بصوت مسموع. لديّ ابنة اسمها لويز.

كنت مصعوقاً، كالحائر بين الهلع والمرح. وصلت آرييت على متن حوّامة يانْسون المائيّة لتحمل لي أخباراً عن الحياة وليس فقط عن الموت الذي سوف يصل قريباً ليخطفها.

تسلقت مع دلويَّ الدرجات وطرقت باب المقطورة. فتحت لويز لي. ما زالت تنتعل كعبها العالي لكنّها استبدلت مئزر الحمام بكنزة وبنطال. لها جسد فاتن جدّاً، وذلك أحرجني.

ليست المقطورة واسعة بما فيه الكفاية. كانت آرييت محشورة وراء

طاولة صغيرة، على فراش صغير لصق النافذة. ابتسمت لي، فأجبتها بابتسامة. كان الجوّ حارّاً. ولويز مشغولة بإعداد القهوة.

تملك لويز صوتاً جميلاً، مثل أمّها. إذا كان الجليد يجيد الغناء، فابنتي كذلك.

نظرت في المكان حولي، فرأيت ورداً مجفّفاً معلّقاً في السقف، ورفّاً يغصّ بأكداس من الأوراق والظروف، ومقعداً وضعت عليه آلة كاتبة قديمة. ثمّة مذياع ولكن ما من تلفاز. بدأت أقلق من نمط حياة لويز، الذي كان يشبه نمط حياتي.

هكذا إذن أتيتِ إليّ – قلت في نفسي. ما قد حدث فاق كلّ توقّع.

وضعت لويز تُرْمُساً على الطاولة مع أكواب بلاستيكيّة. جلستُ محشوراً إلى جانب آريبت. وبقيت لويز واقفة ترمقني بنظراتها. ثمّ بادرت:

- لا أبكي وهذا أفضل. وسعيدة، على الأخصّ، لأنّك لم تبدِ أيّة حماسة. كان بوسعك مثلاً إظهار فرح هستيريّ.

- أعتقد أنّي لم أدرك بعد ما حصل لي. وعلى أيّ حال، لا تفقدني الانفعالات رباطة جأشي بالكامل.

- أتعتقد أنّ الأمر ليس صحيحاً؟

خطرت لذهني الأكداس المغبرّة لَمحاضر المحكمة، والقصص الرتيبة للفتيان الذين يقسمون اليمين لينجوا بحريّتهم.

- بل أنا متأكّد من صحّته.

- هل تشعر بالندم لأنّك لم تعرفني في وقت أبكر؟ أو لأنّ دخولي في حياتك أتى متأخّراً إلى هذا الحدّ؟ هل يحزنك هذا؟

- إنّي محصّن ضدّ الحزن. لكنّ ما يجري الآن يفاجئني قبل أيّ شيء،

فمنذ ساعة لم أكن أباً. لم أتخيّل أن يحمل لي أحد نبأً كهذا.

- ما هي مهنتك؟

التفتّ إلى آرييت. إذن لم تكن لويز تعرف أيّ شيء عن أبيها. شعرت بالغضب. ماذا أخبرتها عني؟ كنت رجلاً عابراً؟

- أنا طبيب. أو على الأقلّ كنت كذلك.

تفحّصتني لويز دون أن تجيب، وهي تحمل فنجان القهوة. لاحظت أنّها تحمل خاتماً بكلّ إصبع، حتّى حول الإبهام.

- أيّ نوع من الأطباء؟

- كنت جرّاحاً.

ذكّرتني علامات الاستياء التي ظهرت على وجهها باستياء أبي وردّ فعله حين أبلغته بالمهنة التي اخترتها، في سنّ الخامسة عشرة.

- هل يُسمَح لك بتحرير وصفات طبيّة؟

- لم يعد يحقّ لي الآن. أنا متقاعد.

- يا للأسف.

وضعت لويز فنجانها واعتمرت قلنسوة الصوف على رأسها.

- التبوّل في الفناء الخلفيّ، قالت. يُغطّى بالثلج. أمّا للاحتياجات الأخرى، فثمّة مراحيض وهي بجانب المحطبة.

ذهبت، متوازنة على كعبيها. التفتّ إلى آرييت.

- لماذا لم تقولي لي شيئاً؟ هذا معيب.

- لا تكلّمني عن العيب! لم أكن أتوقّع ردّ فعلك.

- ربّما لو أخبرتني لسَهل الأمر!

- لم أجرؤ. ربّما كنت ستتركني مرميّة على الطريق. كيف بوسعي معرفة

أنّك تريد هذه الفتاة؟

كان معها حقّ. فعلاً كيف بإمكانها توقع ردّ فعلي؟ لديها كلّ أسباب العالم لتحترس.

- لماذا تعيش بهذه الطريقة؟ وكيف تتدبّر معيشتها؟

- هي اختارت أسلوب حياتها. ولا أعرف شيئاً عمّا تفعله.

- بالتأكيد لديك فكرة؟

- تكتب رسائل.

- لا يمكن العيش من ذلك!

- بلى، يمكن على ما يبدو.

تنبّهت فجأةً إلى أنّنا في مقطورة، وقد تكون أذن ابنتي ملتصقة على جدارها المجمّد. ربّما ورثت عني النزوع الذي لا يقاوم لاستراق السمع؟ خفضت صوتي.

- لماذا تلبس هكذا؟ ولماذا تسير على الثلج بذلك الكعب؟

- ابنتي...

- ابنتنا!

- ابنتنا لا تفعل إلّا ما يجول في رأسها. مذ كانت في الخامسة من عمرها، كنت أشعر أنّها تعرف ما تريده من حياتها، وأنّي لن أفلح يوماً في فهمها.

- ماذا تقصدين؟

- أرادت طوال حياتها العيش غير مكترثة بآراء الآخرين. فالحذاء الذي تنتعله مثلاً يساوي ثروة. هو من طراز أجيلو، مستورد من ميلانو. يندر جدّاً أن تجد أشخاصاً يجرؤون على العيش بهذه الطريقة.

انفتح الباب، وعادت لويز.

- أحتاج إلى أن أرتاح، قالت آرييت. إنّه التعب...

- على أيّ حال، أنت دوماً متعبةً، أجابت لويز.

- لم أكن طوال حياتي أعاني من مرض قاتل.

بغتةً بدأتا تصفران مثل قطّتين. لم يكن صفيراً عاطفيّاً جدّاً، ولا عدوانيّاً. بأيّة حال، لم تبدُ عليها المفاجأة. إذن لم يكن موت آرييت الوشيك سرّاً بالنسبة إلى لويز.

نهضت لأفسح لآرييت المجال كي تستلقي على السرير الصغير. انتعلت لويز جزمتها بسرعة.

- تعال، لنخرج. أحتاج إلى أن أتمشّى. أعتقد أنّنا تعرضنا لهزّة نحن الاثنين.

كان يوجد طريق معلَّم بالإشارات، متوغّل في الغابة في الجهة المعاكسة للمزرعة. اجتزنا قبواً قديماً محفوراً بالأرض، وأكملنا عبر أشجار التنّوب الكثيفة. كانت تمشي مسرعة، وكان لديّ صعوبة في مجاراتها. فجأةً استدارت.

- ظننت أنّ أبي اختفى في أمريكا، ويدعى هنري، وأنّه كان مهووساً بالنحل ويجري أبحاثاً حول عالمه. طوال هذه السنين، لم يرسل لي ولو عبوة عسل صغيرة. اعتقدت أنّه مات، لكنّك لم تمت، وتسنّى لي ملاقاتك. حين نعود إلى المقطورة، سألتقط صورةً لك ولآرييت. عندي صور كثيرة لها، ومنها برفقتي. ولكن أريد قبل فوات الأوان التقاط صورة لأبويّ معاً.

ثمّ أكملنا سيرنا.

أدركت أنّ آرييت أخبرتها الحقيقة. كلّ ما تستطيع قوله دون كذب، قد قالته. كنت مختفياً في أمريكا، وحقّاً، كنت مهتمّاً بالنحل في مطلع شبابي. وبلا شكّ، لم أكن ميتاً.

كنّا نسير على الثلج.

سوف تحصل عليها، صورتها، صورة أبويها معاً.

لم يفت الأوان بعد لالتقاط الصورة الناقصة.

(2)

كانت الشّمس تلامس الأفق.

غير بعيد عن المقطورة في حقل مغطّى بالثلج ميّزت حلبة ملاكمة، كما لو أنّها وضعت هناك خطأً. وكان مقعدان خشبيّان مكسوران يبرزان خارج الثلج، ربّما يعودان إلى كنيسة أو صالة سينما.

- تقام المباريات أثناء الربيع والصيف -شرحت لي لويز. يبدأ الموسم عند منتصف مايو. ونزن أنفسنا بميزان الجبّان.

- هل يعني ذلك أنّك تمارسين الملاكمة أيضاً؟

- وما الذي يمنع؟

- مع من؟

- أصدقائي. أناس من هنا اختارت العيش كما تريد. منهم ليف مثلاً، الذي يعيش مع والدته العجوز التي كانت في الماضي أشهر من يقطّر الكحول في المنطقة. أماندیوس أيضاً، عازف الكمان ذو القبضة الحديديّة...

- كيف يمكن أن يستوي الأمران، يلاكم ويعزف على الكمان؟ يستحيل هذا على الأصابع!

- اسألْ أماندیوس. أو الآخرين.

مَن هم الآخرون، لم تخبرني. أكملت سيرها على طريق مطبوع بآثار أقدام، ينتهي، أبعد قليلاً، بمستودع غِلال. ذكّرني قوام لويز وأنا أراها من الخلف بقوام آرييت. ولكن كيف كانت تبدو وهي طفلة؟ أو في المراهقة؟ كنت أتقدّم في الثلج محاولاً العودة صعُداً في الزمن. لقد ولدت لويز سنة 1967. تصادف مراهقتها ذروة نجاحي المهنيّ كجرّاح. شعرت بلدغة، غضب مباغت هجم من أعماقي. لماذا لم تخبرني آرييت بشيء؟

أرتني لويز أثر حيوان مفترس على الثلج. فَتحت باب المخزن، وتَناولت مصباحاً زيتيّاً كان على الأرض وعلّقته في السقف. أحسست بأنّي أدخل صالة ملاكمة أو مصارعة شديدة القِدم. كان ثمّة أثقال في المكان، وكيس رمل يتدلّى عن السقف، وحبال قفز ملفوفة بعناية، وعلى مقعد جانبيّ وُضعت قفّازات ملاكمة حمراء وسوداء.

- لو كنّا في الربيع، لعرضت عليك بضع جولات، قالت لويز. لا أتخيّل طريقة أفضل من هذه للتعرّف على أب.

- لم أرتدِ يوماً قفّازات ملاكمة.

- ولكن تسنّى لك أن تتعارك؟ شجار من حين لآخر؟

- بلى، وأنا في سنّ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. ولكنّ الأمر اقتصر على بضعة عراكات في باحة المدرسة.

وقفت لويز أمام كيس الرمل ودفعته بضربة كتف. كان المصباح المضادّ للريح يضيء وجهها. لمرّة ثانية بدا لي أنّي أرى آرييت.

- إنّي متوتّرة. هل لديك أبناء آخرون؟

أومأت بالنفي. أصرّت:

- ولا ابن؟

- أبداً. وأنت؟

- لا.

بقي كيس الرمل يتأرجح. تَابَعت دون النظر إليّ:

- عندي حيرتك ذاتها. أحياناً، عندما أقول لنفسي أنّ لديّ أباً رغم كلّ شيء، في مكان ما، يجتاحني غضب حقيقيّ. أظنّ أنّني لهذا السبب تعلّمت الملاكمة: لكي أطرحه أرضاً في اليوم الذي سيعود فيه ليظهر من بين الأموات، لألقيه هامداً إلى الأبد على سجّادة الحلبة، عقاباً له على تخلّيه عني.

كان المصباح يلقي ضوءه على الجدران المتصدّعة. رويت لها ظهور آرييت على الجليد، ثمّ البحيرة والانعطافة غير المتوقّعة التي فرضتها في النهاية.

- لم تخبرك شيئاً عني؟

- لم تكلّمني إلّا عن البحيرة، ثم أرادت أن أقابل ابنتها.

- حقّاً، يجب أن أطردها. لقد خدعتنا معاً. لكن لا يجوز طرد شخص مريض.

وضعت لويز يدها على الكيس الذي ثبت.

- هل حقّاً هي تموت الآن؟ أنت طبيب، وتستطيع أن تعرف إذا كانت تقول الحقيقة.

- إنّها مريضة جدّاً. لا أعلم متى ستموت. لا أحد يعلم.

- لا أريد أن تموت عندي، أعلنت لويز وهي تنزل المصباح وتنفخ الشعلة.

تلامست أصابعنا في الظلمة، أمسكت يدي. لها يد صلبة.

- أنا سعيدة بقدومك، قالت. في قرارة نفسي، كنت مقتنعة دوماً بأنّ غيابك لن يكون إلّا مؤقّتاً.

- لم أتخيّل يوماً أنّه سوف يكون لي طفل.

- ليس طفلاً، بل امرأة بالغة. وقريباً لن تكون حتّى شابّة.

لمّا خرجنا من المخزن، رأيتها تبرز كهيئة سوداء وسط ليلٍ صافٍ. كانت السماء المرصّعة بالنجوم قريبة ومتلألئة.

- لا يكتمل الليل أبداً في النورلاند، قالت لويز وهي تلاحق نظراتي. سكنت في هذا المكان لأنّنا لم نعد نرى النجوم في المدن. في المدينة، كنت أشتاق للسّكون، وأكثر منه لضوء النجوم. لا أفهم كيف أنّ أحداً لم يلحظ غنى بلادنا بموارد طبيعيّة مذهلة، غير مستَغلّة. فمن يبيع السّكون كما يباع الخشب أو الحديد؟

كنت مدركاً ما ترمي إليه. فالسّكون، والليل المرصّع بالنجوم، وربّما الوحدة أيضاً ممتلكات لم تعد متاحةً لكثير من الناس. شعرت أنّه رغم كلّ شيء، يمكن للويز أن تشبهني.

- سأؤسّس شركة مع أصدقائي الملاكمين، وسنكون نحن مالكي أسهمها. وسوف نباشر بيع هذه الليالي المتلألئة الصامتة، ويوماً ما سنصبح أثرياء.

- من هم أصدقاؤك؟

- على مسافة بضعة كيلومترات إلى الشمال من هنا، قرية مهجورة رحل آخر سكّانها في الستينيّات، وظلّت بيوتها فارغة. لم يكن أحد يريدها ولا حتّى في الصيف. غير أنّ رجلاً وصل إلى هذا المكان، أثناء رحلة بحثه عن السّكون، يدعى جاكونيلي، وهو صانع أحذية

إيطاليّ. استقرّ في أحد البيوت وفي كلّ عام يصنع حذاءين. وعند بداية مايو من كلّ عام، تحطّ مروحيّة على الحقل الذي وراء بيته. يستلمهما رجل من باريس، ويدفع ثمنهما لجاكونيلي ويترك له طلب العام القادم. يوجد أيضاً، في متجر البلدة الذي أغلق منذ عشر سنوات، عازف موسيقى روك كان يلقّب نفسه في الماضي ببيورن الأحمر. سجّل أسطوانتين من ذوات 45 دورة من الفينيل الأصفر، وتنافس مع روك ريجي وروك أولغا[1] للفوز في بطولة ملك الروك السّويدي أو ملكته. شعره أحمر، وقد سجّل تسجيلاً مذهلاً لأغنية *Peggy Sue*. وعندما نحتفل بعيد القدّيس يوحنّا ونفترش طاولةً بدل حلبة الملاكمة، نطلب جميعنا منه أغنية *The Great Pretender*.

كنت أذكر هذا اللّحن تماماً، مغنّى بالأصل من قبَل فرقة البلاترز. رقصنا أنا وآريت على هذه الموسيقى. شعرت حتّى أنّي أستطيع بقليل من الجهد تذكّر مقاطع الأغنية.

بخلاف الأغنية، كنت أجهل بيورن الأحمر بالكامل وأسطواناته ذات 45 لفّة صفراء.

- كأنّ هذه المنطقة تعجّ بغريبي الأطوار.

- غريبو الأطوار؟ ستجد أمثالهم في كلّ مكان، ولكن لا أحد يراهم لأنّهم شاخوا. يطلب من الشيوخ في أيّامنا هذه أن يكونوا شفّافين مثل الزجاج، وأن يجعلوا أنفسهم غير مرئيّين. أنت أيضاً، ستصبح شفّافاً مع الوقت كما أصبحت أمّي.

لم نضف شيئاً. ميّزت من بعيد ضوء المقطورة.

(1) روك ريجي وروك أولغا: من أشهر مغنّي الرّوك في السّويد في مرحلة الخمسينيات.

- أرغب أحياناً بالاستلقاء على الثلج بكيس النوم، قالت لويز. في الليالي التي يكتمل فيها القمر، يشعرني الضوء الأزرق بأنّي في الصحراء. هناك أيضاً يكون الليل بارداً.

- لم أذهب إلى الصحراء. إلّا إذا أمكننا أن نعدّ شاطئ سكاجين برمله المتطاير كذلك؟

- سأتمدّد يوم ما في هذا المكان وأجازف بألّا أستيقظ. ثمّة أيضاً عازفو جاز، فلا يقتصر الأمر على مغنّي الروك. وعندما أكون ممدّدة سيحوطونني ويعزفون لحناً هادئاً مفعماً بالشكوى.

كنت في إثرها على الثلج. طائر الليل ينادي. النجوم تهوي وكما لو أنّها تتوهج ثانية. كنت أحاول فهم ما قالته لي لويز.

لم تكن سهرةً اعتياديّةً.

في داخل المقطورة، وفيما كانت لويز تعدّ وجبة العشاء، كنّا أنا وآرييت نقلّص نفسينا على السرير إلى الحدّ الأدنى. قلت ينبغي علينا إيجاد مأوى لقضاء الليلة، فأجابت لويز أنّنا نستطيع النوم نحن الثلاثة على سريرها. أردت الاحتجاج، ولكن في النهاية لم أنبس بكلمة. ثمّ أخرجت لويز دنّ نبيذ، بنسبة كحول عالية، وله طعم عنب الشمال. وأخرجت آرييت إحدى زجاجات الأكوافيت المتبقّية لديها. قدّمت لنا لويز حساء يشتمل، على حدّ قولها، على لحم أيّل مع خضار يزرعها صديق لها في بيت زجاجيّ يستخدمه منزلاً أيضاً. يدعى أولوف، وينام وسط الخيار، وهو أحد الذين يجتمعون في الربيع للملاكمة في الحلبة.

بسرعة ثملنا نحن الثلاثة، خصوصاً آرييت، التي كانت تغفو على

الدوام. كانت لويز وهي تعبُّ كأسها تُصدر، بغرابة، طقطقة من أسنانها. من جهتي، كنت أمسك نفسي لِئَلاّ أفرط في الشرب، ولكن بلا طائل.

أخذ الحديث يصبح تدريجيّاً مشوّشاً ومفكّكاً، غير أنّه منحني لمحة عن السّيرة المشتركة للويز وآرييت. لقد كانت تربطهما علاقة وثيقة، غالباً ما تتشاجران ويندر أن تتّفقا على شيء. إلّا أنّهما مولعتان إحداهما بالأخرى. اكتشفت أنّ لديّ عائلة تنطوي على كثير من الغضب، وفي الوقت ذاته على جرعة كبيرة من الحبّ.

تكلمنا مطوّلاً عن الكلاب، لا الكلاب المنزليّة، بل المتوحّشة التي تقطن الأدغال الأفريقيّة، والتي تذكّر ابنتي بأصدقائها في الغابة، تسمّيهم زمرة ملاكمي النورلاند. أخبرتها أنّ لديّ كلبة هجينة أصلُ فصيلتها غير معروف. أومأت بالرضا، حين علمت أنّي أترك للكلبة حريّة الركض على جزيرة جَدّيَّ. القطّة العجوز أيضاً لفتت انتباهها.

نامت آرييت أخيراً متأثرةً بالتعب، والكحول ونبيذ الكشمش. غطّتها لويز بلطف.

- هي تشخر. في طفولتي كنت أقول لنفسي إنّها ليست هي من يفعل ذلك، وإنّما أبي غير المرئيّ والشِّخير، الذي يزورنا كلّ ليلة. هل أنت تشخر؟

- بلى.

- شكراً. نخبك! نخب أبي.

- نخب ابنتي.

بيد مرتجفة، ملأت كأسينا. انسكب النبيذ الأحمر على الطاولة، فمسحته بظاهر يدها.

- حين سمعت السيّارة تتوقّف وفتحت الباب، تساءلت عمّن يكون هذا المرافق الجديد الذي يقلّ لي آرييت.

- لماذا، هي معتادة أن تحضر برفقة رجال؟

- ليس رجالاً بكلّ معنى الكلمة، لكنّها دوماً تجد من يوصلها إلى هنا ويعيدها لاحقاً إلى منزلها. إذ بوسعها الذهاب والجلوس في مقهى وسط حارتها في ستوكهولم، وتُبدي هيئة حزينة ومتعَبة. وعاجلاً أو آجلاً يقترب شخص منها ليسألها إذا كان يستطيع مساعدتها، أو حتّى إيصالها؟ وبعد أن تصبح داخل السيّارة -وفي الآونة الأخيرة صار يتعيّن أيضاً وضع عكّازها الرباعيّ داخل الصندوق- تعلن أنّها تقطن جنوب هوديكسفال، على بعد ثلاثمائة كيلومتر من هناك. والغريب، أنّ أحداً تقريباً لم يعترض حتّى الآن. لكنها تملّ بسرعة من سائقيها، وتغيّرهم معظم الأحيان. أمّي شخص ملول. حين كنت صغيرة، كنت تجد، في بعض الفترات، رجلاً جديداً في سريرها صباح كلّ أحد. وكنت أحبّ القفز فوق هؤلاء الرجال، وإيقاظهم بغتةً كي أرى ملامحهم في اللحظة التي يكتشفون فيها حقيقة وجودي الصعبة. وبعدئذ قد تمضي فترات طويلة لا تلقي فيها نظرة على رجل.

خرجت من المقطورة لأتبوّل. كانت ليلة متلألئة. من وراء الزجاج رأيت لويز تضع وسادة خلف رأس أمّها. رغبت بالبكاء أو الهرب، أن أستقلّ السيّارة وأفرَّ من ذلك المكان. لكنّي واصلت النظر إليها مدركاً أنّها تعلم بمراقبتي لها. فجأةً أدارت رأسها نحو الزجاج وابتسمت.

لم أركب سيّارتي. عدت إلى الداخل.

كنّا نجلس في المقطورة الضيّقة، نشرب ونستأنف هذا الحديث الغريب المتردّد. لا أعتقد أنّ أيّاً منا قال بالفعل ما كان يودّ قوله. أرتني لويز ألبوم صور. كان يحوي كليشهات باهتة بالأسود والأبيض، لكن تغلب عليه تلك الصور الرديئة الملوّنة، التي بدأ النّاس بالتقاطها في الستينيّات، والتي تُظهر المرء بتأثير من ضوء «الفلاش» على هيئة مصّاص دماء. كانت تلك صور المرأة التي هجرتها، والطفلة التي تمنّيتها. طفلة صغيرة، لا امرأة بالغة. طفلة تبدو حذرة، كما لو أنّها لا تريد أن تُرى.

تصفّحت الألبوم. لم تكن لويز تقول أشياء كثيرة، بل تكتفي بالإجابة على أسئلتي. من التقط هذه الصورة؟ أين كانوا حينها؟ في الصيف الذي بلغت فيه أعوامها السبعة، كانتا هي وآرييت برفقة رجل اسمه ريكاردو مونْتر. كانوا يقضون بضعة أسابيع على جزيرة غيترون، قريباً من فاربيرغ. كان ركاردو مونتر أصلع، وبديناً، يضع سيجارته على زاوية فمه. شعرت بلسعة غيرة. لقد أمضى وقتاً مع ابنتي في العمر الذي تمنّيت أن يكون لها الآن. لاحقاً وبعد بضع سنوات مات؛ وكانت قصّته قد انتهت مع آرييت منذ بعض الوقت، كما أخبرتني لويز. لقد وقعت عليه جرّافة فدهسته. ولم يكن قد تبقى منه إلّا سيجارته والانعكاس الأحمر للفلاش داخل بؤبؤي عينيه.

أطبقت الألبوم، لم أعد قادراً على رؤية صور أخرى. كان مستوى النبيذ في الدنّ آخذاً في الانخفاض. آرييت نائمة. سألت لويز لمن تكتب رسائلها. هزّت رأسها.

- ليس الآن. غداً، حين ننتهي من صداع الكحول. يجب النوم الآن. فللمرّة الأولى في حياتي، سأقضي الليلة بين أبويّ.

- ولكنّ هذا السرير لا يتّسع. سأنام على الأرض.
- يتّسع، سترى الآن.

أزاحت آرييت ببطء، وطوت الطاولة بعدما رفعت الفناجين والكؤوس. كان السرير يُفرد؛ ومع ذلك رأيت أنّنا سنكون في ضيقٍ مرعب.

- لن أخلع ثيابي أمام أبي. أخرجْ، وحين أستلقي سأدقّ على الجدار.

أطعتُ.

كانت السماء المرصّعة بالنجوم تنذر بتغيّر الطقس. قمت بخطوة خاطئة فهويت على الثلج. لقد أتتني ابنة، وقد يأتي يوم تستلطف فيه أو حتّى تحبّ الأب الذي لم تقابله طوال عمرها قبلَذاك.

رأيت حياتي.

لقد وصلت إلى هذه المرحلة من الحياة. في المدى المنظور بقي لي مفترق أو اثنان، ليس أكثر، والقليل من الوقت.

دقّت لويز على الجدار. لقد أطفأت كلّ المصابيح وأشعلت شمعة وضعتها على البرّاد الصغير. رأيت وجهين متجاورين. آرييت في العمق، وبجانبها ابنتي. لم يكن متاحاً لي إلا حيّزٌ صغيرٌ على السرير.

- انفخْ على الشمعة، قالت لويز. لا أريد أن أحترق في أوّل ليلة أرقد فيها مع أبويّ.

خلعت ثيابي، محتفظاً بسروالي وقميصي الداخليّ، ونفخت على الشعلة واندسست تحت الغطاء. كان من المتعّذر ألّا ألمس لويز. فاكتشفت بهلعٍ أنّها تنوي النوم عاريةً.

- ألا تستطيعين أن تلبسي ولو قميص نوم؟ لا يمكنني النوم وأنت

عاريةٌ إلى جانبي. ينبغي أن تكوني متفهّمة!

عبرت من فوقي وذهبت لتلبس شيئاً خمّنت أنّه فستان. ثمّ عادت وقالت بعد أن استلقت:

- الآن، سننام. أخيراً سأسمع شخير أبي. سأبقى مستيقظةً حتّى تغطّ في النوم.

كانت آرييت تغمغم في نومها. وحين تستدير، كنّا أنا ولويز نستدير أيضاً. شعرت لويز بالحرّ. تمنيت لو أنّها طفلة صغيرة تستكين بقميص نومها في حضني بكلّ أمان. وليست هذه المرأة البالغة التي انبثقت فجأةً في حياتي.

بقي السرير يدور لفترة طويلة أيضاً. لا أعرف في أيّ لحظة غفوت. ولمّا صحوت، كنت بمفردي.

لا أحد في المقطورة. ولا داعيَ لأنهض وأفتح الباب لأعرف أنّ سيّارتي لم تعد في مكانها.

(3)

آثار الثلج تشير إلى أنّ لويز استدارت عائدةً للخلف ثمّ انطلقت. أدركت فجأة أنّها قد خطّطت لكلّ شيء منذ البداية. أحضرتني آرييت لأقابل ابنتي المجهولة، ثمّ لاذت بالفرار وراء مقود سيّارتي وتركتني وسط الغابة كطرد بريديّ.

كانت الساعة العاشرة إلّا الربع. تغيّر الطقس، وارتفعت الحرارة بضع درجات فوق الصفر. قطرات صغيرة من الماء تغطّي جدران المقطورة المُتَّسِخة. عدت إلى الداخل. كان فمي جافّاً ورأسي كما لو ضغط في ملزمة. لا توجد أيّة رسالة تفسّر غيابها. كان ترمُس القهوة على الطاولة. أخذت فنجاناً مخدوشاً، مزخرفاً بإعلان عن سلسلة محلّات عالم التغذية الصحية.

تبدو الغابة كأنّها تَتَقَرَّبُ بحركة مستمرّة من المقطورة.

القهوة قويّة، كان الصداع شديداً من جرّاء الإفراط في الشرب. خرجت مع فنجاني، وكان الضباب الرطب يغطّي أشجار التنّوب. جَمدت أنفاسي بغتةً لدى سماع طلقة بندقية، ثمّ طلقة ثانية، ثمّ لا شيء. يبدو أنّ الأصوات هنا مجبرة على الاصطفاف في طابور لتنتظر دورها قبل أن تدخل في السّكون، باحتراس، صوتاً تِلو الآخر.

عدت إلى الداخل وبدأت أفتّش المقطورة بدقّة. رغم أنّها ضّيقة، إلّا

أنّ كميّة المساحات التي يمكن وضع الأشياء فيها مدهشة. لويز شخص منظّم. تفضّل ارتداء اللون البنيّ، والأحمر الداكن أحياناً. معظم ألوانها ترابيّة تقريباً.

في صندوق تقليديّ غطاؤه مزخرف بأرقام العام 1882، فوجئت بوجود مبلغ كبير من المال، من فئتي الألف والخمسمائة. كان يوجد منها ما يبلغ سبعة وأربعين ألفاً وخمسمائة كورون. ركّزت اهتمامي بعد ذلك على درجين ممتلئين بالمستندات.

فتحت الدرج الأوّل، طالعتني صورة تحمل إهداءً شخصيّاً من إريك هونيكر[1]. كُتب على ظهرها أنّ الصورة مأخوذة في عام 1986 وأنّها مرسلة من سفارة الجمهورية الألمانيّة الديمقراطية في ستوكهولم. كان هناك صور أخرى من ذات النمط، تحمل إهداءً شخصياً: غورباتشوف، رونالد ريغن، وبضعة أفارقة أجهلهم ولكن أفترض أنّهم رجال دولة. تضاف إليهم صورة رئيس الوزراء الأستراليّ غير أنّي عجزت عن قراءة اسمه.

الدرج الآخر مليء بالرسائل. بدأت أفهم، بعد قراءة خمس منها ما كانت تفعله ابنتي. كانت تكتب لزعماء هذا العالم وتنتقد أسلوبهم في معالجة المشاكل المتعلّقة بمواطنيهم وغيرهم من البشر. كان كلّ ظرف يضمّ نسخة من رسالة لويز محرّرة بخطّ فوضويّ، والجواب الذي حصلتْ عليه. إلى إريك هونيكر كتبت بلغة إنكليزيّة مفعمة بالغضب أنّ الجدار الذي يقسم مدينة برلين إلى قسمين أمر مخزٍ. كان الجواب إذن هذه الصورة، التي

(1) إريش هونيكر Erich Honecker (1212– 1994): آخر رؤساء ألمانيا الشرقيّة، تولّى الحُكم من عام 1971 وحتّى 1989، عُرف عهده بغياب مضطرد للحرّيات، ما زاد نقمة الرافضين لحكمه. جُرّم بتهمة توجيه أوامر للحرس بإطلاق النار على مواطنيه أثناء محاولتهم الهرب إلى ألمانيا الغربية.

نرى فيها هونيكر يقف على المنصّة، ويلوّح بيده لحشد شعبيّ غير واضح المعالم. وكانت قد كتبت لمارغريت ثاتشر أنّها يجب عليها وجوباً مطلقاً التصرّف بأسلوب مختلف مع عمّال المناجم المضربين، والتعامل معهم بما يليق بكرامتهم. لم أجد أيّ جواب من المرأة الحديديّة، أو بالأحرى لم يكن الظرف يحوي إلّا رسالة لويز، وصورة السيّدة المتشبّثة بحقيبة يدها. ولكن من أين كانت تحصل لويز على كلّ هذا المال؟ ليس لديّ بعد ما يدلّ على الإجابة بهذا الخصوص.

تعالى فجأةً صوت محرّك داخل الصمت. لم أتمكّن من المضيّ في بحثي، أغلقت الدرجين وخرجت. كانت لويز تقود بسرعة. والسيارة تتزحلق على الثلج المبلّل.

فرملت ونزلت ودارت خلف السيّارة لإنزال العكّاز الرباعيّ من الصندوق.

- لم نرد إيقاظك، صاحت وهي تراني. إنّي سعيدة، أبي يشخر بالفعل.

ساعدت أمّها على النزول من السيّارة.

- تسوّقنا، أعلنت آرييت فرحة. اشتريت جواربَ لي وتنورة وقبّعة.

أخذت لويز بضعة أكياس كانت على المقعد الخلفيّ.

- لم تعرف أمّي يوماً كيف تتأنّق.

حملتُ الأكياس إلى المقطورة فيما كانت لويز تساعد آرييت على صعود الدرب الزَّلِق.

- نحن أكلنا، قالت لويز. هل أنت جائع؟

كنت أتضوّر من الجوع، ولكن أومأت بالنفي. لم يرقني أن تستعير سيّارتي دون إذني.

تمدّدت آرييت لترتاح. كانت الرحلة مفيدةً لها، لكنّها أتعبتها، هذا ما فهمته، فنامت. أرتني لويز القبّعة الحمراء التي اشترتها آرييت.

- تناسبها، قالت. كأنّها صُنعت لأجلها.

- لم أرها يوماً بقبّعة. كنّا في شبابنا نبقي رؤوسنا حاسرة. حتّى حين يكون الجوّ بارداً.

أعادت لويز القبّعة وتلفّتت حولها. هل تركت أثراً يا ترى؟ هل ستكتشف أنّي فتّشت أغراضها؟ نَظرت نحوي، ثمّ التفتت إلى حذائي الذي وضع على ورقة جريدة بجانب الباب، والذي أنتعله منذ سنوات. كان متهرّئاً، وثقوبه ممزّقة. نهضت لويز. ووضعت غطاءً على آرييت وارتدت سترتها.

- تعالَ، سنخرج.

وافقت، فألم الصداع لم يكن يفارقني.

وقفنا أمام المقطورة، نستنشق بملء الرئتين الهواء اللاذع. فكّرت أنّي منذ عدّة أيّام لم أدوّن شيئاً في يوميّاتي. لا أحبّ إهمال عاداتي.

- صيانة سيّارتك غير جيّدة، قالت لويز. تهتزّ عند الفرملة.

- تناسبني. أين سنذهب؟

- لزيارة صديق، أريد أن أقدّم لك هديّة.

أدرت السيّارة عائداً للخلف في الثلج الموحل. حين انتهجنا الطريق وجّهتني لويز شمالاً. صادفنا شاحنات محمّلة بجذوع الأشجار، كان مرورها يثير دوّامات من الثلج. بعد بضعة كيلومترات، أشارت لي أن أنعطف إلى اليمين. كانت يافطة تشير إلى أنّنا نتّجه صوب قرية تدعى موتيارفيسبين. بدت أشجار التنّوب مندفعةً إلى الطريق الذي لم يُجرَف

الثلج عنه جيّداً. كانت لويز تنظر أمامها مباشرة عبر زجاج السيّارة، وهي تدندن بلحن عرفته دون أن أتمكّن من تذكّر اسمه.

عاد الطريق للتشعّب مجدّداً، وأشارت لي لويز لأنعطف يساراً. بعد كيلومتر واحد، انفرجت الغابة. وظهر الدرب محاطاً بمزارع عديدة، جميعها خاوية، ميتة، لا دخان يهرب من مداخنها، باستثناء الأخيرة، وهي عبارة عن بيت مصنوع من جذوع الأشجار بطابقين، يتقدّمه درجُ مدخلٍ مسقوف كان طلاؤه الأخضر آخذاً بالتقشّر. هذه كانت تُبدي بضع علاماتٍ على وجود حياةٍ فيها، إذ كان يجلس على الدرجات قطٌّ، وكان عمود دخان رفيع يتصاعد باتّجاه السماء. هناك انتهى الدرب.

- شارع سالاندرا في روما، قالت لويز. هذا الشارع سوف أزوره ولو مرّة في حياتي. هل سافرتَ إلى روما؟

- أكثر من مرّة. ولكن لا أعرف الشارع الذي تتكلّمين عنه.

خرجت لويز من السيّارة. فعلت مثلها. كان يتناهى من البيت الذي عمره بلا ريب أكثر من قرن، لحن أوبرا.

- من يسكن هنا رجل عبقريّ، قالت لويز. جاكونيلي ماتيوتي، إنّه الآن شيخ. في زمن مضى كان يعمل عند آل غاتو، عائلة مصنّعي الأحذية الشهيرة. في مطلع شبابه، تدرّب على يد أنجلو غاتو ذاته، الذي فتح ورشته في مطلع القرن العشرين. جاكونيلي نقل مهاراته إلى هذه الغابات. كان قد سئم من السيّارات والزبائن من ذوي الشأن، الذين لا يحترمون الصبر والوقت اللازمين لصناعة الأحذية المتقنة.

رمقتني لويز بنظرة وابتسمت.

- أودّ أن أقدّم لك هديّة. أريد من جاكونيلي أن يصنّع حذاء خصّيصاً

لك. هذا الذي تنتعله إهانة لقدميك. أخبرني جاكونيلي عن تلك العظام الرائعة والعضلات المتناهية الصغر التي تسمح لنا بأن نمشي، ونركض، ونرتفع على رؤوس أصابعنا، ونرقص، أو بمجرّد تناول شيء عن الرفّ. أعرف مغنّيات أوبرا لا يأبهن لمُخرجي أعمالهنّ، ولا للمايسترو، ولا للأزياء أو الألحان التي يؤدّينها، لمجرّد أنهنّ ينتعلن أحذية جيّدة وهنّ يغنين.

كنت أنظر إليها بدهشة. شعرت أنيّ أصغي لأبي، الذي مات ودُفن منذ سنوات. هو أيضاً كان يكلّمني عن مغنّيات الأوبرا وأقدامهنّ.

كان مفاجئاً لي أن أكتشف أنّه كان يمكن أن يكون لدى أبي وابنتي ما يتبادلانه.

لكن الحذاء الذي تعرضه عليّ؟ أردت أن أحتجّ. رفعت يدها وصعدت الدرجات، دفعت القطّ وفتحت الباب. تدحرجت الموسيقى باتّجاهنا، آتيةً من أقصى البيت. اجتزنا الغرف حيث كان يعيش ماتيوتي ذاك ويضع جلوده ونماذجه كما شرحت لي لويز. على الجدار رأيت مقولة مكتوبة بخطّ اليد -افترضته خطّ يده. اقتباس لأحدهم ويدعى تشوانغ تزو يقول: «**عندما يكون الحذاءُ مناسباً، لا تفكّر في القَدَم**».

ثمّة غرفة ليس فيها غير قوالب مصنوعة من الخشب، مرتّبة على رفوف تمتدّ على طول الجدران وعرضها. وكلّ قالَب يحمل بطاقةً كتبَ عليها الاسم، ومربوطة بحبل صغير. أرتني لويز عدداً منها؛ لم أصدّق عينيّ. كان هذا الرجل قد صمّم أحذية لرؤساء أمريكيّين؛ وإن كانوا قد رحلوا عن عالمنا، فإنّ هيئات أقدامهم لا تزال باقية. يوجد أيضاً أسماء لقادة أوركسترا، وممثّلي مسرح، وأشخاص أُعدموا لاحقاً وآخرون نالوا

تطويبهم. بدا التسكّع وسط هذه الأرجل المشهورة كلّها تجربة مدوّخة. كما لو أنّ هذه القوالب وصلت إلى هذا المكان بمفردها، متحدّية البرد والثلج، كي تسمح لهذا المعلّم الذي لم أقابله بعد بأن يبتكر أحذيته البديعة.

- يلزم مائتا مرحلة، قالت لويز. لإنجاز حذاء واحد فقط.

- لابدّ أنّ كلفته ستكون باهظةً، قلت. حين يرتفع الحذاء إلى مرتبة جوهرة...

ابتسمت.

- جاكونيلي مدين لي بخدمة. وسيصنع لي جميلاً بكلّ سرور.

يصنع جميلاً.

متى سمعت آخر مرّة شخصاً يستخدم هذه العبارة التي عفَا عليها الزّمن؟ يستحيل أن أتذكّر. ربّما تحيا اللّغة في عمق الغابة بشكل يختلف عن المدن الكبيرة، حيث تُطرد الكلمات هناك مثل المنبوذين؟

تابعنا، في أرجاء المكان قوالب لتصنيع الأحذية، وأدوات، ثمّ غرفة تنبعث منها رائحة جلد قويّة؛ كانت الجلود المدبوغة تتكدّس على بضع طاولات بدائيّة من الخشب.

خيّم الصمت عند نهاية الخاتمة الموسيقيّة. كانت الأرضيّة القديمة تصرّ تحت أقدامنا.

- آمل أن تكون قدماك نظيفتين. قالت لويز وهي تقف أمام الباب الأخير الذي كان مغلقاً.

- وماذا سيحدث إذا كان العكس؟

- لن يقول جاكونيلي شيئاً. لكنّ ذلك سيحزنه.

طرقت الباب وفتحت دون انتظار الجواب.

كان جالساً إلى طاولة تصطفّ عليها أدواته في ترتيب مثاليّ. رأيت العجوز مائلاً على قالَب مغطّى بعضه بالجلد. يحمل نظّارتين، أصلع، باستثناء خصلة شعر في قاعدة رأسه. شديد النحول، ومن الأشخاص الذين يصعب تقدير وزنهم. ما خلا هذه الطاولة لم يكن في غرفته أيّة قطعة أثاث. كانت الجدران عاريةً، ولا حتّى رفّ، فقط جذوع خشبيّة مكدّسة بعضها فوق بعض. كانت الموسيقى تأتي من المذياع الموضوع على قاعدة إحدى النوافذ. مالت لويز على العجوز وقبّلته على قمّة صلعته. بدا مبتهجاً برؤيتها، وبعناية، رفعَ الحذاء البنيّ الذي كان منهمكاً بصنعه.

- هذا هو أبي، أعلنت له لويز. عاد بعد هذه السنين كلّها.

- الرجل الطيّب يعود دائماً في النهاية، أجاب جاكونيلي.

كان يتكلّم بلكنة ملحوظة. وقف وشدّ على يدي بقوّة.

- لديك ابنة جميلة، قال لي. وعلاوة على ذلك ملاكمة رائعة. مرحة جدّاً ولا تبخل عليّ بالمساعدة حين أحتاجها. أين كنت مختفياً طوال هذه المدّة؟

لم يكن قد أفلت يدي. كانت قبضته تزداد شدّة.

- لم أكن متخفّياً. كنت أجهل أنّ لديّ ابنة.

- الرجل دائماً يعرف في قرارة نفسه إذا كان لديه ابن أم لا. ولكنّك عدت، ولويز سعيدة، هذا كلّ ما أريد معرفته. لقد انتظرتْ طويلاً اليوم الذي ستأتي فيه لتلاقيها في الغابة. ربّما كنتَ في غضون هذه السنين على الطريق دون أن تعرف ذلك؟ فكما يتيه المرء في دروب الغابة أو في شوارع المدن، يمكن أن يتيه في داخله.

ذهبنا إلى المطبخ، الذي تتناقض فوضاه مع ترتيب المشغل، كان مطبخ جاكونيلي مزدحماً بأواني الطبخ، وبأعشاب مجفّفة، وبجدائل الثوم المعلّقة في السقف، ومصابيح نفطيّة وقوارير توابل تصطفّ على رفوف منحوتة بطريقة جميلة. تحتلّ وسط الغرفة طاولة ضخمة. حين رأى بصري يحطّ عليها داعب جاكونيلي سطحها الأملس.

- هذا خشب زان. الخشب الرائع الذي أصنّع منه قوالبي. فيما مضى كنت أجلبه من فرنسا، ولا يمكن تحقيق قوالب في خشب غير الزان الذي ينمو في طبيعة كثيرة الوديان، لاحتماله الرطوبة وعدم تأثّره بالتغيّرات المناخيّة الفظّة أو المفرطة. كنت في الماضي أختار بنفسي الشجرة التي يجب أن تقطع. كنت أذهب وأعيّن موقع أشجاري، قبل سنتين أو ثلاث من ملء مخزني. كنّا نقصّها في الشّتاء ألواحاً بطول مترين، ليس أكثر، ثمّ نتركها في العراءِ لوقت طويل. حين انتقلت إلى السّويد، تعاملت مع مستورِد في سكانيا. ولكنّي الآن أهرم من أن أقدر على السفر كلّ عام. عدم استطاعتي انتقاء أشجاري بنفسي سبّب لي حزناً شديداً. ولكن من جهة أخرى، باتت القوالب التي أصنّعها تقلّ شيئاً فشيئاً. أمشي في هذا البيت وأنا أفكّر أنّه عمَّا قريب لن أصنع أحذية. الرجل الذي يختار لي أشجاري في سكانيا، هو من أهداني هذه الطاولة بمناسبة عيد ميلادي التسعين.

دعانا المعلّم العجوز للجلوس وأخرج زجاجة نبيذ أحمر مغلّفةً بليف نخل رافيا. سكب لنا. لم تكن يده ترتجف.

رفع كأسه.

- نخب الأب العائد.

كان النبيذ رائعاً. فهمت أنّي كنت طوال سنواتي على الجزيرة، ودون أن

أعي ذلك، أفتقد بحرقةٍ شيئاً، ألا وهو تقاسم كأس نبيذ بصحبة أصدقاء.

بدأ جاكونيلي يحكي قصصاً مدهشة عن الأحذية التي صمّمها على مرّ السنوات، وعن الزبائن الذين يعودون دائماً، وعن أبنائهم الذين يقرعون باب مشغله بعد موت آبائهم. ولكنّ أكثر كلامه كان عن الأقدام، كلّ تلك الأقدام التي راقبها وأخذ مقاساتها لكي يصمّم لها القوالب التي تناسبها، هذه الأقدام التي يتوقّف كلّ شيء عليها، هذا الجزء من جسدي الذي سمح لي بأن أقطع مائة وخمسين ألف كيلومتر منذ ولادتي. وعن أهمّيّة رأس عظم الكاحل -**caput tali**- لحيويّة القدم. حتّى إنّ أصغر وأضأل عظمة، العظمة النرديّة[1]، بالطريقة التي يتكلّم عنها، لديها من الموهبة ما يجتذب اهتمامي الشديد. من الواضح أنّ جاكونيلي يعرف كلّ شيء عن عظام القدم وعضلاتها. ما أعاد لذاكرتي وأنا أسمعه دراستي الطبيّة، حين توسّع مثلاً بالشرح عن البراعة غير الواقعيّة للبنية التشريحيّة للقدم، فمن الأهمّ أن تكون العضلات قصيرة لتأمين القوّة، والقدرة على المشقّة والمرونة.

التفتت لويز إلى جاكونيلي؛ وقالت إنّها تريد منه أن يصمّم لي حذاءً. هزّ جاكونيلي رأسه ساهماً، ثم حدّق مطوّلاً في وجهي قبل أن يهتمّ بقدمي ثمّ، وهو يدفع صحن الفخّار المليء بالبندق واللوز، طلب منّي أن أصعد إلى الطاولة.

- ينبغي أن تكون القدمان حافيتين، أوضح لي. أعرف أنّ بعض مصمّمي الأحذية الحديثين يتساهلون بقياس القدم مع الجورب. أنا، من المدرسة التقليديّة، لا أقبل رؤية القدم إلّا عاريةً.

(1) العظم النَّرْدِيّ: بالفرنسية (Cuboïde) وبالإنجليزية (Cuboid bone) هو أحد عظام رسغ القدم يشبه النرد ومن هنا جاءت تسميته.

لم يخطر في بالي يوماً أنّ أحداً سيتعهّد بقياس قدمي ليصنّع لي حذاءً فريداً. الحذاء بالنسبة لي يُقاس في المتجر، وبعد تردّد قصير خلعت حذائي القبيح وجوربيّ وصعدت إلى الطاولة. لمحت امتعاضاً في نظرة جاكونيلي وهو يرى حذائي البائس. من الواضح أنّها لم تكن التجربة الأولى للويز، التي ذهبت في الوقت الذي كنت أنزع فيه الحذاء وعادت وهي تحمل ورقتين ومسْندَ ورقٍ وقلماً.

بدا الأمر أشبه بمراسم احتفال. نظر جاكونيلي إلى قدميّ، وداعبهما بأنامل أصابعه ثم سألني إن كنت على ما يرام.

- أعتقد ذلك، أجبت.
- هل صحّتك جيّدة؟
- أعاني من الصداع.
- هل قدماك في حالة جيّدة.
- على أيّ حال، لا تؤلمانني.
- ألا تتورّمان؟
- لا.
- أهمّ شيء لصناعة حذاء هو قياس القدم وهي مرتاحة، ولا يصحّ أبداً القيام بذلك في الليل، أو على ضوء اصطناعيّ. لا أريد رؤية قدميك إلّا وهما على أحسن ما يرام.

تساءلت في داخلي إن كان يسخر منّي. لكن لويز كانت جادّة، ومستعدّة لتدوين كلّ ما يقوله جاكونيلي.

استغرق الأمر منه أكثر من ساعتين بقليل لتقييم قدميّ وإملاء جدول

القياسات التي ستتيح له تصميم قالبَي حذائي، اللّذين عليهما سيصنّع الحذاء الذي نوت ابنتي أن تهديني إيّاه. علمت خلال تينك الساعتين أنّ عالم الأقدام أكثر ثراءً وتعقيداً ممّا يمكن تخيّله للوهلة الأولى. استغرق جاكونيلي وقتاً طويلاً في رسم المحور الطوليّ محدّداً الخطوط الخارجيّة والداخليّة، في كلا القدمين، مهما بدت الفروق طفيفة. تحقّق من شكل الأخمص ومشط القدم، باحثاً عن التشوّهات الفارقة؛ قدم مسطّحة، خنصر بارز أو اعوجاج في إبهام القدم نسمّيه «مطرقة». فهمت أنّ ثمّة قاعدة ذهبيّة، وكان جاكونيلي يراعيها بدقّة: نحصل على أدقّ القياسات باستخدام أبسط الأدوات. فكان يكتفي بكعبين وبالمقياس المتريّ للإسكافيّ، ذي اللّون الأصفر، والذي له سُلّمَان. يستخدم واحداً لقياس طول القدم بالنقاط الفرنسية، وتعادل نقطة باريس 6,66 ملم، والآخر لقياس العرض والمحيط الدائريّ تبعاً للنظام المتريّ. باستثناء هذه الأدوات، كان يستخدم مثلّثاً قائم الزاوية قديماً جدّاً. وقفت على ورقة نيلي رسَمَ عليها محيط قدميّ بقلم رصاص. كان يتكلّم دون توقّف، كما كان الزملاء الأكبر سنّاً في الماضي، يوم كنت بعد جرّاحاً شاباً، يصدرون تقريرهم بصوت عالٍ إزاء أدنى حركة، مقيّمين الجرح وفي الوقت عينه تدفّق الدم والوضع العامّ للمريض. كان جاكونيلي وهو يرسم يشرح لي أنّه يجب أن تكون زاوية القلم لحظة القياس تسعين درجة بالضبط. إذا قلّت الزاوية عن ذلك، فسيكون قياس الحذاء أصغر درجة على الأقلّ.

رسَمَ بالقلم محيط القدم، مبتدئاً من الكعب -البداية دوماً من الكعب- مروراً بالجانب الداخليّ، وصولاً إلى رؤوس الأصابع، ثمّ الجهة الخارجيّة رجوعاً إلى الكعب. طلب منّي أن أضغط بأصابع قدمي بقوّة على الأرض.

هذه هي الكلمة الذي استخدمها، مع أنّي مفصولٌ عن الأرض بسماكة طاولة وورقة. ولكن بالنسبة له كانت الأرض هي القاعدة دوماً.

- ينبغي على الحذاء الجيّد أن يساعد الشخص على نسيان قدميه، قال. ثمّة صلة وثيقة بين القدم والأرض.

وبما أنَّ القدمين اليسرى واليمنى لا تتطابقان أبداً، وجب إعادة الأمر بأكمله على القدم الأخرى. حين انتهى ذلك، حدّد جاكونيلي موضع السُلاميّتين الأولى والخامسة، وكذلك نقاط البروز في الكعب والأخمص. كان يرسم ببطء، كما لو أنّه لا يتابع بأقصى عناية هيئة قدمي فقط، بل أيضاً ما يجري في داخلها، ما لا أعلم عنه شيئاً، ولا أستطيع إلّا تخمينه. فيما مضى كنت أرى هذه العناية عند الجرّاحين الذين كنت أقدّرهم، أولئك الممارسين الذين كانوا يبتكرون شيئاً ما على مدى مداخلاتهم ويبقونه بحوزتهم بطريقة سرّية.

حين نزلت أخيراً عن الطاولة، وجب إعادة كلّ شيء؛ لكن هذه المرّة، وأنا جالس على كرسيّ قديم من الخيزران. أتوقّع أنّه أحضره معه من روما، بعد أن أتّخذ قرار مزاولة فنّه في أعماق غابات النورلاند. دائماً كان يبدي ذات الدقّة، ولكن بدل الكلام، كان يدندن بلحن الأوبرا التي كان يسمعها عند وصولنا أنا ولويز.

بعد كلّ هذه القياسات التي أُخذت، وبعد ارتداء جوربي وانتعال حذائي البائس ثانية، شربنا كأس نبيذ آخر. ظهر التعب على جاكونيلي، كأنّ الجلسة قد أنهكته.

- أقترحُ حذاءً أسود بلمسة بنفسجيّة، قال. مع درز ظاهر وثقوب مدعّمة. ولنمنحه خصوصيّة ومظهراً رسميّاً في الآن ذاته،

سأستخدم نوعين مختلفين من الجلد. لديّ للجزء العلويّ قطعة جلد دُبغت منذ مائتي عام، ما سيعطيه رونقاً خاصّاً من ناحية اللّون والتأثير.

ملأ كؤوسنا بآخر ما تبقّى في الزجاجة.

- سيكون حذاؤك جاهزاً بعد سنة، قال. في الوقت الحالي أنهي حذاءً لكاردينال-أسقف في الفاتيكان، وحذاءً آخر في الانتظار للمايسترو كسكينن وثالثاً وعدت به المغنّية الكبيرة كلينكوفا، من أجل حفلاتها. سأبدأ بعد ثمانية أشهر، وسيكون حذاؤك جاهزاً بعد عام.

أفرغنا كؤوسنا. صافحنا وعاد إلى عمله. ونحن نغادر، سمعنا الموسيقى تصدح ثانية من غرفة مشغله.

لقد التقيت للتوّ بمعلم في قرية مهجورة داخل غابات الشمال الشاسعة. بمنأى عن المدن، كان ثمّة أشخاص يعيشون متوارين، يحوزون على معارف رائعة، وغير متوقّعة.

- رجل قدير، عقّبت وأنا داخل السيارة.

- فنّان. لا يمكن مقارنة حذاء من صنعه بأيّ حذاء آخر، ولا يمكن تقليده.

- لماذا أتى إلى هنا؟

- أصابته المدينة بالجنون، الازدحام وعدم الاصطبار لم يسمحا له أن يعمل بهدوء. كان يقطن في شارع سالاندرا، سأذهب إلى هناك يوماً، لأرى ما الذي خلّفه وراءه.

كنّا نمضي في ظلمة آخذة بالاتّساع. وعند مقربة من موقف للحافلات،

طلبت منّي الركون إلى جانب الطريق.

تحفّ بنا الغابة من جهة اليمين. التفتُّ إليها.

- لماذا هذه الوقفة؟

مدّت لي يدها، فأخذتها، وهكذا بقينا صامتين. عبرت شاحنة محمّلة بالأخشاب، باعثةً صوتاً مدوّياً، ورافعةً دوّامات ثلج أبيض.

- أعرف أنّك فتّشت مقطورتي، لا بأس، لن تجد أسراري في الأدراج.

- رأيت أنّك تكتبين رسائل وأحياناً تصلك أجوبة. ولكن غير التي تنتظرينها، أليس كذلك؟

- أتّهمهم بارتكاب جرائم. وعوضاً عن ذلك أستلم صوراً موقّعة، مراوغات، أو لا شيء.

- وعلى ماذا كنت تتوقّعين أن تحصلي؟

- على فارقٍ ما. ربّما لا يُرى لفرط صغره، لكنّه «فارق» مع ذلك.

كان لديّ أسئلة عديدة. لكنّها سبقتني.

- ما الذي تريد معرفته عنّي؟

- أنت تعيشين حياة غريبةً، قد لا تكون أكثر غرابةً من حياتي. يصعب عليّ الاستفسار عن كلّ ما أودّ معرفته. ولكنّي أجيد الإصغاء أحياناً؛ هكذا ينبغي أن يكون الطبيب.

بقيت صامتة.

- ابنتك دخلت السجن، قالت لاحقاً. حدث ذلك منذ أحد عشر عاماً. لم أقترف أيّ عنف. مجرّد القيام ببعض الاحتيالات.

شقّت الباب قليلاً، رغم البرد.

- أنا أقول الأشياء كما هي. أنت وأمّي أمضيتما الوقت، على ما يبدو،

تكذبان أحدكما على الآخر. لا أريد أن أكون مثلكما.

- كنّا شابّين. لا أنا ولا هي كنّا نفهم نفسينا بالكفاية لنتصرّف كما ينبغي. التعامل مع الحقيقة صعب أحياناً، الكذب أكثر سهولةً.

- أريد أن تعرف كيف عشتُ. عندما كنت صغيرة، كان لديّ إحساس بأنّي طفل البورتبيتنغ[1] أو العكس، أنا من نزلت عند أمّ عملاقة بانتظار أن يعزم أهلي الحقيقيّون على المجيء لأخذي. كنّا أنا وآرييت في معركة متواصلة. لم تكن الحياة سهلة معها، أؤكّد لك. لقد نفذتَ بجلدك.

- ما الذي حصل معك؟

رفعت كتفيها.

- القصّة المعتادة ذاتها، وبالترتيب عينه: شمٌّ غراء، مذيبات، مخدّرات أخرى، يتبعها فشل في الدراسة. لكنّي لم أصل إلى حدّ الغرق، أنقذت نفسي من هذه الورطة. أتذكّر تلك الفترة كما لو أنّها تنتمي إلى عالم الغُمَّيْضَة: حياة مع عِصَابة دائمة على العيون. وبدل أن تساعدني أمي كانت توبّخني. كانت تريد أن تخلق الحبّ بيننا بالصراخ. أوّل ما تسنت لي الفرصة هربت من البيت. تراكمت عليّ الديون، ثمّ قمت لاحقاً ببعض الاحتيالات التي أخبرتك عنها، وفي النهاية أُغلق عليّ باب السجن. أتعرف كم مرّة زارتني آرييت في السجن؟

- لا.

- مرّة واحدة قبل الإفراج عنّي بقليل، لتطمئنّ إلى أنّي لا أنوي الإقامة

(1) هو، في الموروث الشعبيّ، طفل عملاق يضعه أبواه في سرير طفل بشريّ، بعدما سرقا الطفل البشريّ لاستخدامهما الخاصّ (حاشية في الترجمة الفرنسية). باللّغة السّويدية: Bortbyting: وهو معروف أيضاً بالإنكليزية Changeling وهي ترجمة لكلمة «إبدال».

عندها. بعدئذ، بقينا لخمس سنوات في قطيعة. مضى وقت طويل قبل أن تعود علاقتنا.

- ولاحقاً؟

- التقيت بجان، الذي كان قادماً من غابات الشمال. وذات صباح، وجدته بارداً إلى جانبي في السرير. دُفن في كنيسة غير بعيدة من هنا. أتى أفراد من عائلته لم أكن أعرفهم. فجأةً، وقفت وأعلنت أنّي أريد الغناء. لا أدري كيف واتتني الشجاعة. ربّما الغضب لأنّي وجدتُني وحيدة من جديد، ووسط كلّ أولئك الأقارب الذين لم يظهروا يومَ كنّا نحتاج إليهم. كلّ ما تذكّرته هو أوّل مقطع من أغنية «إبحار»[1]. أعدت غناءها ثانية. فكّرت بعدها أنّ ذلك ربّما كان أفضل ما فعلته في حياتي. حين غادرت الكنيسة ونظرت إلى طبيعة هلسنغلاند، انتابني إحساس غريب بالانتماء إلى هذا السّكون وإلى هذه الغابات. بهذه الطريقة وصلت إلى هنا، لم أخطّط لشيء، ما حدث كان عبارة عن سلسلة مصادفات. في الوقت الذي غادر فيه الآخرون جميعاً هذا المكان، ورحلوا، أدرتُ ظهري للمدن وأتيت إلى هنا. التقيت بأناس لم أتوقّع أن يُوجدوا في أيّ مكان. لم يسبق أن أخبرني عنهم أحد.

صَمتت. ثمّ قالت إنّ برودة الجوّ تمنعها من المتابعة. انتابني شعور بأنّ ما قالته لي للتوّ كان يمكن أن يكون مكتوباً على ظهر كتاب. نبذة عن حياة معيشة إلى هذا الحدّ. لم أكن أعلم شيئاً بعد عن ابنتي. لكنّها بدأت الكلام.

(1) «Sailing»: «إبحار» أغنية لفرقة الأخوة ساذرلاند (Sutherland Brothers) صدرت عام 1972 ضمن ألبوم يحمل عنوان «قارب نجاة» Lifeboat.

أدرت محرّك السيّارة. ثقبت الأضواء الظلمة.

- أريد أن تعرف بالتدريج، قالت. شيئاً إثر شيء.

- دعِ الأمر يستغرق ما يلزمه من الوقت. من المستحسن، على أيّ حالٍ، الاقتراب ببطء من الآخرين. إذا اندفع المرء بسرعة كبيرة، فإنّه يجازف بالاصطدام أو الغرق.

- كالإبحار؟

- أجَل. العقبة التي لا تُرى والتي ليس لها وجود على الخريطة، هي التي يكتشفها المرء متأخّراً جدّاً.

كنّا قد عدنا إلى الطريق الرئيسة. لماذا لم أخبرها شيئاً عن الكارثة التي حدثت لي؟ ربّما فقط بسبب التعب والإرباك الذي أُصاب به بعد اضطرابات الأيّام الأخيرة. كنت سأخبرها بكلّ شيء؛ لكن ليس الآن. كما لو أنّي بقيت منطوياً في ذاتي، مجمّداً في اللّحظة التي أحسست فيها، وأنا خارج من حفرة الماء، بوجود شخص قبل أن أستدير وأكتشف آرييت على الجليد مع عكّازها الرباعيّ.

ورغم أنّي كنت موجوداً في أعمق غابات النورلاند الحزينة، كنت لا أزال بكاملي قرب حفرتي.

إذا كان البحر لا يزال متجمّداً عند عودتي إلى بيتي، فسيلزمني وقت طويل لأفتحها من جديد.

(4)

كانت الظلال وأضواء المصابيح تتراقص على الثلج.

نزلنا من السيّارة. الليل صافٍ وبارد، وقد انخفضت بحدّة درجات الحرارة. كان ضوء هزيل يتسلّل من زجاج المقطورة.

ما إن دخلنا حتّى أدركت، من تنفّس آرييت، أنّها ليست على ما يرام. لم أتمكّن من إيقاظها. قستُ نبضها؛ كان سريعاً وغير منتظم. مقياس الضغط في السيّارة، طلبت من لويز إحضاره. كان الضغطان - الأقصى والأدنى - مرتفعين جدّاً.

حملناها إلى السيّارة. أرادت لويز أن تعرف ما يحصل، أخبرتها بأنّه ينبغي الذهاب بها إلى مستشفى الطوارئ لفحصها. ربّما تعاني من نوبة قلبيّة، أو أنّ وضعها مرتبط بتدهور حالتها العامّة؛ لست أدري.

قدنا السيّارة ليلاً إلى هوديكسفال. بدا المستشفى كأنّه ينتظرنا مثل سفينة مضاءة. استقبلتنا ممرّضتان غاية في اللطف. كانت آرييت قد استعادت وعيها. وبعد قليل، بدأ طبيب بفحصها. ورغم نظرات لويز الملحّة، لم أخبر الزميل بأنّي طبيب أيضاً، أو بالأحرى، كنت كذلك. أعلنت فقط أنّها مصابة بالسرطان، وأنّ أيّامها معدودة، وأنّها تتناول المسكّنات فقط. وبناءً على طلبه، دوّنت أسماء الأدوية على ورقة.

انتظرنا إلى أن فرغ الطّبيب، الذي كان في عمري، من فحصه. أراد إبقاءها للمراقبة إلى اليوم التالي، ولكن حسب ما رآه، لا توجد دلالة على حدوث شيء خاصّ، الأرجح أنّ وضعها العامّ آخذٌ بالتدهور.

كانت آرييت قد عادت إلى النّوم حين تركناها وخرجنا في الليل، في الثانية فجراً. كانت النجوم لا تزال ترسل بريقها. توقّفت لويز فجأةً.

- ستموت الليلة؟

- لا أعتقد، هي صلبة. فإذا كان لديها من القوّة ما جعلها تقطع الجليد وتصل إلى بيتي مع عكّازها الرباعيّ، فذلك يعني أنّه لا يزال أمامها الكثير. أعتقد أنّها هي من سيخبرنا حين يئين الأوان.

- الخوف يشعرني بالجوع. هكذا كنت دوماً، البعض قد يغمى عليهم أمّا أنا فيجب أن آكل.

عدنا إلى موقف السيّارات، كان البرد داخل السيارة قارساً.

كنت قد رأيت مطعماً مفتوحاً للوجبات السريعة عند مدخل المدينة. قصدناه. كان في داخلة ثلّة من المشاكسين الصُّلْع والسِّمَان؛ من يراهم يظنّ أنّهم لا يزالون في سنوات الخمسينيّات البعيدة. كانوا جميعاً سُكَارى، ما عدا واحداً، على جري العادة: يبقى أحدهم صاحياً دوماً ليوصل الآخرين، وفي الخارج كانت سيارة شوفورليت برّاقة مركونة. لدى مروري أمامهم شممت رائحة بريانتين.

لكنّ ما أدهشني هو سماعهم يتكلّمون عن يوسي بيورلينغ[1]. أشارت لي لويز، التي سمعتهم أيضاً، بطريقة لا تلفت النظر، إلى أحد الرجال

(1) يوسي بيورلينغ Jussi Björling (1911 –1960) مغنّي أوبرا سويديّ من أشهر أصوات «التينور» (الجهير) في القرن العشرين (حاشية من الترجمة الفرنسية).

الأربعة، الذي كان يعلّق في أذنيه قرطين ذهبيّين، وله كرش هائل يتدلّى عن بنطاله الجينز وعلى زاويتي فمه بقايا سَلَطة.

- الأخ أولوفسون، قالت بصوت خَافت. أحد أعضاء المجموعة التي تدعو نفسها «الإخوة برازرس»، كان للأخ صوت جميل في طفولته وكان يؤدّي غناءً منفرداً في الكنيسة. توقّف عند مرحلة المراهقة. يؤكّد البعض أنّه كان له أن يصل أبعد من ذلك - إلى مسارح الأوبرا.

توقّفت عن فكّ لغز قائمة الطعام الملصقة وراء المنضدة ونظرت إليها.

- لماذا لا يوجد هنا شخص عاديّ؟ لماذا كلّ النّاس على هذه الدرجة من الغرابة؟ إيطاليّك الذي يصنع الأحذية، وهذا الذي يتكلّم عن يوسي بيورلينغ...

- لا وجود لأناس عاديّين. إنّها صورة زائفة عن الحياة، فكرة ابتكرها السّياسيون ويريدون لنا أن نهضمها. أي أن نكون جزءاً من الكتلة اللانهائيّة من الناس العاديّين، الذين لا يملكون الإمكان والإرادة ليؤكّدوا اختلافهم. المواطن العاديّ، رجل الشّارع، كلّ هذا كلام فارغ لا وجود له. هو ذريعة فقط يمنحها القَادة لأنفسهم ليحتقرونا. في كثير من المرّات أقول لنفسي إنّه يجب أن أكتب أيضاً لساستنا، للطاقم السرّيّ لمملكة السّويد.

- أيّ طاقم سرّيّ؟

- أنا منحت هذا الاسم لمن لديهم السّلطة، لمن يستلمون رسائلي ولا يجيبون أبداً إلّا بصور تعكس إشراق وجوههم، الطّاقم السرّيّ الذي يمسك بزمام الحكم.

طلبت هي ما يدعى «الوجبة الملكيّة»، فيما اكتفيت أنا بقهوة وكيس صغير من البطاطا وهمبرغر. وصلت وجبتها، كانت جائعة بالفعل. من يراها يظنّ أنّها ستلتهم كلّ ما على صينيّتها دفعةً واحدةً.

لم يكن المشهد محبّباً. أحرجتني طريقتها في الطّعام.

بدت لي مثل طفلة معدمة. الأمر الذي ذكّرني بسفري إلى السّودان، حين ذهبت برفقة فريق من المختصّين بتقويم الأرجل، الذين كان عليهم أن يُنشئوا عيادات مناسبة لَمن داسوا عن طريق الخطأ على لغم، وكانوا بأمسّ الحاجة إلى زراعة أطراف اصطناعيّة. هناك، رأيت أطفالاً يلقون أنفسهم بهياج يائس على ما كان يقدّم لهم: قليل من الأَرُزّ، مع وجبة خضار وقطعة بسكويت قادمة من بلد مانح بعيد...

ما خلا المشاكسين الأربعة الذين ظهروا من الماضي مثل سكّان الكهف خارج كهوفهم، كان في القاعة عدد من سائقي الشّاحنات، يميلون على أطباق فارغة كما لو أنّهم نائمون، أو يتأمّلون فناءهم الذاتيّ. كان يوجد أيضاً فتاتان صغيرتان جدّاً، عمرهما أربعة عشر عاماً أو خمسة عشر، لا أكثر. كانتا تتهامسان إلى أن تغشيا من الضّحك قبل أن تعودا إلى التهامس. أتذكّرها: تلك الأسرار التي لا تنتهي والتي نتبادلها في المراهقة؛ والقسَم الذي نقطعه ولا نلبث أن نحنث به، الأسرار التي نعد بأن نصونها وعلى العكس لا نلبث أن نفشيها. غير أنّ هاتين الفتاتين هما بالفعل أصغر من أن تكونا هناك في منتصف الليل. الأمر الذي أغاظني. ألا ينبغي أن تكونا في السرير؟ لويز التي أنهت وجبتها الضخمة -ولم أكن قد أزلت بعد غطاء كوب القهوة- لاحقت نظرتي.

- لم أرَهما يوماً، قالت. ليستا من المدينة.

- لماذا، هل تعرفين جميع سكّان هذه المدينة؟
- لا، ومع ذلك أنا متأكّدة.

حاولت شرب قهوتي، لكنّها كانت مُرّة جدّاً. خطر لي أنّه قد يكون من الأفضل الذهاب إلى المقطورة والنّوم بضع ساعات قبل العودة إلى المستشفى. إلا أنّنا لزمنا مكاننا حتّى الفجر. ذهب المشاكسون، والفتاتان أيضاً. وغادر سائقو الشاحنات دون أن ننتبه، لا أنا ولا لويز، بغتةً، ما عادوا هناك.

- يوجد أناس يشبهون الطّيور المهاجرة، قالت. تحدث الهجرات الكبيرة في الليل، يعودون لانتهاج طريقهم دون أن نلاحظ.

كانت لويز تحتسي الشّاي. كان للرجلين اللذين يعملان وراء المنضدة بشرة داكنة وكانا يتكلّمان بلغة سويديّة ركيكة، تحلُّ مكانها في كثير من الأحيان لغة أخرى مموسَقة، بدت لي حزينةً أيضاً. من وقت لآخر، كانت لويز تسألني إذا كان ينبغي علينا العودة إلى المستشفى. برأيي لم يكن ثمّة ضرورة لذلك.

- إذا حدث أيّ شيء، فلديهم رقم هاتفك. أرجّح بقاءنا هنا.

في واقع الأمر، كان لدينا مشروعُ حديثٍ بلا نهاية، سيرة نحو أربعين عاماً ينبغي إتمامها. قد يكون مطعم الوجبات السّريعة هذا مع قضبان النيون فيه ورائحة القلي هو الإطار الملائم لذلك؟

استأنفت لويز الكلام مجدّداً عن حياتها. كانت في الماضي تحلم بأن تكون متسلّقة جبال. وعندما سألتها السّبب، أجابت بأنّها تعاني من دوار المرتفعات. بدا لي الأمر غريباً.

- هل هي فكرة جيّدة أن يتعلّق المرء بطرف حبل على منحدر عموديّ

وهو يخاف صعود سلّم صغير؟

- ظنّنت أنّ ذلك سيمنحني أكثر ممّا يمنح لمن لا يعانون من الدوار. حاولت مرّة، في لابونيا[1]. لم يكن المنحدر الصخريّ شديد الانحدار. لكن كان ينقصني القوّة في ذراعيّ. فتخلّيت عن مشاريع التسلّق في الأعلى بين شجيرات الخلنج. وأثناء العودة، أي الوقت الذي لزمني تقريباً لأصل إلى سوندسفال، كنت قد أنهيت بكائي على حلمي الضّائع واستبدلته بآخر: ألعاب الخفّة.

- وإلامَ أفضى؟

- لا أزل أستطيع الاحتفاظ بثلاث كرات في الهواء لمدّة من الزمن، أو ثلاث زجاجات. لكن لم أغدُ محترفة بقدر ما تمنّيت.

كنت أترقّب البقيّة. حين انفتح باب المطعم مُصدراً صريراً، دخل منه تيّار هواء بارد أفقدني صوابي قبل أن يُعاد إغلاقه.

- لم أتوقّع يوماً أن أجد ما كنت أبحث عنه. لأنّي لم أكن أعلم عمّا أبحث. أو ربّما علمت -إلّا أنّي أدركت أيضاً أنّني لن أجده.

- أب؟

أومأت بالإيجاب.

- حاولت أن أجدك في لعبي. مثلاً، كنت أسير في الشّارع، والرجل الحادي عشر الذي أصادفه يكون هو أبي. في عيد القدّيس يوحنّا، لم أضفر قطّ تاجاً من الورد من أجل الحلم بالأمير الوسيم. بالمقابل، ضفرت ما لا يحصى من التيجان من أجلك، فقط لكي أراك.

---

(1) لابونيا Laponie: منطقة جغرافية ثقافية تقطنها قومية الساما. وهي موجود في شمال أوروبا، مقسّمة بين المناطق الشمالية لكلّ من النرويج والسّويد.وفنلندا وشبه جزيرة كولا وروسيا.

ولكنّك لم تظهر. أذكر في أحد الأيّام أنّي كنت في الكنيسة ورأيت لوحة «القربان»، حيث يظهر يسوع صاعداً باتجاه النور النازل لاستقباله؛ وعلى الأرض يجثو جنديّان رومانيّان في حالة من الهلع، بعد أن فهما للتوّ ما اقترفاه بتسميره على الصّليب. فجأةً، اقتنعت بأنّك أحد هذين الجنديّين. سيكون لك ذات الوجه... وهكذا أوّل مرّة رأيتك فيها، كنت تعتمر خوذة.

- ألم تكن لدى آرييت أيّة صورة لي لتريكِ إيّاها؟

- سألتها. بحثتُ في أغراضها، ولم أجد شيئاً أبداً.

- كنا نلتقط معاً الكثير من الصور. وكانت هي دائماً من يظهّرها.

- قالت لي إنّه ليس لديها. إذا كانت قد مزّقتها فينبغي أن تقدّم لك أنت تفسيراً.

ذهبت لملء كوب شايها، كان أحد رَجُلَي المنضدة نائماً، متّكئاً على الحائط وذقنه مستند إلى صدره.

تساءلتُ بماذا يحلم.

كنّا قد وصلنا في سيرة لويز إلى حكاية الحصان والفارسة.

- لم نمتلك من المال يوماً ما يمكّنني من ركوب الحصان. ولا حتّى في الفترة التي كانت فيها آرييت تدير متجراً وتحقّق دخلاً مرتفعاً. إلى الآن ينتابني الغضب بمجرّد التفكير في بخلها. كان محكوماً عليّ إذن بأن أبقى ملتصقة بالسياج، في الجانب الخطأ، حيث أرى الأخريات يركبن مثل مقاتلات صِغار متكبّرات. كنت أحسّ أنه ينبغي عليّ أن أكون في اللحظة ذاتها الفرس والفارسة معاً، بمفردي. فكنت أنقسم إلى اثنين: نصف منّي الحصان، والآخر خيّاله. حين أكون

على ما يرام، وأنهض بسهولة في الصباح، أكون على السرج ولا صدعَ في حياتي. لكن في الأيّام التي أرفض فيها النهوض، ينتابني إحساس بأنّي حصان في زاوية مرج صغير، أرفض الرضوخ مهما سَاطُوني. كنت أشعر أنّي لست والحصان سوى كيان واحد. أعتقد أنّ ذلك ساعدني أثناء طفولتي على تجاوز أوقات عصيبة. وربّما، لاحقاً أيضاً. أمتطي حصاني، وهو يأخذني - ما عدا الوقت الذي أترك فيه نفسي تسقط من تلقائها.

سكتت بغتةً، كما لو أنّها ندمت على ما قالته.

كانت الساعة الخامسة، وكنّا وحدنا في المطعم. النائم يكمل نومه على الحائط، فيما يملأ زميله علب السُكّر بحركات بطيئة.

فجأةً، دون إنذار، قالت لويز:

- كرافاجّو[1]. لا أدري لماذا خطر لي في هذه اللحظة، هو وغضبه وسكاكينه القاتلة. ربّما لأنّه لو عاش في زماننا، لكان يمكن أن يرسم هذا المكان والناس الذين مثلي ومثلك.

كرافاجّو؟ الرسّام الإيطاليّ؟ لم أرَ أيّاً من لوحاته، لم أكن أعرف غير اسمه. عمله يمثّل شيئاً غير واضح من الألوان الداكنة والعنيفة والمواضيع المدهشة التي بدأت تزحف إلى ذهني المتعب.

- لا أعرف شيئاً عن الفنّ، قلت لها.

---

(1) Caravagggio كرافاجّو (1571–1610): هو لقب الرسّام الإيطالي ميكيلانجلو ميريزي، بالإيطالية Michelangelo وميريزي Merisi نسبة إلى مسقط رأسه. ترك أثراً كبيراً على الفنّانين الذين جاؤوا بعده. من أشهر لوحاته «موت العذراء»، التي كانت من الأسباب التي جعلت الكنيسة تلعنه. يمتاز أسلوبه باستغلال التفاوت بين الضوء والظلّ لإضفاء جوّ دراميّ على مشاهد لوحاته الواقعية.

- ولا أنا أيضاً. غير أنّي رأيت لوحة له تظهر رجلاً يمسك رأساً مقطوعاً بيده. لمّا عرفت أنّه كان رأسه، وأنّه بورتريه ذاتيّ للرسّام، فهمت أنّ عليّ التعمّق في الموضوع. فقرّرت ألّا أكتفي بمستنسخات الكتب، بل أن أزور كلّ الأمكنة التي تضمّ لوحاته. بهذه الطريقة بدأت أقتفي آثار كرافاجّو. وما إن يتوفّر المال الكافي حتّى كنت أذهب إلى مدريد، أو إلى أيّ مكان آخر، في كلّ المدن التي تعرض أعماله. كنت أقلّل نفقاتي إلى حدّها الأدنى، وأنام في العراء أحياناً، على مقعد في إحدى الحدائق. في آخر المطاف شاهدت جميع لوحاته، وتعلّمت أن أميّز الأشخاص الذين كان يرسمهم وجعلتُ منهم أصدقائي. بقي لي طريق طويل جدّاً لأمشيه. تستطيع تمويل رحلاتي الباقية، إذا أردت.

- لست ثريّاً.

- ظننت أنّ الأطبّاء يجنون الكثير من المال؟

- لم أعمل منذ زمن طويل. أنا متقاعد.

- دون مال في البنك؟

هل كانت تشكّك في كلامي؟ خَلصتُ إلى أنّ السّاعة المتأخّرة من الليل وهواء المطعم الملوّث جعلاني مرتاباً. حتّى مصابيح النيون لم تكن تضيء لنا، بقدر ما كانت تراقبنا، وتتلصّص علينا.

واصلت كلامها عن كرافاجّو وفهمتُ في النهاية شيئاً عن الشغف المأخوذة هي به. كانت متحفاً يمتلئ ببطء، قاعة تلو أخرى، بتفسيراتها الخاصّة حول أعمال الرسّام العظيم. كان واضحاً للويز أنّ هذا الرسّام لم يوجد منذ أربعة قرون، وإنّما يعيش إلى جوارها في أحد بيوت الغابة

المهجورة بين أصدقائها الآخرين.

من حين لآخر كان يدخل شخص مُبكر ويحدّق في لائحة المطعم: «وجبة كبيرة»، «متوسّطة»، «صغيرة»، «ليلية». فكّرت أنّه حتّى مطعم تافه كهذا، بإمكانه أن يقدّم إطاراً لحكاية مهمّة. خلال وقت قصير، تجسّدت سلسلة لوحات وسطَ رائحة القلي الكريهة.

تتكلّم ابنتي عن كرافاجّو كما لو أنّه قريبها أو أخوها أو حبيب تحلم في العيش برفقته.

كان يدعى ميكيلانجلو. أبوه، واسمه فيرمي، مات وهو لم يتجاوز السادسة من عمره، ولم يكن يكاد يتذكّره. لم يكن أبوه إلّا ظلّاً من ظلال حياته، بورتريهاً غير مكتمل في إحدى صالات عرضه الجوّانية الواسعة. عاشت أمّه لفترة أطول، حتّى بلغ ابنها التاسعة عشرة، لم يكن يحوطها سوى الصمت، وغضب أخرس هائل وكاره.

أخبرتني لويز عن بورتريه للكرافاجّو، نفّذه فنّان يدعى ليوني[1] على حجر أسود وأحمر دمويّ، أوصافه تشبه تلك التي تلصقها الشّرطة على واجهات الأبنية. يحدّق إلينا، بالأحمر والأسود. صورة بلون الدّم والفحم، تبرز منها نظرته، متنبّهة، ومتيقّظة: هل نحن موجودون فعلاً أم أنّنا فقط ما يجسّده؟ شعره أسود، لحيته سوداء، أنف حادّ، وجفون منتفخة: رجل وسيم، يمكن أن يصفه بعضهم بذلك. أمّا للآخرين، فليس أكثر من طبيعة إجرامية، مليئة بالعنف والكراهيّة، رغم موهبته الفذّة في تجسّيد البشر والحركة.

---

(1) أوتافيو ليوني Ottavio Leoni (1578 – 1630): رسّام إيطالي من المرحلة المتأخّرة لعصر الباروك، كان يعمل بالطباعة، واشتهر بفنّ البورتريه.

تحفظه مثل مزمور عن ظهر قلب، استشهدت بكاردينال ربّما كان اسمه بورومي، لست متأكداً من دقّة حفظي للاسم، كتب ما يلي: «في أيّامي، تعرفت في روما على رسّام سلوكه خاطئ، ولديه عادات مقيتة، تجده على الدوام يتنقّل بثياب رثّة. علاوة على ذلك، كان سيّئ السّمعة بسبب طبعه المشاكس ووحشيّته، لم ينجز شيئاً على صعيد فنّه. الموضوعات الوحيدة التي كان يشغّل عليها ريشته هي الحانات، والسكارى، والبوهيميّون والموسيقيّون المشكوك بأمرهم. هناؤه الغامض كان يكمن في رسم عالم هؤلاء المهمّشين».

كان كرافاجّو رسّاماً مباركاً من لدن الآلهة إلّا أنّه كان رجلاً خطيراً أيضاً. ذلك أنّه كان له طبع عنيف، وكان دائمَ السعي إلى إثارة شجارات. يقاتل بقبضة يده وبالسكّين. في أحد الأيّام قتل شخصاً بعد شجار حول نقطة خسارة أو ربح في لعبة المضرب. لكن ما جعله خطراً على نحو خاصّ هو لوحاته التي تحمل اعترافاً بذعره. هذا الذعر الذي لم يكن يخفيه والذي جعل منه -إلى الآن- خطراً.

تكلّمت لويز عن الموت الصّريح في مجمل أعماله: في الثقب الذي تركته الدودة التي تعتلي سلّة الفاكهة، أو في نظرة من سيكون له بعد قليل رأس مقطوع.

قالت إنّه لم يجد يوماً ما كان يبحث عنه، بل شيئاً آخر. مثل تلك الأحصنة التي كان يرسمها، شدقها الذي يتطاير منه الزبد كان فاه هو، ذلك الذي يحسّ به في قرارته.

رسم كلّ شيء عدا البحر.

قالت لويز إنّها، إذا كانت هذه اللوحات تمسّها لهذه الدرجة، فلأنّها

تُظهر لها عالماً حميمياً. في كلّ لوحة يَتَكشّف لها فضاء بإمكانها التحليق فيه. كان يمكنها أن تكون إحدى الشخصيات التي كان يرسمها؛ ليس لديها خشية من أن ينبذوها. بحثت مرّات عديدة عن عزاء في لوحاته، خاصّة في التفاصيل المرسومة بعاطفة كبيرة، حيث كانت الريشة تتحوّل إلى أصابع حسّاسة تداعب الوجوه التي يجسّدها بألوانه الداكنة.

لاحقاً حوّلت لويز مطعم الوجبات السّريعة التافه إلى شاطئ على الساحل الإيطاليّ، في 16 يوليو 1609، حيث الحرارة خانقة، والرسّام يسير على ذلك الشّاطئ في جنوب روما، وما عاد غير حطام. تبتعد الفَلّوكة[1] الصغيرة (لم تفلح لويز يوماً في معرفة ما هي الفلّوكة على وجه الدقّة) وعلى متنها لوحاته وفُرَشه وألوانه، وكيس يحوي ملابسه وحذاءه البائس. بقي وحيداً على الشاطئ، في صيف رومانيّ قائظ، ربّما لا يخلو الشاطئ من بعض النَسَائم، إلّا أنه لا يخلو أيضاً من البعوض الذي كان يقرصه ويحقن الموت في دمه. في الليالي الساخنة والرطبة حيث كان مستلقياً على الرمل، ومنهكاً، كانت تتكاثر في دمه طفيليّات الملاريا. أوائل هجمات الحرارة تكون سريعة ومفاجئة مثل غارات قطّاع الطرق. لا يعرف أنّه سيموت، غير أنّ لوحاته التي لم تكتمل بعد والماثِلة في رأسه أخذت بالتجمّد رويداً رويداً. «الحياة مثلُ حلمِ هاربٍ»، قال يوماً. أو ربّما لويز هي من صاغ هذه الحقيقة الشاعريّة.

كنت مذهولاً، أصغي إليها، شاعراً بأنّي أراها للمرّة الأولى. لديّ ابنة تعي حقّاً ما يعنيه أن يكون المرء إنساناً.

---

(1) الفلّوكة (Felucca): قارب إبحار تقليديّ خشبيّ، يكون له شراع أو شراعان، كانت الكلمة تشير إلى كلّ قارب صيد صغير، وينتشر استخدامه بشكل خاصّ في مصر والسودان.

وأن يكون كرافاجّو، الرّسّام الذي قضى منذ زمن طويل، أقرب أصدقائها، فليس لديّ أدنى شكّ في ذلك. كانت تصادق الأموات بالسهولة ذاتها التي تصادق بها الأحياء -أو ربّما أكثر؟

كانت تواصل كلامها دون توقّف، ثمّ صمتت. استيقظ الرجل الذي كان خلف المنضدة وبدأ وهو يتثاءب بفتح كيس بلاستيكيّ من البطاطا المثلّجة، ألقى بها في الزّيت الساخن.

صمتنا لبرهة طويلة. ذهبت لويز لتملأ كوبها.

حين عادت، أخبرتها عن اليوم الذي اقترفت فيه خطأً وأنا أجري عمليّة بتر. لم أكن مهيّأً لأخبرها بذلك؛ لكنّ الكلام خرج تلقائيّاً، كما لو أنّه فجأة لم يعد هناك مفرّ من إخبارها بالحدث الذي كنت، حتّى الأيام القليلة الماضية، أعتبره أهمّ حدث في حياتي. في البداية، لم يبدُ أنّها لاحظت أنّي أتكلّم عن نفسي. ثمّ فهمت. الحدث الفادح الذي جرى قبل اثني عشر عاماً. تلقّيتُ بسببه إنذاراً ولعلّي لو قبلت به لما كان لهذه القضيّة أن تضع حدّاً لمهنتي. لكنّ العقوبة بدت لي غير عادلة. دافعت عن نفسي بالتذرّع بشروط العمل غير المقبولة. فعدد المرضى لم يتوقّف عن الازدياد، وبعكس ذلك يتواصل تخفيض عدد الموظفين في المستشفى. لم أكن أفعل شيئاً غير أن أعمل، فمن الطبيعيّ أن تتمزّق شبكة الأمان. وهكذا ذات صباح، بعد التاسعة بقليل، خسرت شابّة ذراعها اليمنى، والمعافى كليّاً -قُطع بالضّبط من أعلى المرفق. هي عمليّة بسيطة. أكيدٌ أنّه لا يمكن نعت عمليّة بتر بالروتينيّة، ولكن لا شيء جعلني أحسب ولو للحظة أنّني كنت أرتكب خطأً فادحاً.

- كيف يعقل أن يحصل ذلك؟ سَألتْ لويز حين سكتُّ.

- إذا عشتِ ما يكفي من الوقت فستكتشفين أنْ لا وجود لشيء اسمه مُحَال.

- أنوي العيش إلى أن أصبح عجوزاً. لماذا غضبت؟ ولماذا ساء مزاجك؟

باعدتُ ذراعيَّ معتذراً.

- لا أقصد. ربّما أنا متعب. السّاعة الآن السّادسة والنصف. أمضينا الليلة بأكملها هنا. نحتاج للنوم بضع ساعات.

- إذن لنعد، قالت وهي تنهض. لا أحد اتّصل من المستشفى.

بقيت جالساً في مكاني.

- لا أستطيع النوم في سريرك، إنّه ضيّق جدّاً.

- إذن سأنام على الأرض.

- بعد وصولنا بقليل سيحين ميعاد عودتنا إلى المستشفى.

عادت للجلوس. لاحظتُ جيّداً أنّها منهكةً مثلي. عاد الرجل وراء المنضدة للنوم ثانيةً، وذقنه على صدره.

كانت مصابيح النيون لا تزال ترصدنا، من الأعلى، كعينيّ تنّين كامن.

(5)

أطلّ الفجر مثل انعِتاق.

سلكنا طريق المستشفى عند الثامنة والنصف. بدأت تُثلج بنُدَف خفيفة. شعرت بلدغةٍ في القلب، وأنا أرى وجهي في المرآة -إحساس بالموت، وبها لا يمكن ردّه.

كنت أنزلق، موصَداً عليّ داخل خاتمتي. لم يبق لديّ إلّا عدد قليل من الإطلالات على الخشبة -عدد قليل، لا أكثر.

جعلني شرودي أفوّت مدخل المستشفى. رمقتني لويز.

- كان يجب أن ننعطف إلى اليمين...

استدرت حول مجموعة منازل عائداً دون أن أجيب. أمام مدخل الإسعاف، تعرّفت على إحدى الممرّضتين اللتين استقبلتانا بالأمس. كانت تدخّن سيجارة، لم تعرفنا. خطر لي أنّها يمكن أن تكون في زمن آخر، إحدى شخصيّات لوحة للكرافاجّو.

صعدنا. كان باب الغرفة حيث تركنا آرييت مفتوحاً والغرفة فارغة. سألت عنها ممرّضة كانت تجتاز الممرّ. تفحّصتنا، كنّا على ما يبدو أشبه بدُويباتٍ تجازف بالخروج بعد قضاء ليلتها تحت حجر بارد.

- لم تعد السيّدة هورنفيلد هنا.

- لماذا؟ إلى أين أرسلتموها؟

- لم نرسلها إلى مكان. رحلت بمفردها. ارتدت ملابسها واختفت. ولم نستطع فعل شيء.

بدا الغضب ظاهراً عليها، كما لو أنّ آرييت خدعتها شخصيّاً.

- لابدّ أنّ أحداً رآها...

- استمرّ موظفو النوبة الليليّة بالمرور على غرفتها. وفي الساعة السابعة والربع اختفت.

التقت نظراتنا أنا ولويز وفسّرتها كإشارة منها. التفتت إلى الممرّضة.

- هل تركت شيئاً ما؟

- لا شيء.

- إذن لابدّ أنّها عادت إلى البيت.

- كان يلزم عليها إبلاغنا بأنّها لا تريد البقاء.

- هي هكذا، ردّت لويز. إنّها أمّي...

خرجنا من الإسعاف، من المدخل الخلفيّ للمستشفى.

- أعرف أين هي، قالت لويز. لدينا اتّفاق منذ الطفولة. إذا حدث أن تهت نلتقي في أقرب مقهى.

طفنا حول المستشفى حتّى المدخل الرئيسيّ والممرّ الكبير، حيث يوجد مقهى.

كانت آرييت على طاولة وأمامها فنجان قهوة. أشارت بيدها لمّا رأتنا. بدت أقرب إلى المرح.

- لا نعرف حتّى الآن ما الذي أصابك! خاطبتُها بِلَوم. ينبغي أن تمنحي الأطبّاء وقتاً ليقرأوا نتائج فحوصك.

- أنا مصابة بالسرطان وليس لديّ وقت أضيّعه في المستشفى على ذعر فارغ. لا أعرف ما الذي حصل بالأمس. لعلّني شربت كثيراً. الآن أريد العودة إلى البيت.

- عندي أم في ستوكهولم؟ سألت لويز.

أخذت آرييت يدها لكي تنهض. كان العكّاز الرباعيّ في الخلف، بجانب الجرائد. تمسّكت أصابعها الواهنة بمقبضيه. من غير المعقول أنّ هذه المرأة تمكّنت من سحبي خارج البحيرة.

لدى عودتنا إلى المقطورة، استلقينا نحن الثلاثة. كنت على طرف السرير ثانية وإحدى قدميّ على الأرض؛ نمت بسرعة.

رأيت في نومي يانْسون، قادماً بسرعة كبيرة على حوّامته المائيّة التي كانت تشقّ الجليد كمنشار حادّ الأسنان. بقيت مختبئاً خلف الصخرة حتّى اختفى. لمّا اعتدلت، رأيت آرييت على الجليد مع عكّازها الرباعيّ. كانت عاريةً، وعلى مقربة منها حفرة كبيرة.

نهضتُ فزِعاً. كانت المرأتان نائمتين. برق في ذهني أنّه من الأفضل أن أحمل سترتي وأغادر. ولكنّي بقيت في مكاني، وما هي إلّا هنيهات حتّى عدت إلى النوم.

نهضنا نحن الثّلاثة في ذات الوقت، كانت الساعة الواحدة. خرجت للتبوّل. لقد توقّف انهمار الثلج في الخارج، وبدأت الغيوم بالتفرّق.

شربنا القهوة. طلبت منّي آرييت أن أقيس ضغطها لأنّها كانت تعاني من صداع. قمت بذلك؛ كان أعلى من المعدّل الطبيعيّ بقليل جدّاً. أرادت لويز أن أقيس ضغطها أيضاً.

- سيكون هذا من ذكرياتي الأولى من أبي. بعد دلاء الماء.

كان ضغطها منخفضاً جدّاً. سألتها إذا كانت تعاني من نوبات دوار.

- فقط حين أفرط في الشرب.

- لا يحصل أبداً فيما خلا ذلك؟

- لم يُغمَ عليّ أبداً في الماضي.

رفعت آلة قياس الضغط. كانت الساعة الثانية والربع بعد الظهر، أنهينا قهوتنا. الحرارة مرتفعة في المقطورة، ربما كانت أكثر من المحتمل؟ قد يكون الجوّ الخانق ونقص الأوكسجين هما من ساهما في تعكير مزاجهما فجأةً؟ كيف لي أن أعرف، بالمحصّلة وجدت نفسي عُرضَة للهجوم من جهتين. بدءاً بآريت، التي أرادت معرفة الأثر الذي خلّفه اكتشافي في الأيّام الأخيرة الماضية أنّ لديّ ابنة.

- ما كان أثره عليّ؟ ليس بوسعي الإجابة على هذا السؤال.

- لا مبالاتك مخيفة، قالت.

- ليس لديكِ أيّة فكرة عمّا أشعر به.

- أعرفك.

- لم نلتقِ منذ أربعين عاماً! أنا لست ذلك الشخص الذي عرفتِه في الماضي.

- أنت أجبن حتّى من أن تعترف بأنّي محقّة، هذا كلّ ما في الأمر. لم تمتلك الشجاعة الكافية آنذاك لتصارحني بنيّتك على هجري. هربت، بالضبط كما تفعل الآن. ألا يمكنك أن تصْدق، ولو مرّة واحدة في حياتك؟ حقّاً ليس فيك شيء حقيقيّ؟

قبل أن يتاح لي أن أجيب، أعلنت لويز أنّ الرجل الذي يترك خطيبته كما فعلتُ ليس بوسعه أن يستجيب لقدوم ابن غير متوقّع بغير اللامبالاة،

أو ربّما الخوف، وبأحسن الأحوال بفضول غامض.

- لا أقبل بهذا! قلت لآرييت. اعتذرت عمّا فعلته بك منذ أربعين عاماً، ولكن كيف بمقدوري تخيّل أنّ لدي ابنة إذا لم تخبريني عنها قطّ؟

- كيف بوسعي إخبارك وكنت قد اختفيت؟

- قلت في السيّارة، ونحن على طريق البحيرة: إنّك لم تحاولي العثور عليّ أبداً.

- تتّهم امرأة على حافّة الموت بالكذب؟

- لا أتّهم أحداً.

- قل الحقيقة! صرخت لويز. أجب عن سؤالها!

- أيّ سؤال؟

- عن اللامبالاة.

- لست غير مبالٍ. أنا سعيد.

- آه صحيح؟ لا يبدو ذلك.

- لا يوجد متّسع لأرقص على الطاولة، إذا كان هذا ما تريدين!

- إيّاك أن تظنّ أنّي فعلت ذلك من أجلك! صرخت آرييت. من أجلها فقط!

بقيت أصواتنا تعلو. كانت جدران المقطورة الصغيرة على أهبة الانفجار. في قرارة نفسي، كنت مدركاً أنّهما تقولان الحقيقة. لقد خدعتُ آرييت وقد لا أكون أظهرت فرحاً مفرطاً بلقاء ابنتي. ولكن طفح بي الكيل. لم أعد قادراً على التحمّل. لا أعرف المدّة التي استغرقها الصراخ والانفعالات العبثيّة. بدا لي أكثر من مرّة أنّ لويز ستطبق قبضتيها كملاكمة وترميني على بساط الحلبة. لم أجرؤ حتّى على تخيّل الذرى التي لامسها ضغط آرييت.

وقفت أخيراً، وأمسكت حقيبتي، ومعطفي وحذائي وصرخت.

- اذهبا إلى الجحيم أنتما الاثنتين! لقد ضقت ذرعاً!

وصفقت باب المقطورة ورائي.

لم تلحق بي لويز. لم تنبس أيٌّ منهما بأيّة شتيمة وراء ظهري، كان الصمت تامّاً. وصلت سيّارتي بالجورب، أدرت المحرّك وغادرت. عندما وصلت إلى الطريق توقّفت وخلعت جوربي المبتلّ وحشرت قدميّ العاريتين في حذائي.

كنت لا أزال مغتاظاً وأنا أفكّر باتّهاماتهما، وأستعيد في قرارتي جدالنا من جديد، وأعدّل من الكلام الذي قلته، لأجعل دفاعي أوضح، وأكثر إفحاماً. أمّا خطابهما فسيبقى دوماً هو عينه.

وصلت ليلاً إلى ستوكهولم، بعد أن قدت بسرعة كبيرة، ثمّ نمت لفترة داخل السيّارة، وحين ازداد البرد تابعت إلى سوديرتيلجه. لم أكن قادراً على التحمّل أكثر، نزلت في فندق وما إن استلقيت حتّى غفوت. وعند الواحدة ظهراً عدت وسلكت طريق الجنوب، بعد أن اتّصلت بيانْسون وتركت له رسالة على المُجيب الآليّ. أسأله إذا كان بإمكانه المجيء ليأخذني من المرفأ في الخامسة والنصف عصراً؟ لا أعرف إذا كان سيوافق على القيام برحلة ليلية. لم يكن بوسعي إلّا أن آمل أن يستمع إلى رسائله بين الحين والآخر، وأن تكون حوّامته المائية مجهّزة بمصابيح جديرة بهذا الاسم.

عندما وصلت إلى المرفأ، كان يانْسون بانتظاري. أخبرني أنّه قد أطعم قطّتي وكلبتي. شكرته وأضفت أنّي مستعجل في العودة إلى البيت.

وضعني يانْسون على الرّصيف. رفض أن أدفع له.

- لا يمكن للمرء قبول مالٍ من طبيبه، قال.

- أنا لست طبيبك. سنناقش الأمر في المرّة المقبلة.

انتظرت حتّى اختفت حوّامة الماء خلف الصخور ولم أعد أرى أضواء مصابيحها. بغتةً انبثقت القطّة والكلبة قربي. انحنيت وداعبتهما. بدا النحول على الكلبة. تركت حقيبتي على الرصيف، كنت متعباً جدّاً ولا أقوى على جرّها إلى الأعلى.

كنّا ثلاثة على هذه الجزيرة، كما كنّا ثلاثة في مقطورة لويز. غير أنّه لا أحد يُعنّفني هنا. شعرت بارتياح كبير وأنا أدخل في مطبخي. أطعمت الحيوانين، وجلست إلى الطاولة وأغمضت عينيّ.

وجدت صعوبة في النوم تلك الليلة. نهضت أكثر من مرّة. كان القمر مكتملاً، والسماء صافية، الضوء الشاحب يرخي ظلاله على الصخور وعلى بياض الجليد. انتعلت جزمتي ولبست معطفي الفرو وعاودت النزول إلى الرصيف. لم تلحظ الكلبة خروجي، وفي المطبخ فتحت القطّة عينيها لكنّها لم تتحرّك عن المقعد. كان الطقس بارداً في الخارج. الحقيبة مفتوحة، والقمصان والجوارب مبعثرة على الثلج. لمرّة ثانيةً، تركت الحقيبة مكانها.

هناك، على الرصيف، أدركت بغتةً أنّه بقي أمامي القيام برحلة أخرى. تمكّنت من إقناع نفسي طوال اثني عشر عاماً بأنّها غير ضروريّة، غير أنّ لقائي بلويز وحديثنا الليليّ الطويل قلبَ كلّ شيء. لم أكن مجبراً على القيام بها، تلك الرحلة، أنا من كان يريدها.

في مكانٍ ما كانت تعيش الشابّة التي كنت قد بترتُ ذراعها السّليمة. كان عمرها حينذاك عشرين عاماً؛ إذن ستكون قد بلغت اثنين وثلاثين عاماً. أتذكّر اسمها: آغنيس كلارستروم. تحت ضوء القمر وأنا أقف على

رصيفي، راجعت كلّ التفاصيل، كما لو أنّي تصفّحت للتوّ ملفّها الطبيّ. كانت من إحدى ضواحي ستوكهولم الجنوبية، من أسبودن أو بغرموسن. بدأت القصة بألم في الكتف. وبما أنّها كانت سبّاحةً محترفةً، فقد ظنّت هي ومدرّبوها أنّ الألم كان بسبب التدريب المكثّف. وعندما لم تعد قادرةً على النزول في المسبح دون وجع، استشارت طبيباً. بعدئذ جرى كلّ شيء بسرعة كبيرة؛ التشخيص كان يؤكّد وجود ورم خبيث في العظم، والبتر هو الحلّ الوحيد، رغم تبعاته الكارثيّة عليها: من سبّاحة ممتازة إلى قطْعاء، وذلك حتّى نهاية أيّامها.

بدايةً، لست أنا من كان ينبغي أن يجري العمليّة لها، كانت مريضةَ زميل لي. إلّا أنّ زوجة هذا الزميل تعرّضت لحادث سير خطير آنذاك، فجرى توزيع العمليّات المدرجة في مُفَكّرته بشيء من الفوضى على باقي جرّاحي قسم العظام. هكذا وجدت آغنيس كلارستروم نفسها على طاولة عمليّاتي.

استغرقت العمليّة أكثر من ساعة بقليل، لا أزال أتذكّر تفاصيلها. كان الممرّضون قد غسلوا وهيّأوا الذراع الخطأ. بالطبع كان يتوجّب عليّ التأكّد من أنّ كلّ شيء على ما يرام، لكنّني وثقت بفريقي.

بعد شهر، أبلغتني المديريّة الوطنيّة للصحّة عن وجود شكوى ضدّي.

منذ ذلك الحين مضى ما يزيد عن اثني عشر عاماً. لم أكن قد دمّرت حياة آغنيس كلارستروم فحسب، بل حياتي أيضاً. وتُوِّج ذلك كلّه بنتائج فحوص لاحقة، أثبتت أنّه لم يكن من الضروريّ بتر الذراع التي وجدوا فيها الورم الخبيث.

لم يخطر في ذهني قطّ أن أقوم بزيارتها. لم أكلّمها إلّا مرّة واحدة، بعد

العمليّة، حين كانت لا تزال شبه غائبة عن الوعي بفعل التخدير.

تركتها وراء ظهري كقضيّة منتهية إلى أن أتى اليوم الذي استلمت فيه رسالة مديريّة الصحّة.

عند الثانية صباحاً قفلت عائداً إلى البيت، وجلست إلى طاولة المطبخ. لم أكن فتحت بعدُ باب الصالون حيث توجد قرية النمل، ربّما خشيةً من أن تتدفّق النّمال إلى المطبخ فيما لو فتحتُه.

اتّصلت بالاستعلامات، لكن لم يكن يوجد في منطقة ستوكهولم أيّ مشتركة بهذا الاسم. طلبت من موظّفة الاستعلامات التي قدّمت نفسها باسم إلين، أن تجري بحثاً على كامل السّويد.

كان هناك امرأة واحدة قد تكون آغنيس كلارستروم المقصودة، تسكن في بلدة فلين؛ يدلّ العنوان على مزرعة في قرية تدعى سنغلدسبين. دوّنت العنوان وكذلك رقم الهاتف.

الكلبة نائمة، والقطّة في الخارج تحت ضوء القمر. دخلت الغرفة التي فيها نول حياكة يعود لجدّتي، وعليه بساط من الصوف غير مكتمل. لا توجد في رأيي صورة للموت أوضح: الموت يشبه دوماً هذا البساط، لن يكون مناسباً في أيّ وقت يأتي فيه. هذا البساط مثل أعمارنا لن يكتمل يوماً. على الرفّ الذي كانت تضع عليه جدّتي كببها الملوّنة، أحتفظ ببضع أوراق تلاحقني منذ سنوات. رزمة رقيقة، تضمّ معلومات شتّى، من بيان درجاتي في الثانوية، وكانت أدنى من المتوسّط بقليل، وكان يحفظها أبي عن ظهر قلب لشدّة فخره، وحتّى النسخة اللّعينة من تقرير البتر. ليست سميكة -كان بوسعي التخلّص من الوثائق التي يحتفظ بها الآخرون بعناية فائقة. كان بين الأوراق أيضاً الوصيّة التي كتبها لي محامٍ مقابل مبلغ خياليٍّ،

والتي بتّ مضطراً إلى تغييرها بعد أن أصبح لديّ ابنة. ولكن ليس لهذه الغاية دخلت الغرفة التي كان بوسعي أن أشمّ رائحة جدّتي فيها. أخذت تقرير العمليّة المؤرّخ في 9 مارس 1991، رغم أنّي أحفظه غيباً، إلى المطبخ، ووضعته على الطاولة وتصفّحته. كلّ كلمة فيه كانت أشبه بحصاة ملساء على طريق التدهور، منذ بداية التشخيص: «غضروفية من عظم العضد» حتّى آخر مرحلة: «تضميد الجرح».

تضميد الجرح. لا شيء أكثر. كانت العمليّة منتهيةً، وقد أُخِذَت المريضة إلى غرفة الإيقاظ. مبتورةَ الذراع، إلّا أنّ الورم اللعين كان سليماً في الذراع الأخرى.

قرأت:

تقييم الوضع قبل العمليّة الجراحيّة: أنثى، عشرون عاماً، يَمْناء، سليمة، فُحصت في ستوكهولم بسبب ورم في الذراع اليسرى. صورة بالرنين المغناطيسيّ IRM تكشف عن ورم خبيث غضروفيّ منخفض الدرجة في الذراع اليسرى. التحاليل المكمّلة تؤكّد التشخيص، وقد صادقت المريضة على خطّة العلاج: بتر عظم العضد القريب، مع هامش جراحيّ. تقرير العمليّة الجراحيّة: التخدير مع تعليق أنابيب في وضع «الكرسي الطويل»، ثمّ عزل الذراع. تُستخدم مضادّات حيوية وقائية. شقّ على العظم الغدافيّ يتبع الحافّة السفليّة للعضلة الدالية حتّى الحافة الخلفية للحفرة المأبضية. ربط الوريد الرأسيّ، وشقّ العضلة الصدرية. تحديد الحزمة الوعائية العصبيّة، مع ربط الوريد، وربط مضاعف للشريان. عزل الأعصاب. عزل العضلة الدالية عن عظم العضد. العضلة الظهرية الكبيرة والعضلة

المدوّرة الكبيرة عُزلتا في مستوى ارتكازهما العظميّ. عزل الرؤوس الطويلة والقصيرة للعضلة ذات الرأسين والعضلة الغرابيّة الترقوية تحت مستوى البتر الجراحيّ. بتر العضد في مستوى العنق الجراحيّ وبَرْده. تغطية ما بقي من العظم بالعضلة المثلّثة الرؤوس، والمعزولة مسبقاً عن مكان ارتكازها، وطمرها أيضاً بالعضلة الغرابيّة العضديّة. خياطة العضلة الصدريّة مع الحافّة الجانبية للعضد. وضع أنبوب تنقية وخياطة بدون شدّ حواف الجرح. تضميد الجرح.

خطر في ذهني أنّ آغنيس كلارستروم قرأت على الأرجح هذا التقرير وطلبت مراراً أن يفسّر لها. لا بدّ أنّها صُدِمت لدى مصادفة وسط هذه الكلمات المبهمة على كلمة عاديّة. لقد أُجريت لها العملية في ما يُدعى «وضع الكرسيّ الطويل»، كما لو أنّها على رصيف مسبح أو في شرفة. كانت الذراع عارية، وأضواء غرفة العمليّات آخر ما رأته قبل أن يأخذها نعاس المخدّر. لقد عرّضتُها لانتهاك مرعب فيما كانت هي مستلقية كما لو أنّها على كرسيٍّ شاطئ.

أيمكن أن تكون تلك آغنيس كلارستروم أخرى؟ كانت شابّة صغيرة آنذاك. هل تزوّجت منذ ذلك الحين، هل غيّرت اسمها؟ حسبَ فتاة الاستعلامات إلين، لم يكن اسمها مرفقاً بلقب.

كانت ليلة مخيفةً، وحاسمة. لم أعد قادراً على مواصلة الهرب. كان ينبغي أن أتكلّم معها، أن أفسّر لها ما لا يُفسَّر، وأقول لها إنّي أنا أيضاً، من نواحٍ عديدة، قد بترت نفسي.

عدت لأنام. استغرقت وقتاً طويلاً حتّى غفوت. وحين فتحت عينيّ كان الصباح. لم يكن ذاك يوم بريد، وعلى الأرجح ما كان يانْسون ليأتي. فبوسعي إعادة فتح حفرتي بهدوء.

اضطررت أن استخدم المعول لشقّ سماكة الجليد. وبينما كانت الكلبة تراقب جهودي من الرصيف، كانت القطّة متوارية في مرآب القوارب، تبحث عن فئران الحقل. أخيراً فتحت حفرتي، وتمكّنت من الغوص فيها والشعور بحرقة البرد. فكّرت في آرييت ولويز. وتساءلتُ هل سأجرؤ على الاتّصال بآغنيس كلارستروم وسؤالها عمّا إذا كانت هي المرأة التي أبحث عنها.

لم أتّصل. وعوضاً عن ذلك، نظّفت البيت بفورة غضب. كان كلّ شيء مغطّى بطبقة من الغبار. أدرت الغسّالة القديمة وغسلت شراشفي، التي من كثرة اتساخها بدت كأنّها لمتشرّد. ثمّ تجوّلت حول الجزيرة بمنظاري أراقب الامتداد المتجمّد وأفكّر أنّه ينبغي اتّخاذ قرار.

امرأة عجوز مع عكّاز رباعيّ على الجليد، وابنة مجهولة تقيم في مقطورة. وأنا في عمر السادسة والستين، كلّ ما ظننته منتهياً وثابتاً مرّة واحدة وإلى الأبد، بدأ يتحرّك فجأةً ويتحوّل.

بعد تلك الظهيرة، جلست على طاولة المطبخ وكتبت رسالتين. الأولى لآرييت ولويز، والثانية لآغنيس كلارستروم. سيُفاجأ يانْسون حين أعطيه الظرفين وأطلب منه أن يلصق طوابع عليهما. زيادةً في الحيطة أغلقتهما بلاصق. لم أكن أثق به. قد يكون عند يانْسون فضول لا أعرفه، يشجّعه على فتح رسائلي.

ماذا كتبت؟ كتبت إلى آرييت ولويز أنّي قد تجاوزت غضبي، وإنّي أتفهّمها، ولكن لم يكن بمقدوري العودة فوراً لرؤيتها. وأنّي عدت إلى جزيرتي للاعتناء بحيوانيَّ المهملين. غير أنّني متأكّد من لقائنا القريب. ولا بدّ لعلاقتنا أن تستمرّ.

استغرقت منّي هذه السطور القليلة وقتاً طويلاً، إلى أن أقلعت عن محاولة تحسين نثري، كانت الأرض منثورة بالأوراق المجعّدة، لم يكن ما كتبته صحيحاً. لم يكن غضبي قد هدأ. وكان بمقدور حيوانيَّ تدبّر أمرهما لفترة أطوَل بفضل اعتناء يانْسون بهما. ولم أكن أعلم إذا كانت لديّ رغبة حقيقيّة في العودة إلى رؤية آرييت ولويز قبل زمن طويل. كنت أحتاج للتفكير، وعلى الأخصّ في ما ينبغي قوله لآغنيس كلارستروم في حال عثوري عليها.

لم أواجه مشكلة مع رسالتها. أدركت، وأنا أخطّها، أنّي كنت أحملها في داخلي منذ سنوات. لقد أردت مقابلتها، لا شيء آخر. وضعت عنواني ووقّعت بالاسم الذي لا شكّ أنّها لم تنسه قطّ. كنت آمل أن يكون كلامي موجّهاً إلى الشخص المناسب.

كانت الريح تهبّ حين وصل يانْسون في اليوم التالي. دوّنت في يوميّاتي أنّ الحرارة انخفضت خلال الليل وأنّ ريحاً عاصفةً هبّت من الغرب والجنوب الغربيّ.

وصل يانْسون في موعده، أعطيته ثلاثمائة كورون مقابل ذهابه للمرفأ بالأمس وإحضاري، ورفضت استعادة الأوراق النقديّة.

- أرجوك أن تلصق طوابع على هذين الظرفين، قلت له وأنا أمدّ له رسالتيّ.

كنت قد وضعت لاصقاً على زوايا الظرف الأربع. لم يحاول يانْسون إخفاء دهشته، لكنّي أوجزت.

- أكتب فقط حين يكون ذلك ضروريّاً.

- شكراً للبطاقة الجميلة، قال.

- ماذا، السياج المغطّى بالثلج؟ ما الجميل فيه؟

كان يغيظني دوماً.

- كيف حال أسنانك، سألته لأداري غيظي.

- الألم يظهر ويغيب. يكون أشدّ في الأعلى من الجهة اليمنى. ثمّ فتح شدقيه.

- لا أرى شيئاً. كلّمْ طبيب الأسنان بذلك.

صدرت عنه طقطقة وهو يحاول إغلاق فمه. علِق فكّه، وبقي فمه مفتوحاً. بدا واضحاً أنّه يتألّم وإنْ عجز عن قول ذلك. قمت بضغط إبهاميَّ ضغطاً خفيفاً على طرفي فكّه السفليّ، وبحثت عن المفصل ودلّكته حتّى عاد إلى مكانه الطبيعيّ.

- آلمني ما فعلتَ، صرّح يانْسون.

- حاول ألّا تتثاءب وألّا تفتح فمك على سعته بضعة أيّام.

- هل يحمل هذا أعراضَ مرض خطير؟

- لا إطلاقاً، اطمأنّ.

غادر يانْسون حاملاً رسالتيّ، وقفلت صاعداً صوب البيت يخمش الهواء وجهي.

عصرَ ذلك اليوم، فتحت الباب المفضي إلى قرية النمل. بدا لي أنّ مساحة أخرى من غطاء الطاولة قد اجتاحتها النّمال. خلا ذلك كان كلّ

شيء كما تركناه حين ذهبنا، بما فيه سرير التخييم الذي نامت عليه آرييت.

لم يحدث شيء في الأيّام التالية. غامرت بالذهاب على الجليد باتّجاه أعالي البحر. قست سُمْكَ الثلج في ثلاثة أماكن. وعرفت، دون العودة إلى دفاتري القديمة، أنّ الجليد لم يصل إلى هذا السُّمك منذ سكنتُ الجزيرة.

في أحد الأيّام رفعت الغطاء عن مركبي في المرآب، محاولاً أن أقدّر صلاحيته على الإبحار يوماً ما. أترى بقي جافّاً لمدّة طويلة؟ هل سأمتلك الجَلَد الكافي لإصلاحه؟ أعدت الغطاء دون أن أجيب.

رنّ الهاتف في أحد المساءات. نادراً ما يتّصل بي أحد. وحين يحدث ذلك، يكون على الخطّ مندوبو إنترنيت، يريدون إقناعي عبر الهاتف بأن أبدّل اشتراكي أو أرفعه إلى وتيرة أعلى. وعندما أخبرهم بأنّي أسكن جزيرة معزولة، ولست أكثر من متقاعد، يتبخّر حماسهم على الفور. الوتيرة الأعلى، حتّى لا أعرف ماذا تعني.

حين تناولت سمّاعة الهاتف، جاءني صوت امرأة مجهولة.

- أنا آغنيس كلارستروم. لقد استلمت رسالتك.

انتظرت وأنا أحبس أنفاسي.

- ألو؟ قالت. ألو؟

لم أنبس بشيء. عادت ونادت مرّتين لتُخرجني من مغارتي. ثمّ أغلقت الخطّ.

كان لآغنيس كلارستروم وجود. عثرت عليها. وصلت الرسالة للمرسَل إليه. كانت تسكن قريباً من فلَن.

في أحد أدراج المطبخ، كنت أحتفظ بخريطة قديمة للسويد، أعتقد أنّها

تعود إلى جدّي. كان دوماً يقول إنّه سيزور فلكنبيرغ ولو مرّة واحدة في حياته. لماذا هذه المدينة بالذات، لم أعرف قطّ. في الواقع، لم يذهب في حياته إلى ستوكهولم ولم يغادر السّويد يوماً. وحلم فلكنبيرغ، أخذه معه إلى القبر.

فردت الخريطة على الطاولة وبحثت عن فلَن. لم تكن الخريطة مفصّلة بما يكفي لأعرف أين أجد سنغلدسبين. كان يلزمني ساعتان على الأكثر للوصول إليها. كنت قد اتّخذت قراري. سأزور آغنيس كلارستروم.

بعد يومين، عدت واجتزت الجليد على قدميّ حتّى وصلت إلى سيّارتي. هذه المرّة، لم أترك رسالة على الباب. ولم أخبر يانْسون بشيء: تركته لفرضيّاته. كان لدى الحيوانين ما يلزمهما من الطعام. السماء زرقاء، والريح هادئة، ودرجة الحرارة اثنتان فوق الصفر. سلكت الطريق المتّجه شمالاً، قبل أن أنعطف داخل المدينة. وصلت إلى فلَن بعد الثانية ظهراً بقليل. اشتريت خريطة مفصّلة من مكتبة، وحدّدت موقع القرية. كانت على بعد بضعة كيلومترات فقط من قصر هاربسوند، المسكن الصيفيّ لرؤساء الحكومة السّويديين. كان المنزل فيما مضى لرجل أعمال جنى بعمله في الفلّين ثروة كبيرة ورّثها للدولة. كان المركب المشهور الذي يرسو على رصيف هاربسوند قد قام بالعديد من الجوّلات البحريّة وعلى متنه رؤساء دول لم يعد أحد يعرفهم من الجيل الشابّ.

كنت أعرف كلّ هذه المعلومات عن هاربسوند لأنّ أبي عمل نادلاً فيه حين كان تاج إيرلندر[1] رئيساً للوزراء، وكان يستضيف فيه

(1) تاج إرلندر Tage Erlander (1901– 1985) رئيس الحكومة السويديّة بين عامي 1946 و1969.

الكثير من الزوّار ذوي الشأن من خارج البلد. كان أبي لا يملّ من وصف أولئك الرجال -كانوا دوماً رجالاً، ولا مرّة كانوا نساء- الذين يُجرون على الطاولة أحاديث خطرة عن الوضع العالميّ. كان ذلك أوان الحرب الباردة؛ كان أبي يصرّ بتزمّت على جعل نفسه غير مرئيّ، لكنّه يتذكّر كلّ شيء، الوجبات والأطباق والنبيذ. ومن سوء الحظّ أنّه كان في أحد الأيّام شاهداً على الحدث الذي قارَبَ أن يتحوّل إلى فضيحة. روى ذلك لنا محيطاً إيّاه بسرّية بالغة، فلم تكن هذه المعلومات تسلّم لي ولأمّي، إلّا مقابل كثير من التردّد. فبعد أن أفرط أحد المدعوّين في الشرب، بدأ بإلقاء كلمة شكر قبل موعدها. ما أوقع النادلين في حيرة، ولكنّهم ظلّوا متماسكين إزاء الحدث غير المتوقّع ولم يسارعوا إلى تقديم النبيذ الذي يأتي مترافقاً مع الحلوى. في وقت لاحق من السهرة، وجدوا الرجل أمام القصر مستلقياً على العشب.

- كان فاغرهولم قد ثمل بطريقة مؤسفة، قال أبي بنبرة توحي بخطورة الموقف.

من كان فاغرهولم ذاك، لا أنا ولا أمّي عرفنا يوماً. بعد موت أبي بزمن طويل، حصلت على معلومات تفيد أنّ الرجل السكران كان على الأرجح أحد قادة حزب العمّال الفنلنديّ.

غير بعيد عن هاربسوند تعيش حالياً المرأة التي سرقتُ ذراعها.

تتكوّن القرية من عدّة مزارع منتشرة على ضفّة بحيرة طويلة وضيّقة. حقولها ومروجها مغطّاة بالثلج. كنت قد جلبت معي منظاري. تسلّقت مرتفَعاً لأرى بشكل أوضح. كان ثمة أناس يتنقّلون من حين لآخر في

فسحة بين المستودع والحظيرة، أو بين المنزل والمرآب. لا يمكن أن تكون آغنيس كلارستروم أيّاً منهم.

قفزت من مكاني حين شعرت بكلب يتشمّم قدميّ. ولمحت رجلاً في الأسفل، كان يسير على الطريق، يرتدي معطفاً طويلاً وينتعل جزمة. نادى على كلبه. حين رأيت أنّه يرفع يده ملقياً التحيّة، أخفيت منظاري ونزلت. تبادلنا بضع كلمات عن المشهد والشّتاء الطويل الجافّ.

- هل في القرية شخص يدعى آغنيس كلارستروم؟

دلّني على أكثر البيوت تطرّفاً.

- إنّها تسكن هناك، مع فتياتها القذرات. لم يكن أحد يمتلك كلباً قبل مجيئهم، والآن أصبح لدى الجميع كلاب.

ومضى يهزّ رأسه مستهجناً. لم يرقْ لي أبداً ما سمعته للتوّ. لا أريد التورّط بشيء يفاقم فوضى حياتي. قرّرت أن أغادر. ولكن عندما أصبحت أمام السيّارة، استوقفني شيء. درت حول القرية ووقفت عند طريق مختصر جُرِفَ جليده. من ذلك المكان كنت أستطيع الاقتراب من الجهة الخلفية لآخِر مزرعة، متجاوزاً غَيْضَةً صغيرة.

كان الوقت آخر الأصيل، وسيحلّ الليل قريباً. تجمّدت لمّا رأيت البيت من خلال الأشجار. أزحت عن بعض أغصان التنّوب الثلج الذي كان يثقلها. كان مُعتَنىً بالبيت بشكل جيّد. ثمّة سيارة مركونة عند باب المدخل، وسلْك محرّكها مربوط إلى خطّ الكهرباء.

تجسّد خيال أمام منظاري. فتاة بمواجهتي، كانت تنظر إليّ. فجأة شهرتْ شيئاً كانت إلى تلك اللحظة تخفيه خلف ظهرها. إنّه سيف. وبدأت تركض باتّجاهي، سلاحها مرفوع فوق رأسها.

رميت منظاري في الثلج وحاولت أن ألوذ بالفرار، لكنّ جذراً أو حجراً أو ما لا أعرف جعلني أتعثّر وأتدحرج على الأرض. وقبل أن أتمكّن من النهوض، كانت البنت فوقي، والكراهيّة تشعّ من نظرتها.

- ثمّة مثلك كثيرون في كلّ الأمكنة، قالت. يتلصّصون بمناظيرهم بين الأحراش.

ظهرت امرأة من ورائها في ذات اللحظة، وأخذت سلاح الفتاة بيدها اليسرى. فهمت أنّها آغنيس كلارستروم. ربّما كنتُ في داخلي أتذكّر وجه الفتاة التي ألفت نفسها قبل أثني عشر عاماً معروضة تحت يديّ المعقمتين جدّاً بقفّازيها المطّاطيين.

كانت ترتدي سترة زرقاء لها سحّاب مرفوع حتّى العنق. كمّها الأيمن مربوط إلى الكتف بِمِشْبَك. كانت الفتاة الواقفة إلى جانبها لا تزال تسدّد نحوي نظرتها المفعمة بالكراهية.

تمنّيت أن يأتي يانْسون ويصطحبني. للمرّة الثانية خلال مدّة وجيزة تنفصل تحت قدميّ قطعة جليد، وأبتعد دون أن أستطيع العودة إلى اليابسة.

(6)

نهضت عن الثلج، ونفضت ثيابي وعرّفت بنفسي. انهالت الفتاة عليّ بالرّفسات، لكنّ آغنيس أوقفتها، فاختفت.

- لا أحتاج لكلب يحرسني، قالت آغنيس. سيُما تلتقط كلّ ما يتحرّك، كلّ شخص يقترب من المنزل. لها بصر صقر، كان ينبغي أن تولد طيراً جارحاً.

- ظننتها ستقطّعني إرباً.

رمتني بنظرة سريعة دون أن تجيب. فهمت أنّ هذا الاحتمال لم يكن مستبعداً.

أدخلتني المنزل حيث جلسنا في غرفة مكتبها. كان يصل صوت موسيقى الروك عالياً إلينا، إلّا أنّ آغنيس بدت كأنّها لا تسمع شيئاً. خلعت سترتها بخفّة من له يدان وذراعان.

أخذت مكاني على الكرسيّ. كانت طاولتها خالية إلّا من قلم حبر.

- كيف توقّعتَ ردّ فعلي على رسالتك؟ بدأت هي.

- لا أعرف. على الأرجح شعرتِ بالمفاجأة. أو ربّما بالغضب؟

- شعرت بالارتياح! فكّرت أنّه أخيراً... ثمّ تساءلت: لماذا الآن؟ لماذا ليس البارحة، أو من عشر سنوات؟

أسندت ظهرها إلى الخلف. لها شعر بنيّ طويل معقوص بمشْبك وعينان زرقاوان صافيتان. بدت مفعمة بالقوّة والتصميم.

كانت قد وضعت سيف الساموراي على رفّ بالقرب من النافذة. لاحقت نظرتي.

- أتاني منذ زمن طويل، قالت. من رجل كان يقول إنّه يحبّني. وحين توقّف الحبّ، بردّ فعل غريب منه، أخذ الغمد وترك لي السيف، مصقول النصل. ربّما تمنّى لو أغرزه في بطني من اليأس؟

كانت تتكلّم بسرعة، كما لو كانت المدّة محدّدة. كلّمتها عن آرييت ولويز، وكيف أجبرني وعيي بكلّ خياناتي إلى البحث عنها، لأعرف إذا كانت لا تزل حيّة.

- هل كنت تأمل أن يكون الأمر بعكس ذلك؟

- في وقت آخر، نعَم. أمّا الآن فلا.

رنّ الهاتف. استمعت قليلاً، ثمّ لفظت «لا» صارمة جدّاً. لا يوجد مكان شاغر في ملجئها، حيث كان لديها ثلاث فتيات تُعنى بهنّ.

اكتشفت عالَماً أجهله بالكامل. كانت آغنيس كلارستروم تعيش في منزل كبير مع ثلاث مراهقات. كنَّ في أيّام شبابي سيُصنّفن على الفور ضمن الفئة «السّيئة». تلك التي كانت تدعى سيُما أتت من ضاحية فقيرة في غوتبورغ. من الصعب تقدير عمرها بالضبط. كانت قادمة إلى السّويد متقوقعة، ووحيدة، في أقصى شاحنة نزلت ذات يوم في ميناء تريلبورغ. كانت قد نُصِحَت خلال هروبها الطويل خارج إيران بأن تتخلّص من أوراقها ما إن تصبح داخل السّويد، وأن تخترع لنفسها اسماً جديداً وتمحو

كلّ أثر لهويّتها الحقيقيّة. بهذه الطريقة لن يتمكّن أحد من طردها، حتّى إذا كانت هذه نيّة كلّ من سيقابلونها. مُلكها الوحيد كان مزقة ورق خطّت عليها ثلاث كلمات سويديّة وجب عليها حفظها.

لاجئة، مُلاحَقة، وحيدة.

أنهت الشاحنة رحلتها بالقرب من مطار مالمو. دلّها السائق عليه وأخبرها بضرورة مراجعة الشرطة. كانت تبلغ من العمر أحد عشر عاماً أو اثني عشر. وباتَ يقارب السابعة عشرة. والحياة التي أمضتها في السّويد طوال هذه المدّة جعلتها لا تشعر بالأمان ما لم يكن السيف بيدها.

من حيث المبدأ كانت تقيم في المنزل فتاتان أخريان، غير أنّ إحداهن كانت هاربة. لا يوجد سياج، ولا باب مقفل بمفتاح، ولكنّ من تغادر البيت دون إذن تعدّ هاربةً. وكلّما تكرّر حدوث ذلك، عيل صبر آغنيس. فتُنقَلُ المراهقة إلى مؤسّسة أخرى حيث تكون الأبواب ثقيلة، وحلقة المفاتيح كذلك.

الفتاة التي هربت قبل يومين كانت تدعى ميرندا وهي قادمة من تشاد. ذهبت على الأرجح لتنضمّ إلى إحدى صديقاتها، التي كانت لسبب مجهول تطلق على نفسها اسم «تي باغ» (كيسَ الشاي). كان عمر ميرندا ستّة عشر عاماً، أتت إلى السّويد كلاجئة، ضمن عدد اعتباطيّ حدّدته الأمم المتحدة، بعدما عاشت في مخيّم مع عائلتها.

كان أبوها رجلاً بسيطاً، تقيّاً ويتقن النجارة، لكنّه سرعان ما فقد شجاعته في السّويد أمام البرد المستمرّ والإحساس بأنْ لا شيء حدث كما تمنّاه. فأغلق على نفسه في أصغر غرفة من الغرف الثلاث التي كانت تتكدّس فيها عائلته الكبيرة. كانت الغرفة بلا أثاث، تحتوي فقط كومةً من

التراب -ما تبقّى من التراب الإفريقيّ الذي كان لا يزال في الحقائب عند وصولهم إلى البلد الجديد. تضع له زوجته صينيّة الطعام أمام بابه ثلاث مرّات في اليوم. في الليل، كان ينتهز فرصة كون الجميع نياماً ليخرج إلى بيت الرّاحة. وقد يقوم بنزهات ليليّة بمفرده، أو بالأحرى كانوا يعتقدون ذلك لأنّهم يجدون، عند الاستيقاظ صباحاً، آثاراً مبلّلةً على أرضيّة الشقّة.

في النهاية، لم تعد ميرندا قادرة على تحمّل هذا الوضع، فغادرت ذات مساء، ربّما بفكرة أن تعود كما أتوا، فالبلد الجديد بدا كأنّه طريق مسدود. بعد مغادرتها بوقت قصير، أوقفتها الشرطة عدّة مرّات بسبب النشل والسرقة من رفوف المتاجر المفتوحة. وعلى هذا النحو بدأت تنقّلاتها من مؤسّسة إلى أخرى.

هي هاربة حالياً، ورغم أنّ آغنيس تستشيط غضباً، لم يكن بنيّتها الاعتراف بالهزيمة طالما أنّ الشرطة لم تبذل ما يكفي من الجهد لإيجادها وإعادتها إليها.

كانت صورة ميرندا معلّقة على الجدار. شعرها مصفّف بفنّ، على شكل ضفائر مشدودة تتّخذ تكوين قحف رأسها.

- إذا تمعّنا جيّداً رأينا أنها جدلت كلمة «shit» (خـ...) على صدغها الأيسر، قالت آغنيس.

حدّقت؛ كانت محقّة بالفعل.

كان في هذه المؤسّسة، التي هي بمثابة مأوى، والتي كانت مصدر دخل آغنيس كلارستروم ومهمّتها المصيريّة في الوقت عينه، فتاة أخرى. هي أصغر الفتيات الثلاث، لم يتجاوز عمرها العام الرابع عشر، مخلوقة هزيلة، تشبه حيواناً بريّاً حديث الاصطياد. لم تكن آغنيس تعرف عنها شيئاً أو

تكاد، كما أخبرتني. بدت خارجة للتوّ من تلك الحكاية القديمة، التي تروي قصّة طفلة ظهرت في أحد الأيّام في الساحة العموميّة ناسيةً من تكون ومن أين أتت.

في آخر الليل، قبل عامين، وجدها موظف من محطّة سكوفده وهو يستعدّ للإغلاق، جالسةً على المقعد. طلب منها أن تنصرف، ولكن بدا أنّها لم تفهم، مكتفيّةً بالإشارة وهي تعرض له مزقة ورق مكتوباً عليها: «قطار ذاهب إلى كارلسبورغ». تساءل في نفسه، أيّهما المجنون، فرحلة القطار بين سكوفده وكارلسبورغ كانت متوقّفة منذ خمسة عشر عاماً على الأقلّ.

بعد بضعة أيّام، كانت تحتلّ أولى صفحات الجرائد تحت اسم «طفلة محطّة سكوفده». لم يتعرّف عليها أحد، مع أنّ الصورة كانت معلّقة في كلّ أمكنة البلدة. بلا اسم. ورغم محاولات الأطبّاء النفسيّين الذين فحصوها والمترجمين المتمكّنين من أندر اللغات، لم ينجحوا في دفعها على التكلّم، أو تحديد البلد الذي قدمت منه. كان الرابط الوحيد مع ماضيها رسالة مُلْغَزة مكتوبة على مزقة ورق: «قطار إلى كارلسبورغ». أصبحت مدينة سكوفده الصغيرة، التي تقع غربيّ بحيرة فاتيرن، في حالة من الغليان، دون نتيجة: لم يعرفها أحد، ولا لماذا كانت في ذلك المساء تنتظر القطار المتوقّف منذ خمسة عشر عاماً بالذات. أخيراً دعت إحدى الجرائد قرّاءها للتصويت، فاختار لها معظمهم اسم «عايدة». ومُنحت الجنسيّة السّويديّة، وقدّر الأطباء عمرها باثني عشر عاماً، أو ثلاثة عشر على الأكثر، وأعطيت رقم تأمين صحّي. وبسبب شعرها الأسود وبشرتها السمراء، افترضوا أنّها من أصول شرق-أوسطيّة.

كانت عايدة مستمرّةً في صمتها. طوال عامين، لم تنبس بكلمة. ولم يطرأ

أيّ تغيّر إلّا بعدما يئس الجميع ودخلت آغنيس كلارستروم في الحكاية. ففي صباح أحد الأيّام نزلت عايدة كعادتها لتجلس إلى طاولة الفطور. كانت آغنيس، التي لم تيأس يوماً من مخاطبتها، تكلّمها دون توقّف، وكان ذلك جزءاً من برنامجها في محاولة فتح الأقفال داخل عايدة، إذا جاز التعبير. فَسَألتْها، كالعادة، ماذا تأكل.

- حبوب.

- دون غلطة وتقريباً بلا لكنة. بعد ذلك بدأت عايدة بالتكلّم. ومرّة أخرى التفّ حولها الأطبّاء النفسيّون. وأعلنوا أنّها على الأرجح تعلّمت اللغة وهي تستمع لمن حاولوا دفعها إلى التكلّم، لأنّها كانت تفهم كمّاً كبيراً من مصطلحات علم النفس والطبّ التي لم تكن مفردات عاديّة لمن في سنّها.

بدأت عايدة بالتكلّم، لكن لم يكن لديها ما تقوله عن هويّتها ولا عن السبب الذي أرادت من أجله الذهاب إلى كارلسبورغ. وحين كانت تُسأل عن اسمها الحقيقيّ، كانت تجيب كما هو متوقّع:

- اسمي عايدة.

وألفت نفسها مرّة أخرى في الصفحة الأولى من الجرائد. ولم تَعدُم أصوات تتمتم، في زوايا معتمة، تتّهمها بأنّها خدعت الجميع؛ وكلّ هذه القصّة لا تتعدى ذرّ الرماد في العيون، لكي تذيب أيّة مقاومة وتكون مقبولة من المجتمع السّويديّ دون كفاح. ولكنّ لآغنيس كلارستروم تفسيراً مختلفاً كلّياً. فمنذ أوّل لقاء جمعهما، لم ترفع عايدة نظرها عن جدعة آغنيس. كما لو أنّها كانت تمنحها نقطة رسوّ، كما لو أنّها قد سبحت لزمن طويل في مياه عميقة وقد وصلت أخيراً إلى مرتفع رمليّ تستطيع الوقوف

عليه. قد تمثّل الذراع المبتورة لآغنيس أماناً لعايدة، التي ربّما شهدت حالات بتر كثيرة. كانت تعدّ من ينفّذها أعداءها، ومن كانوا يخضعون لهذا البتر هم مَن كانت تشعر معهم بالأمان.

إنّ بَكَم عايدة، حسب آغنيس، قد سبّبه أنّها رأت ما لا ينبغي أن يراه أحد، لا سيّما طفل صغير.

لم تتكلّم عايدة قطّ عن حياتها السابقة. قد يشعر من يراها بأنّها تتحرّر شيئاً فشيئاً من آخر آثار تجارب مروّعة، ولاحقاً ستتمكّن، رويداً رويداً، من بدء رحلة صوب حياة جديدة تستحقّ أن تُعاش.

أُولاء هنّ الفتيات اللّواتي من خلالهنّ تتدبّر آغنيس كلارستروم أمر مؤسّستها الصغيرة، تساعدها منظّمات مختلفة، ترغب كثيرات منها في فتح أبوابها لفتيات أخريات يتسكّعن في مناطق المجتمع الأكثر هامشيّة. لكنّها كانت ترفض، لأنّها لن تستطيع توفير الأمان والرعاية الكافية لأيّ فتاة إنْ هيَ وسّعت نشاطها. غالباً ما كانت الفتيات المقيمات عندها يهربن، ولكن دائماً أو غالباً كنّ يرجعن. ويقمن عندها لزمن طويل. وحين يغادرن في النهاية حقّاً، يكنّ قد عثرن على حياة جديدة يمضين إليها. لم تكن آغنيس تستقبل أكثر من ثلاث مراهقات في المنزل.

- بإمكاني أن يكون لديّ ألف لو أردت، قالت لي. ألف فتاة مهملة، غاضبة، تكره وحدتها وذلك الإحساس بأنّها غير مرحّب بها في المكان الذي يُفترَضُ أن تعيش فيه. فتياتي عرفن في وقت مبكر جدّاً أنّ من لا يملك مالاً لا يستحق غير الازدراء. فتياتي يجرحن أنفسهنّ عن قصد، ويهجمن على مجهولين بالسكاكين، ولكن في

عمق ذاتهن يصرخن من ألم لا يفهمن منه شيئاً.

- كيف توصّلت لأن تفعلي هذا؟

أظهرت جدعتها.

- كنت سبّاحة، ربّما تذْكر، لا بدّ أنّ هذا مذكور في ملفّي. لم يكن ذلك هواية، كان من الممكن أن أحقّق نجاحاً في السباحة، نجاحاً حقيقيّاً. وأنال ميداليات. بوسعي القول دون مرارة إنّ قوّتي لم تكن في ضربات قدميّ، وإنما في ذراعيّ.

دخل المكتب شابّ يربط شعره.

- سبق أن قلت لك أن تطرق الباب! اخرجْ وعاودِ الدخول ثانيةً!

بدا على الشابّ حرج شديد. عاود الخروج، ثمّ طرق الباب ودخل من جديد.

- هكذا تقريباً. كان ينبغي أن تنتظر حتى آذَنَ لك. ماذا تريد؟

- عايدة غاضبة. تهدّد الجميع وأنا بالأخصّ، هدّدت بخنقِ سيّما.

- ماذا يحصل؟

- لا أعرف. قد تكون ضجرة، لا أكثر.

- عليها أن تتعلّم كيف تضجر. أتركها لشأنها.

- تريد أن تكلّمك.

- أخبرها أنّي قادمة.

- تريد أن تكلّمك الآن.

- أخبرها أنّي سآتي بعد قليل.

خرج الشابّ.

- ليس صالحاً لشيء، علّقت مبتسمةً. أعتقد أنّه يحتاج إلى أن توضع

له حدود صارمة. من الجيّد أنّه لا يشعر بالإهانة من توبيخاتي. في أسوأ الحالات، أستطيع أن أحتجّ بذراعي. أرسلته إليّ مؤسّسة للمساعدة على العمل. هو يحلم بأن يتمّ اختياره ليشارك في إحدى سلاسل البرنامج التلفزيونيّ الذي ينام فيه الجميع مع الجميع أمام الكاميرات. إذا لم يفلح، يتمنّى أن يكون مقدّم برامج. إلّا أنّ عمله البسيط في مساعدتي وسط الفتيات شديد المشقّة عليه. لا أعتقد أنّ ماتس كارلسون سيحقّق نجاحاً مبهراً في مجال الإعلام.

- تتهكّمين؟

- لا إطلاقاً. أنا أحبّ فتياتي، وحتّى ماتس كارلسون. ولكن لن أساعده إذا شجّعت استيهاماته أو تركته يعتقد أنّه مفيد هنا. أنا أعطية فقط فرصة لأن يعي ذاته -فقد يجد طريقه. وبأحسن الأحوال قد أكون مخطئةً. فقد يقصّ شعره ذات يوم ويحاول شيئاً جدّياً.

وقَفَت واصطحبتني لغرفة أخرى وقالت إنّها ستعود فوراً. لا يزال صوت موسيقى الروك يتردّد عالياً في الأنحاء؛ كان يبدو قادماً من الطابق العُلويّ.

اقتربت من النافذة. كان الثلج يقطر عن الأسطح، والعصافير الصغيرة تتنقل مثل ظلال سريعة على غصون الشجر.

جفلت حين رأيت سيُما، كانت قد تسلّلت وراء ظهري على رؤوس أصابعها. لم يكن السيف معها هذه المرّة. أخذت مكانها على الأريكة وتربّعت. توجّسها لا يهدأ لحظة.

- لماذا كنت تراقبني بمنظارك؟

- لم أكن أنظر إليك.

- لكنّي رأيتك. أيّها الغلماني[1]!

- ماذا تقصدين؟

- أعرف أمثالك من الرجال، وأعرف كيف يكونون.

- أتيت لأقابل آغنيس.

- لماذا؟

- هذه قصّة بيننا.

- هل هي تثير شهوتك؟

فاجأني ردّها كلّياً. احمرَّ وَجهِي خجلاً.

- أعتقد أنّ الحديث انتهى، قلت.

- أيّ حديث؟ أجب عن سؤالي!

- لا يوجد ما يجاب عليه.

لم تصرّ سيْما. أدارت رأسها، وبدا أنّها أعرضت عن مخاطبتي. شعرت بالإهانة. أن أُتّهم بالغلمانيّة، هذا يفوق كلّ توقّعاتي. استرقت النظر إليها. كانت تقرض أظافرها بجنون. شعرها الذي يتراوح بين الأصهب والأسود، كان لُبدة شعر كثيفة ومنفوشة كما لو أنّها مشّطتها بطريقة غاضبة. خمّنت وجود فتاة صغيرة جدّاً وراء هذه الواجهة القاسية، داخل ثياب سوداء جدّاً وفضفاضة.

عادت آغنيس. نهضت سيْما على الفور واختفت. تراجع الحيوان ما إن ظهر المروّض، خطر لي. جلست آغنيس في مكان سيْما، وتربّعت بذات الطريقة، كما لو أنّهما تقلّدان إحداهما الأخرى.

---

(1) غلماني (Pédophile) من الغلمانية (Pédophilie) وهي اشتهاء الأطفال والوَلَعُ بهم، وهو من الانحرافات الجنسية الشهيرة.

- عايدة فتاة غِرّة تغرق فجأةً، قالت.

- ما الذي حصل؟

- لا شيء. لقد عاودها من جديد إحساسها بأنّها ليست أكثر من كومة كبيرة من اللّاشيء، كما تدعو نفسها. فتاة خاسرة مثل أخريات كثيرات. إذا تأسّس اليوم حزب الخاسرين في السّويد، فبإمكان الكثيرين الوصول إلى مراكز مرموقة فيه، تاركين للناس التنعّم بخبراتهم. بلغتُ ثلاثة وثلاثين عاماً. وأنت؟

- الضِّعف.

- ستّة وستون، أعوام كثيرة. ولكن مع أنّ ثلاثة وثلاثين قليلة، إلّا أنّها تكفي ليعلم المرء أنّ التوتّرات في البلد لم تصل يوماً إلى هذه الحدّة. من الغريب ألّا يبدو أنّ أحداً قد لاحظ ذلك، على الأقلّ ممن يُدفع لهم ليتحسّسوا تغيّر الأوضاع. ثمّة جدار غير مرئيّ يفصل أفراد هذا المجتمع. وهو لا يتوقّف عن التضخّم، يفرّق النّاس، ويحفر المسافات، بعكس ما يبدو للوهلة الأولى. استقلّ مترو ستوكهولم واذهب إلى نهاية الخطّ، وقم بجولة صغيرة في الضاحية. صحيح أنّ المسافة ليست بعيدة بالكيلومترات إلّا أنّها هائلة في الواقع، ومن الهراء القول إنّ هذا عالماً آخر. إنّه هو ذات العالم. غير أنّ كلّ محطّة تبعدك عن مركز المدينة هي جدار إضافيّ. وفي النهاية ستجد نفسك وقد وصلت إلى الضاحية الحقيقيّة، وهناك بإمكانك أن تختار بين رؤية الحقيقة أو عدمها.

- أيّة حقيقة؟

- ما تظنّه الضاحية الأبعد ليس في الواقع سوى المركز الذي تعاد

فيه حاليّاً ولادة السّويد من جديد. البلد يدور ببطء من الداخل والخارج، في الأماكن القريبة والبعيدة، وبالتدريج يغيّر المركز والهامش مكانهما. فتياتي يعشن في أرضٍ حيادٍ لا يوجد فيها أمامهنّ ولا وراءهنّ أيّ أفق، أو أيّة رؤية، لا أحد يريدهنّ. فائضات عن الحاجة، كيف أستطيع القول؟... منبوذات مُسْبَقاً. أليس غريباً أنّ الشيء الوحيد المتأكّدات منه هو أنهنّ لا يساوين شيئاً. كأنّ وجهاً ساخراً ينتظرهنّ كلّ صباح عند الاستيقاظ. ليس لديهنّ رغبة لأن يستيقظن! لا يرغبن في النهوض! تفشّت المرارة في أنفسهنّ منذ نعومة أظفارهنّ.

- هل حقّاً الأمر مرعب إلى هذا الحدّ؟

- لا بل هو أكثر سوءاً.

- أنا أعيش على جزيرة. هناك لا يوجد ضاحية، بل مجرّد صخور. وليس ثمّة مطلقاً فتاة تعيسة تستطيع بأيّة لحظة أن تهجم حاملةً سيف.

- لفرط ما نؤذي أطفالنا لا يجدون في النهاية طريقة أخرى للتعبير بغير العنف. كان هذا الأمر في ما مضى محصوراً بالفتيان. أمّا اليوم، فلدينا عصابات من الفتيات لا يتردّدن عن استخدام أساليب تقشعرّ لها الأبدان. هذه أكبر الهزائم، أن تُجَرّ الفتيات، بسبب اليأس، إلى تصديق أنّ خلاصهنّ يقضي بالتصرّف كأسوأ من عرفنه من الفتيان.

- سيّما نعتتني بالغلمانيّ.

- تنعتني بالعاهرة متى خطرَ في بالها. لكنّ الأسوأ هو ما تقوله عن

نفسها. أنا لا أجرؤ حتّى على أن أفكّر فيه.

- ماذا تقول؟

- تقول إنّها ميتة. قلبها يئنّ في الداخل ويعوي. تكتب قصائد غريبة تضعها على طاولتي دون أن تنبس ببنت شفة، أو تدسّها في جيوبي. من الوارد جدّاً أن تموت خلال سنوات قليلة، منتحرةً، أو أنّ أحدهم سيتكفّل بذلك. أو قد تتعرّض لحادث، وجسدها مليء بالمخدّرات وكلّ صنوف الأوساخ. هذه هي النهاية المرجّحة لقصّتها الحزينة. ولكن يمكنها أن تنجو أيضاً. في داخلها قوّة، شريطة التخلّص ممّا يطاردها، ذلك اليقين بأنّها لا تساوي شيئاً. ولكي أنجح في ذلك، يجب أن أدخل الأوكسجين إلى كيانها الصغير، الذي لا يزال يحمل دماً ملوّثاً ومشاعر لا تقلّ عنه سوءاً.

نهضت آغنيس.

- يجب أن أتّصل بالشرطة، علّني أستطيع إقناعهم ببذل مزيد من الجهد لإيجاد ميرندا. قم بجولة في هذه الأثناء، ويمكن أن نكمل حديثنا فيما بعد.

خرجتُ. كانت سيلما وراء ستارة في الطابق الأوّل، مختبئةً تراقب أدنى تحرّكاتي. وجدت بضع قطط صغيرة في الحظيرة تتسلّق بالالات العلف. كان ثمّة خيول وبقر أيضاً. بشكل مبهم تعرّفت على روائح طفولتي الصغيرة، حين كان جدّاي لا يزالان يمتلكان حيوانات على الجزيرة. داعبت أنوف الخيل وخواصر البقر. يبدو أنّ آغنيس كلارستروم تمسك بزمام حياتها باقتدار. ماذا كنت سأفعل لو كنت مكانها، وعرّضني جرّاح لعنف كهذا؟ هل كنت سينتهي بي الأمر إلى أن أكون لا أكثر من سكّير، يجترّ مرارته على

مقعد حتّى آخِر أيّامه؟ أم كنت سأمتلك القوّة لأتصرّف؟ ليس لديّ أدنى فكرة.

وصل ماتس كارلسون وبدأ يوزع العلف على مَرابِط الحيوانات. كان يعمل ببطء كبير، كما لو أنّه مرغم على القيام بعمل منفّر.

- آه نعم، قال بغتة. تريد منك آغنيس أن تذهب لرؤيتها، نسيت أن أخبرك.

سلكت طريق البيت. لم تعد سيْما على النافذة. كان الهواء يهبّ، والثلج ينهمر بندف خفيفة. كنت أشعر بالتعب والبرد. كانت آغنيس بانتظاري عند المدخل.

- سيْما غادرت، أخبرتني.

- لكنّي رأيتها منذ لحظة.

- ذلك كان منذ لحظة. لكنّها الآن غادرت، بسيّارتك.

تلمّست جيوبي؛ كانت مفاتيحي في داخلها. كنت واثقاً من أنّي أقفلت الأبواب. مع العمر نجد أنفسنا نجرّ عدد متزايداً من المفاتيح، حتّى حين نعيش بمفردنا في جزيرة خاوية.

- ألا تصدّقني، قالت آغنيس، لقد رأيت السيّارة تقلع. وسترة سيْما قد اختفت. لديها سترة خاصة تلبسها دوماً عندما تهرب. ربّما تظنُّ أنّها تجعلها بمأمن، أو غير مرئيّة، أو ما لست أعلم. أخذت السيف أيضاً. الطفلة الشقيّة!

- لكنّ مفتاح السيّارة في جيبي!

- في الماضي كان لدي سيْما صاحب يدعى فيليبو، إيطاليّ طيّب علّمها كلّ ما يخصّ فنّ فتح السيّارات وكيفيّة تشغيلها. كان دوماً يختار

السيّارات المركونة أمام المسابح أو صالات اللعب غير القانونيّة. بذلك يتأكّد من أنّ أصحابها يلزمهم بعض الوقت ليعودوا. المبتدئون فقط يسرقون سيّارات رُكنت في المواقف. فضلاً عن ذلك، المسابح والصالات موجودة داخل المدينة، بعكس موقف الآماد الطويلة في مطار أرلاندا. لم يكن فيليبو يضيّع وقته في المواصلات.

- كيف تعرفين كلّ هذا؟

- أخبرتني به سيْما. إنّها تثق بي.

- آه حقّاً؟ وهل الهروب من بيتك بسيّارتي علامة على الثقة؟

- نعَم، يمكننا أن نرى الأمر كذلك. لديها ثقة في أنّنا سنتفهّم فعلتها.

- أريد استعادة سيّارتي!

- سيْما متعوّدة على إنهاك المحرّكات. لقد قمتَ بمخاطرة في قدومك إلى هنا، رغم أنّ من المؤكّد أنّك لم تكن تعلم.

- وأنا قادم، صادفت رجلاً يتنزّه مع كلبه. قال شيئاً من قبيل «الفتيات الملعونات»، وهو يشير إلى فتياتك.

- وأنا أقول ذات الشيء أيضاً. ماذا كان نوع الكلب؟

- لا أعرف من أيّ نوع، إلّا أنّ لونه بنيّ وأشعث.

- الكسندر برون إذن من صادفته. رجل مخادع كان موظّفاً في صندوق التوفير، وكان يستغلّ ذلك ليحتال على النّاس. كان يزوّر إمضاءات، ويدّعي معرفة بكلّ ما يخصّ حركة الأسهم وبكلّ ما يتعلّق بذلك. باع أسهماً بالجملة حتّى انهار كلّ شيء. ورغم ما فعله لم يدخل السجن ويعيش الآن حياة مرفّهة من وراء الأموال التي اختلسها، ولم تتمكّن الشرطة من العثور عليها. يكرهني ويكره فتياتي.

عدنا إلى مكتبها واتّصلت بالشرطة. سمعتُ بغضب متزايد ما يشبه دردشةً هاتفيّةً وديّة مع شرطيّ لم يبدُ عليه أنّه في عجلة من أمره للّحاق بالهاربة المشغولة بالإجهاز على سيّارتي.

أغلقتِ السمّاعة.

- وإذن؟ قلت.

- لا شيء.

- على الأرجح يقومون بعمل شيء ما؟

- ليس لديهم الكفاية من الموظّفين ليكلّفوا أحدهم بقضيّة سيارتك. سيفرغ الخزّان في النهاية، وستتركها سيّما في مكانها لتستقلّ قطاراً أو باصاً. أو هناك احتمال بأن تسرق سيّارة أخرى. في إحدى المرّات عادت بعربة لها ثلاث عجلات. عاجلاً أم آجلاً، في النهاية ستعود. أغلب الفارّين ليس لديهم مكان يقصدونه حين يرفعون أشرعتهم. ألم يحصل هذا معك يوماً؟

الجوّاب الوحيد والنزيه الذي كان يمكن أن يقال إنّي كنت هارباً منذ أكثر من اثني عشر عاماً. لكنّي لم أقله، ولم أقل شيئاً أبداً.

تناولنا العشاء نحو السادسة مساءً. تحلّقنا حول الطاولة، أنا وآغنيس وعايدة وماتس كارلسون. وقد أحضرت عايدة طبقين للفارّتين أيضاً.

كان على العشاء سمك عديم الطعم مطهوّ بالفرن. أكلت بسرعة زائدة لغضبي بخصوص سيّارتي. كان يبدو على عايدة الانفعال لاختفاء سيّما؛ كانت تتكلّم دون توقّف، وكان ماتس كارلسون يستمع إليها ويشجّعها بتعليقاته. فيما تأكل آغنيس بصمت.

بعد العشاء، وفيما كانت عايدة وماتس كارلسون يرفعان المائدة

ويغسلان الأطباق، خرجتُ وآغنيس في جولة.

طلبت منها الغفران. وشرحت لها بقدر ما استطيع، ومع أكثر التفاصيل الممكنة، الخطأ الذي حدث في ذلك اليوم المشؤوم، قبل اثني عشر عاماً. كنت أتكلّم ببطء حتّى لا يفوتني أيّ تفصيل مهمّ. ولكن في الواقع كان بإمكاني أيضاً أن أوصل ما أردته ببضع كلمات. حدث خطأ ما كان له أن يحدث. مثل ربّان ينبغي عليه تفقّد مركبته قبل الإقلاع، كان يجب عليّ القيام بواجبي والتأكّد بنفسي من أنّ الذراع المعنيّة هي التي هُيِّئَت للعمليّة. لم أقم بذلك.

كنّا في الحظيرة، وجهاً لوجه، يجلس كلّ منّا على بالة علف. كانت ترمقني دون أن يرفّ لها جفن. حين انتهيت، نهضت وأخذت تطعم الخيول من كيس الجزر الذي أحضرته معها. ثمّ عادت إلى الجلوس بجانبي.

- لقد لعنتك. لن تعرف أبداً ماذا يعني أن يُجبر شخص يعشق السباحة أكثر من أيّ شيء على التخلّي عنها. توقّعت أنّني، في أحد الأيّام، سأبحث عنك وأقطع يدك بسكين حادّة. أنّي سألفّك بسلك شائك وأقذفك في البحر. لكن الآن، وأنا أراك وأسمعك، تلاشى كلّ هذا. قد يكون الحقد محرِّكاً لبعض الوقت، لا أكثر. قد يعطيك شيئاً من القوّة الوهميّة، إلّا أنّه يبقى قبل أيّ شيء آخر طفيليّاً ينهشك. الفتيات الآن هنّ أكثر ما أهتمّ له.

شدّت على يدي بقوّة.

- هيا، دعنا ننسى، قالت. وإلّا فسيسقط الأمر في الميلودراما ولا أحبّذ ذلك. معروف أنّ الأقطع يكون مفرط العواطف...

عدنا إلى البيت. كانت الموسيقى تتسلّل من غرفة عايدة، ولا يزال الصوت بذات الارتفاع. غيتارات حادّة، وأصوات باص تنبض وترجّ البيت بأكمله. رنّ جوال آغنيس في جيبها. فتحت الخطّ، سمعتها تقول بضع كلمات، ثمّ أغلقتْ.

- إنها سيْما. تبلغك تحيّاتها.

- تبلغني تحيّاتها؟! أين هي؟

- لم تخبرني. أرادت فقط أن تتّصل عايدة بها.

- لم أسمعك تطلبين منها العودة على وجه السرعة مع سيّارتي.

- أنا أصغيت. هي من كان يتكلّم.

صعدت آغنيس الدرج. سمعتها تصرخ ليطغى صوتها على الموسيقى. كنت للتوّ قد التقيت بآغنيس كلارستروم من جديد ولم تمطرني بالشتائم والإهانات، لم تسحقني بالملامات، لا بل لم ترفع صوتها وهي تخبرني عن رغبات القتل التي شعرت بها نحوي.

لم تكن تنقصني مواضيع أفكّر فيها. ثلاث نساء ظهرن في حياتي خلال أسابيع قليلة. آرييت، ثمّ لويز، وأخيراً آغنيس. وربّما كان ينبغي أن أضيف لهنّ سيْما وميرندا وعايدة.

عادت آغنيس، وشربنا القهوة. لم يظهر ماتس كارلسون، وموسيقى الروك كانت لا تزال ترتطم بالجدران.

رنّ جرس الباب. حين فتحت آغنيس، رأيت فتاة يحيط بها شرطيّان: خمّنت أنّها ميرندا على الأرجح. كانا يمسكانها من ذراعيها كما لو أنّها خطرة. وجهها من أجمل الوجوه التي رأيتها يوماً. مريم المجدليّة محاطة بجنديّين رومانيّين.

كانت ميرندا صامتة. ولكن من حديث آغنيس والشرطيين فهمت على ما أظنّ أنّ مزارعاً قد ألقى القبض عليها وهي تحاول أن تسرق عجلاً. آغنيس كانت تعترض بعنف: لماذا بحقّ الجحيم سيخطر لميرندا هذه الفكرة السخيفة بأن تسرق عجلاً؟ ارتفعت وتيرة الصوت، كان يبدو على الشرطيّين الإنهاك، لم يكن أحد يسمع الآخر، وبقيت ميرندا واقفة، وجامدة.

غادرت الشرطة دون أن تجلو القضية. طرحت آغنيس عدّة أسئلة على ميرندا، بنبرة عاتبة. الفتاة ذات الوجه الجميل أجابت بصوت خفيض لدرجة أنّي لم أفهم ما كانت تقوله.

توارت في الدرج ثمّ صمتت الموسيقى. جلست آغنيس على الكنبة، وهي تتمعّن بأظافر يديها.

- ميرندا هي الفتاة التي تمنّيت أن تكون ابنتي. باعتقادي، بين جميع الفتيات اللواتي أتينني ورحلن، هي التي ستتدبّر أمرها بالشكل الأفضل، شريطة أن تجد ذلك الأفق الذي تحمله في داخلها.

أرتني غرفة خلف المطبخ وقالت إنّ بوسعي النوم هناك، وإنّها كان ينبغي أن تتركني لأنّ ثمّة عملاً في المكتب ينتظرها. ما إن استلقيت على السرير حتّى تخيّلت سيّارتي والدخان يتصاعد من محرّكها، وسيّما تقودها وإلى جانبها على المقعد يكمن السيف بنصله القاطع. ما الذي كان يمكن أن يحدث لو كان جدّاي على قيد الحياة، وحاولت أن أخبرهما بما يحصل؟ لن يصدّقاني أبداً. لن يفهما ما يجري. ما الذي كان سيقوله النادل أبي؟ والبكّاءة أمي؟ أطفأت الضوء وبقيت في الظلمة، محاطاً بأصوات تهمس وتقول لي إنّ الاثني عشر عاماً التي قضيتها على الجزيرة جعلتني أفقد

التواصل مع العالم، مع أنّه كان عالمي الذي كنت أعيش فيه.

على الأرجح غفوت. إحساس بالبرودة على رقبتي أعادني من النوم. كان متزامناً مع إضاءة مصباح الطاولة الجانبيّة. فتحت عينيّ فرأيت سيْما، واقفة، وتضع نصل سيفها على حنجرتي. لا أعرف كم من الوقت مرّ دون أن أتنفّس حتّى قرّرتْ هي أن تزيح السيف عن جلدي.

- أعجبتني سيّارتك. رغم أنّها قديمة، وبطيئة. إلا أنّها أعجبتني.

نهضت واتّخذت وضع الجلوس بقدر الإمكان. كانت سيْما قد وضعت السيف على حافة النافذة.

- هي في الخارج، تابعتْ. كلّ شيء على ما يرام، لم تمسّ بسوء.

- لا أحبّ أن يأخذ أحد سيّارتي دون إذني.

كانت تجلس على الأرض، وظهرها على مِشعاع التدفئة.

- كلّمني عن جزيرتك.

- ولماذا سأخبرك؟ ومن أين تعرفين أنّي أعيش في جزيرة؟

- أعرف ما أعرف.

- هي بعيدة في البحر، وتكون في هذا الوقت محاطة بالجليد. في الخريف، تهبّ أحياناً عواصف تلقي بالمراكب غير المربوطة جيّداً إلى البرّ.

- تسكن هناك وحدك حقّاً؟

- لدي قطّة وكلبة.

- ألا تخاف؟

- نادراً ما تهجم عليّ الصخور والأشجار بسيوفها.

بقيت صامتة. ثمّ نهضت وأخذت سلاحها.

- ربّما أزورك في أحد الأيّام.

- أشكّ في ذلك.

ابتسمت.

- أنا أيضاً. ولكنّي غالباً ما أخطئ.

حاولت العودة إلى النوم. وفي الخامسة صباحاً تخلّيت عن الفكرة، وارتديت ملابسي وتركت كلمة لآغنيس أخبرها بأنّي ذاهب. مرّرت الورقة تحت باب مكتبها، الذي كان مغلقاً بالمفتاح.

كان سكّان البيت نياماً حين ذهبت.

كانت تخرج من السيّارة رائحة حرْق. حين وقفت في محطّة تفتح طوال الليل لأملأ وقوداً، أضفت زيتاً أيضاً. وصلت الميناء قبل الفجر بقليل.

صعدت على الرصيف. كان الهواء منعشاً. شممت رائحة البحر المالحة بالرغم من سماكة الجليد. كانت مصابيح متباعدة تضيء الميناء، حيث تحتكّ بضعة مراكب صيد وحيدة بأُطُر العجلات الموضوعة للحماية.

كنت أنتظر أن يبزغ ضوء الفجر لأبدأ اجتياز الجليد. كيف كنت سأتدبّر حياتي بعد كلّ ما حصل، لم يكن لديّ أدنى فكرة.

هناك، بغتةً، على رصيف الميناء، انفجرتُ بالبكاء. كان كلّ باب من أبوابي الداخليّة يصطفق في عرض الريح، هذه الريح التي كان يبدو أنّها لا تتوقّف عن الاشتداد.

البحر

(1)

كان علينا الانتظار إلى أوّل أبريل حتّى بدأ الجليد بالتشقّق أخيراً. منذ أقمت على هذه الجزيرة، لم يتأخّر قطُّ إلى هذا الحدّ، فإلى نهاية مارس نستطيع الوصول إلى اليابسة سيراً على الأقدام.

كان يانْسون يأتي كلّ ثلاثة أيّام على متن حوّامته المائيّة، ليسلّمني تقريره عن ذوبان الثلج. كان يدّعي أنّه يذكر شتاءً في الستّينيّات استمرّ ذات المدّة، وقد ظهرت آنذاك جدران جليديّة عائمة بالقرب من نهاية الجزر الصغيرة قبل أعالي البحر.

كان شتاءً طويلاً.

حين كنت أتسلّق الصخرة وراء البيت لأتأمّل الأفق، كان بياض الطبيعة يُبهِر. أحياناً كنت أعلّق على رقبتي حذاء المسامير القديم الذي يعود إلى جدّي، وآخذ عصا التزلّج وأمضي راجلاً إلى الجزر الصغيرة، على مقربة من المياه الضّحلة حيث كان جدّي في الماضي، وأبوه قبلَه، يصطادان كميّات عجيبة من أسماك الرنكة التي لا يجرؤ اليوم أحد على أن يحلم بها. كنت أتنزّه على أجزاء الصخور الجرداء، وأتذكّر طفولتي، يوم كنت أجيء إليها مجدّفاً. كنت أعثر أحياناً في تجاويفها على بقايا حطامات مدهشة. مرّةً

وجدت رأس دمية، ومرّة أخرى صندوقاً لا يخترقه الماء يحتوي مجموعة أسطوانات من ذوات 78 دورة. سأل جدّي عنها خبيراً وفهم أنّها كانت أغاني ألمانيّة مشهورةً عن الحرب العالميّة الثانية، التي انتهت عندما كنت صغيراً. لا أعرف أين أصبحت هذه الأسطوانات. وعثرت أيضاً في إحدى الجزر الصغيرة على سجلّ ليوميّات سفينة بمقاس كبير ألقاه قبطانها في البحر، من الغضب أو اليأس أو لسبب غامض. كانت سفينته مختصّة بالشحن تنقل الأخشاب من المناشر ونقاط التخزين في النورلند إلى إيرلندا، التي تحتاج إلى هذا الخشب في صناعة بيوتها. حمولة السفينة ثلاثة آلاف طنّ وكان اسمها **فلانَغان**. لا أحد يعلم لأيّ سبب كان سجلّ هذه السفينة في الماء. ما اضطّر جدي للعودة ليسأل خبيره وهو أستاذ ثانويّة متقاعد كان يمضي الصيف على جزيرة لونو، في الكوخ الذي تركه مرشد الشواطئ غروندستروم. ترجم الأستاذ الجمل الإنكليزيّة، دون أن يكتشف أيّ معلومة ملفتة للانتباه في تاريخ اليوم الذي رُميَ فيه السجلّ من أعلى الباخرة. ما زلت أتذكّره: في 9 مايو 1947. آخر معلومة مدوّنة كانت بخصوص ضرورة «تشحيم أسلاك الرّفع على عجل». بعد ذلك، لا شيء. سجلّ الرحلة غير المكتملة أصبح في الماء. كانت السفينة محمّلة وذاهبة من كيوبيكنبورغ، قاصدةً بلفاست البعيدة. كان الطقس هادئاً، والبحر جميلاً، وتشير إحدى المعلومات المؤرّخة إلى هواء جنوبيّ-شرقيّ بسرعة متر في الثانية.

خلال ذلك الشّتاء الطويل فكّرت مراراً في سجلّ القبطان ذاك، وصفحاته التي لن تمتلئ أبداً. حياتي بعد الكارثة كانت تشبه تلك الصفحات. كأنّي رميت سجلّي في البحر وواصلت التنقّل بين المرافئ

المختلفة دون ترك أثر يدلّ على مروري. لم يكن دفتر يوميّاتي الذي أدوّن به، والذي يتناول بالدّرجة الأولى سيرة عصافير الثرثار الغائبة والأوجاع التي تعاني منها كلبتي وقطّتي، إلّا ليذكرني يوميّاً بالحياة التافهة التي أعيشها. أتكلّم عن العصافير لأؤكّد على وجود الخَواء.

ذلك الشّتاء كان غوصاً في الماضي أيضاً. فجأةً عاد أبواي ليظهرا لي في الأحلام. كنت أستيقظ في اللّيل مع صور مدهشة تدور في الذهن، ذكريات ضائعة منذ زمن طويل، عادت إليّ. كنت أرى أبي جاثياً في حجرة صالوننا الصغير يصفّ الجنود الرّصاصيّين ليعيد تمثيل تحرّكات القوات كما في معركة واترلو أو في نارفا. وأمّي ترنو إليه من كرسيها بحنان عظيم وهو يقوم بذلك، مكتفيةً بالجلوس؛ لعبة الجنود الرّصاصيّين كانت تجري دوماً في صمت.

كان تقدّم الجنود يحقّق سلاماً مؤقّتاً في منزلنا. أحلامي جعلت مخاوف طفولتي تطفو ثانيةً، من الشجارات التي كانت تنفجر بينهما من حين لآخر. أمّي كانت تبكي وكان أبي يضطّر إلى أن يلعن بصوتٍ عالٍ مدير المطعم، الذي كان يسبّب له مضايقات؛ كانت محاولاته لإظهار الغضب مثيرة للشفقة دوماً. لقد عاودتني الأحلام، وحين أحلم أعود ببطء إلى جذوري. كان لديّ إحساس بأنّي أحفر الأرض بمعولٍ باحثاً عن مُلك ضائع. بشكل مبهم، قدّرت أنّ الأمر كان هكذا.

كان ذلك الشّتاء أيضاً، وبعكس كلّ توقّع، حاملاً لكلّ ما هو مستعاد من جديد: آرييت أعطتني ابنة، وآغنيس لم تكن تحقد عليّ.

كان شتاء زاخراً بالرسائل. كنت أكتب وكان ثمّة من يجيبني. أخيراً، لأوّل مرّة منذ اثني عشر عاماً من حياتي على الجزيرة، كانت لزيارات

يانْسون المكرّرة لدرجة الملل معنى. كان لا يزال يعتبرني طبيبه ويطالبني بمعاينات لا تنتهي لمعالجة كلّ أمراضه الوهميّة. لكنّه صار مؤخّراً يُحضر لي بريداً أيضاً، وكان يحْدث أن أمنحه بالمقابل ظرفاً عليه طابع.

أوّل رسالة، كتبتُها يوم وصولي. كنت مجتازاً الجليد، قادماً من المرفأ، في ضوء الصبح الرماديّ. عندئذ بدا على حيوانيَّ الجوّع مع أنّي كنت قد تركت لهما كمية كبيرة من الكروكيت. وبعد أن أطعمتهما، جلست إلى طاولة المطبخ وكتبت لآغنيس:

أشعر بالأسف لأنّي غادرت بهذه السرعة. لعلّه كان انقلاباً كبيراً أن أراك، أنت التي سبّبت لك ألماً فظيعاً إلى هذا الحدّ. تمنّيت أن أقول لك أشياء كثيرة، وربّما كان لديك من جهتك أسئلة لي. الآن عدت إلى الجزيرة. الجليد ما زال يغطي البحر، هو قاسٍ وسميك على الشاطئ. أتمنّى ألّا تعني مغادرتي المتسرّعة نهاية تواصلنا.

لم أبدّل في هذه الرسالة حرفاً. وفي اليوم التالي أعطيتها ليانْسون، الذي لم يبدُ أنّه لاحظ غيابي. لاحظت الفضول ينهشه حول شخصيّة المرسل إليه. لكنّه لم ينبس ببنت شفة. وذلك النهار، بخلاف عادته، لم يكن يتوجّع من شيء.

في المساء بدأت رسالة أخرى، موجّهة هذه المرة إلى آرييت ولويز، الاثنتين معاً، مع أنّ الرسالة السابقة بقيت دون جواب. في النهاية أصبحت هذه الرسالة طويلة جدّاً. وأنا أعيد قراءتها، لاحظت أنّها لم تكن عادلة. لا يحقّ لي إرسال رسالة مشتركة، بما أنّي لا أستطيع إلّا أن أخمّن تخميناً ما تعرفه

الواجدة عن الأخرى، وما طبيعة العلاقة الحقيقيّة بينهما. مزّقت كلّ شيء وعاودت البداية من الصفر. كانت القطّة تغفو على مقعد المطبخ، والكلبة تطلق تنهداتها بجانب الموقد. كنت أحاول أن أعرف، بنظرة، ما إذا كانت تتألّم من قوائمها. على الأرجح لن تبقى على قيد الحياة حتّى الخريف. بالمناسبة، لن تبقى القطّة هي أيضاً.

سألت آرييت عن وضعها. كان سؤالاً غبيّاً بما أنّ الجوّاب بديهيّ: سيّئ، بالطبع. رغم ذلك سألتها. سؤال غير معقول، ولكنّه طبيعيّ. ثمّ تكلّمت عن رحلتنا:

نحن ذهبنا إلى تلك البحيرة. وكنت سأغرق، أنت أنقذتني. الآن فقط، بعد عودتي، أدركت إلى أيّ حدّ كنت قريباً من الموت. دقيقة أخرى في الماء وكان الأمر سيكون منتهياً. لكنّ الغريب، وأنت تسحبينني من البحيرة، هو أنّني شعرت بأنّك تسامحينني.

ما برحتْ ذكرى تلك الحادثة تبعث فيّ القشعريرة. لكنّ ذلك لم يمنعني من الغوص في حفرتي كلّ صباح. فهمت خلال أيام أنّ هذه العادة فقدت ضرورتها. منذ قابلت آرييت ولويز، لم تعد عندي الحاجة لتعريض جسدي للبرد. ومع الوقت أصبحت هذه الحمّامات الصباحيّة أقصر فأقصر.

في مساء اليوم ذاته كتبت للويز. كنت قد عرفت أشياء عن كرافاجّو من موسوعتي القديمة الصادرة في 1909. بدأت رسالتي بتحريف جملة مأخوذة من هذا المؤلّف: «مع الوقت، ولّدت ألوانه القويّة، بالرغم من دُكنتها، واستعادته للطبيعة بجرأة، اهتماماً كبيراً ومشروعاً بأعماله.» مزّقت

الورقة. لم يكن لدي القوّة للادّعاء بأنّ هذا رأيي الشخصيّ. ولم أكن أريد أيضاً أن أكشف للويز أنّي أنهب عبارات من كتاب قديم بنحو قرن، حتّى لو كنت قد حذفت الكلمات العتيقة المهجورة، ليكون لديّ ما أقوله لها.

عدت وبدأت من جديد. حين أعدت قراءة رسالتي، لم تكن طويلة كثيراً:

لقد صفقتُ باب مقطورتك. لم يكن ينبغي عليّ فعل ذلك. لم أستطع السيطرة على ارتباكي. أطلب منك السماح. وآمل أن لا نعيش كغريبين في المستقبل.

لم تكن رسالةً جيّدةً، ورغم ذلك أرسلتها. وبعد ثمانٍ وأربعين ساعةً تأكّدت أنّها استُقبلت على نحو سيّئ، حين رنّ الهاتف في منتصف الليل. نزلت مسرناً إلى المطبخ، وكدت أتعثّر بحيوانيَّ اللذين بدا عليهما القلق، قبل أن أتمكّن من التقاط السمّاعة. كانت لويز تستشيط غضباً. من شدّة صراخها شعرت بألم في طبلة أذني.

- أن يكون بوسعك إرسال مثل هذه الرسائل أفقدني صوابي! فما إن يبدأ الأمر يصبح مزعجاً قليلاً، أو حميميّاً إلى حدّ ما، ماذا تفعل؟ تغلق بابك! هكذا هو الأمر!

أدركت من صوتها أنّها ثملة. كانت الساعة الثالثة صباحاً، حاولت تهدئتها. لم يفعل هذا غير زيادة هياجها. لم أضف شيئاً، تركتها تصبّ جام غضبها عليّ.

إنّها ابنتي، كنت أكرّر لنفسي بصمت. لها أن تقول لي ما لديها. ومن جهة

أخرى كنت أعرف منذ البداية أنّ الرسالة التي سلّمتها ليانْسون سيئة.

لا أعرف كم من الوقت صرختْ في السمّاعة. بغتةً، وسط الجملة، كان ثمّة نقرة/ ديكليك، وكان الحديث منتهياً. أطبقتُ السمّاعة، أخذ الفراغ يطنّ حولي. نهضتُ، فتحت باب الصالون، وأضأت مصباح السقف. كانت قرية النمل قد اتّسعت، أو هكذا كان انطباعي على الأقلّ. ولكن هل تتكاثر النّمال في الشّتاء حقّاً، رغم سباتها؟ لا أعرف لهذا السؤال جواباً، ولا أعرف بماذا أجيب لويز. أتفهّم مشاعرها. لكن هي، هل تتفهّمني؟ عدا ذلك هل يوجد ما يُفهم؟ وهل بوسع المرء أن يشعر بأبوّة تجاه امرأة راشدة لم يتبادر إلى ذهنه يوماً وجودها؟ ومن كنت أنا بالنسبة إليها؟

لم أستطع معاودة النوم في تلك الليلة. سكنني خوف ليس لديّ إزاءه أيّ دفاع. عدت وجلست في المطبخ، متشبّثاً بغطاء الطاولة الأزرق الذي كان يغطّيها منذ أيّام جدّتي. ابتلعني الفراغ والعجز. لويز، بمخالبها، مزّقتني حتّى الأعماق.

خرجت في الفجر. فكّرت أنّه كان من الأفضل لو أنّ آرييت لم تظهر قطُّ على الجليد. كان بإمكاني مواصلة الحياة دون ابنة، ولكانت لويز، بالمقابل، تدبّرت أمرها دون أب.

تدثّرت بمعطف الفرو الذي كان لجدّي وذهبت للجلوس على مقعد الرصيف. الكلبة والقطّة مختفيتان. كان لهما دروبهما الخاصّة؛ آثارهما على الثلج تحمل الدليل. نادراً ما تذهبان معاً. تساءلت إن كان يحدث معهما، هما أيضاً، أن تخفيا نواياهما.

نهضت عن المقعد وجعلتُ أجأر، أمامي مباشرةً، في الضباب. تردّد

الصوت قبل أن يتلاشى في الضوء الرماديّ. اختلّ النظام؛ أتت آريت وقلبت حياتي، وصرخت لويز في أذني حقيقة لم أستطع إزاءها الدفاع عن نفسي. وآغنيس؟ ربّما في النهاية هي أيضاً، ستنقضّ عليّ بغضب مباغت...

ارتميت على المقعد. عادت كلمات جدّتي إلى ذاكرتي، والخوف الذي كانت تفضحه: إذا مضى المرء وغاص في الضباب، سيراً أو على ظهر مركب، فيحتمل جدّاً ألّا يعود أبداً.

طوال اثني عشر عاماً وأنا أعيش بمفردي، وها أنا أشعر بأنّ جزيرتي محتلّة من ثلاث نساء.

خطر في ذهني أنّه ربّما ينبغي دعوتهن ثلاثتهنّ للمجيء، وفي سهرة صيفيّة جميلة، أتركهنّ ينقضضن عليّ، كلّ واحدة بدورها. وفي النهاية، حين أوشك على الموت، سيكون بإمكان لويز أن ترتدي قفّازات الملاكمة وتطرحني أرضاً بالضربة القاضية.

عندئذ بوسعهم أن يعدّوا حتّى الألف، لن أنهض.

بعد بضع ساعات، عدت وفتحت حفرتي بالفأس وغصت في حمّامي الجليديّ. دوّنت في يوميّاتي أنّي أجبرت نفسي ذلك الصباح على البقاء في الماء فترة أطول من المعتاد.

وصل يانْسون على موعده كالعادة. لم يكن يحمل لي رسالة، وليس لديّ ما أعطيه له. كان على وشك الذهاب حين تذكّرت أنّه منذ وقت طويل لم يشكُ من ألم أسنانه.

- كيف أصبحت أسنانك؟

بدا على يانْسون الحيرة.

- أيّة أسنان؟

لم أصرّ. وغرقت الحوّامة المائيّة في الضباب.

قبل أن أصعد إلى البيت، وقفت في المرآب بجانب القارب ورفعت الغطاء ثانيةً. أشعرني هيكله المُهمل بعتاب حادّ. سنة أخرى على هذه الحال، ولن يكون بالإمكان استعادته.

كتبت ذلك النهار رسالة أخرى للويز. اعتذرت منها عن كلّ شيء، حتّى عمّا قد أكون نسيته، وعن جميع الإزعاجات التي قد أسبّبها لها في المستقبل. وأنهيت رسالتي متكلّماً عن القارب:

أملك قارباً قديماً من الخشب ورثته عن جدّي وهو ملقىً منذ زمن في المرآب. من المعيب إهماله كما أفعل. ببساطة لم أنجح في بدء العمل به. يخالجني شعور بأنّي أنا نفسي مقلوب على ركائز تحت غطاء منذ وصولي إلى هذه الجزيرة. لن أستطيع يوماً إعادة إصلاح المركب إذا لم أبدأ بنفسي.

بعد يومين، سلّمت الرسالة ليانْسون. بعد أسبوع، حمل لي جواب لويز. استقرّ البرد مرّة أخرى على الجزيرة، بعد عدّة أيّام من ذوبان الثلج. كان الشّتاء يرفض الاستسلام. جلست إلى طاولة المطبخ لقراءتها. بوسع القطّة والكلبة البقاء في الخارج، أحياناً لا طاقة لي على احتمالهما.

كتبت لويز:

أحياناً أشعر أنّي أمضيت حياتي بأكملها بشفتين مشقّقتين. هذه هي الكلمات التي خطرت في بالي ذات صباح حين بدت الحياة لي أسوأ من المعتاد. لا داعي لأروي لك كلّ قصّتي، أنت تعرف خطوطها العريضة،

التفاصيل لن تحدث فرقاً. أحاول الآن أن أجد طريقة للعيش معك -مع هذا العملاق الذي خرج من بين الأشجار وأتضح أنّه أبي. أعرف أنّه لا ذنب لك، وأنّ آرييت لم تخبرك بشيء، إلى ما هنالك. غير أنّي لا أستطيع منع نفسي عن لومك أيضاً. كان وقع ذهابك عليّ، صافقاً الباب، أشبه بضربة مباشرة على الوجه. في البداية شعرت أنّه من الجيّد أن تختفي. لكن لاحقاً، شعرت بخواء ما فتئ يزداد. لذلك أتمنّى أن نجد طريقة لنكون يوماً ما صديقين على الأقلّ.

كانت قد وقّعت رسالتها بحرف L مخططاً بأسلوب جميل مثل عرْبَسة.

خطر لي أنّ تلك لم تكن قصّة جميلة، قصّتنا أنا وآرييت ولويز. الحقّ، لدى لويز كلّ أسباب الدنيا لتسخط علينا.

انقضى الشّتاء، دون أن تنقطع الرسائل بين المقطورة والجزيرة. من حين لآخر كانت تأتيني أخبار عن آرييت، التي عادت في غضون ذلك إلى ستوكهولم. لم توضّح لويز ولا هي من الذي أوصلها إلى هناك. كتبت آرييت أنّها كانت متعبة جدّاً غير أنّ فكرة البحيرة ولقاءنا أنا ولويز يساعدانها على التحمّل. كنت أواصل سؤالها عن صحّتها، لكنها لم تكن تجيب عن ذلك أبداً.

كان في رسائلها أثر لتسليم شبه صوفيّ. بعكس رسائل لويز، التي تنطوي على انفجار محتمل لغضب متخفٍّ بين السطور.

كلّ صباح عندما أستيقظ، أَعِدُ نفسي بأن أبدأ بصورة جادّة بإمساك زمام حياتي. ما عدت أستطيع ترك أيّامي تفلت بهذه الطريقة، كلّها

متشابهة ولا تحمل نفعاً لأحد.

لكن لم أكن قادراً على فعل شيء. ولا أيّ قرار كان يُتّخذ. كنت أذهب بين الحين والآخر وأرفع غطاء القارب، أفكر أنّ ما أتأمّله هو أنا في الحقيقة، هذا اللون المقشّر هو لوني، وهذه الشقوق وأثار الرطوبة لي أيضاً، ربّما حتّى رائحة الخشب الذي يتعفّن ببطء.

بدأت تطول النهارات، والطيور المهاجرة تعود رويداً رويداً. كانت تصل ليلاً في معظم الأحيان. كنت بمنظاري ألمح الطيور البحرية وهي تحوم في الأفق عند أطراف الجليد.

ماتت كلبتي في 19 مارس. عند نزولي إلى المطبخ في الصباح الباكر، تركتها تخرج على جري العادة. وقد لاحظت أنّها كانت تتألّم وأنّها لم تكن تقوى على النهوض إلّا بمشقّة. ولكنّي توقّعت أن تبقى حيّة حتّى الصيف على الأقلّ. بعدما غطست في حفرتي، وجفّفت نفسي ولبست في المطبخ، عدت ونزلت إلى المرآب لأحضر أدوات أحتاج إليها لإصلاح تسرُّبٍ للماء صغيرٍ في الحمّام. بدا لي غريباً ألّا تظهر الكلبة، لكنّي لم أبحث عنها. ولم ألحظ أنّها مختفيّة إلى أن حانت ساعة الطعام. حتّى القطّة، في هذه المرحلة، بدا عليها التساؤل. كانت تراقب درجات المدخل. خرجت وناديت كلبتي، إلّا أنها لم تأتِ. لبست سترة بسرعة وبدأت البحث. عثرت عليها بعد ساعة في الجهة الأخرى من الجزيرة، قرب التكوينات الصخريّة النادرة، والنابتة فوق الثلج كأعمدةٍ ضخمة. كانت ممدّدة في تجويف صخريّ، متوارٍ عن الريح. لا أدري كم مرّ من الوقت وأنا أتأمّلها. كانت عيناها مفتوحتين، تلمعان كالبلّور، تشبهان عينَي النورس الذي وجدته

أول الشّتاء ميتاً قرب الرصيف.

كان الموت كأساً صافياً لم تكن أيٌّ من خفايا الحياة تعكّره.

حملت الكلبة إلى البيت. كانت أثقل مما تخيّلت. الموتى ثِقال دوماً. ثمّ أحضرت معولاً، وبعد جهد جهيد، نجحت في حفر حفرة واسعة بما يكفي تحت شجرة التفّاح. كانت القطّة أثناء ذلك تراقبني من أعلى درج المدخل. كان جسد الكلبة متصلّباً حين وضعته في الحفرة وأهلت التراب عليها.

أسندت المعول والرفش إلى جدار البيت. عاد ضباب الصبح من جديد غير أنّه في هذه المرّة كان قادماً منّي؛ كانت عيناي تتغبّشان. لقد كنت أبكي كلبتي.

دوّنت الحدث في يوميّاتي. حسبت أنّها عاشت تسعة أعوام وثلاثة أشهر. لقد اشتريتها جرواً من مركب صيّاد متقاعد كان يربّي الكلاب المشكوك في فصيلتها.

فكّرت لعدّة أيّام بعدها أنّه ينبغي عليّ شراء كلب آخر. لكنّ المستقبل بدا غائماً جدّاً. ستموت قطّتي أيضاً عمّا قريب. لن يربطني بهذه الجزيرة شيء لم أرغب فيه.

كتبت لأخبر لويز وآرييت بموت كلبتي. وفي المرّتين ذرفت الدموع.

أتت إجابتاهما مختلفتين كلّياً. ففي حين تفهّمت لويز ألمي، سألتني آرييت كيف بحقّ الجحيم يمكن للمرء أن يحزن على حيوان عجوز ومشلول من الألم وجد السلام أخيراً.

مرّت الأسابيع دون مُباشرة العمل في قاربي. كما لو أنّي كنت أنتظر شيئاً ما. لعلّه كان ينبغي أن أكتب رسالة لنفسي أشرح فيها ما هو شكل مشاريعي القادمة؟

كانت النهارات تطول والثلج بدأ بالذوبان في شقوق الصخر، إلّا أنّ البحر كان لا يزال أسير الجليد.

وفي أحد الأيام الصافية استسلم الجليد أخيراً. رأيت وأنا خارج في الصباح تشقّقاته وقد اتّسعت واصلةً إلى البحر. بعد وقت قصير، وصل يانْسون على متن قاربه: كان قد ركن الحوّامة المائيّة. أبلغني أنّه قرّر شراء زلّاقَة مائيّة[1] للشتاء القادم. لم أكن واثقاً من أنّي عرفت ما هي هذه الزلّاقَة المائيّة، رغم شروحه المفصّلة، التي لم أطلبها. أراد منّي أن أعاين عظم كتفه اليسرى. إذا لم يكن فيها ورم، برأيي. ربّما ورم خبيث؟

لم تكن مصابة بأيّ شيء. كان يانْسون لا يزال يتمتّع بصحّة حديديّة. في ذلك النهار رفعت الغطاء عن قاربي وبدأت أكشط ألواحه الخشبيّة. استطعت نزع طبقة الطلاء المتقشّر عن جزئه الخلفيّ.

كنت أنوي أن أكمل في اليوم الثاني. لكن حصل شيء غير متوقّع في ذلك اليوم: وأنا نازل باتّجاه الرصيف من أجل استحمامي الصباحيّ، وجدت زورقاً بمحرّك صغير راسياً على الرصيف.

توقّفت على الفور، حابساً أنفاسي.

كان باب المرآب مفتوحاً.

كنت أتلقّى زيارة.

---

(1) زلّاقَة مائيّة Hydroglisseur: قارب صغير الحجم، جزءه السفليّ أملس يزلق على سطح الماء، يُستخدم في مناطق المياه الضحلة والمستنقعات، ويسير مدفوعاً بمروحة.

(2)

كان بريق يتراقص داخل المرآب. لم أتوقّع أنّه قادم من التقاء الشّمس مع نصل سيف حادّ. لكن لمّا فتحت الباب، كانت سيْما هي من رأيت، بلا أدنى ريب، ممسكةً بسيفها.

- توقّعت ألّا تستيقظ أبداً، قالت على سبيل التحيّة.
- كيف وصلتِ إلى هنا؟ وما هذا الزورق؟
- أخذته.
- من أين؟
- من الميناء. كان مثبّتاً بالسلاسل. إلّا أنّي أملك سرّ السلاسل والأقفال.
- سرقتِه؟

نزلت قطّتي إلى الرصيف وأخذت تراقب سيْما من بعيد.

- أين الكلبة؟
- ماتت؟
- ماذا تقصد؟
- ماتت. لا يوجد غير موت واحد. عندما لا يكون المرء حيّاً يكون ميّتاً. هو الموت ببساطة. كذلك ماتت كلبتي.

- كان عندي كلب، فيما مضى، هو مات أيضاً.
- الكلاب تموت. وقطّتي تزداد عجزاً، لم يبقَ أمامها الكثير.
- تريد أن تطلق النار عليها؟ هل لديك بندقيّة؟
- حتّى لو كان لديّ بندقيّة، لن أخبرك. أريد معرفة ماذا تفعلين هنا، ولماذا سرقت هذا الزورق.
- كنت أريد أن أراك.
- لماذا؟
- لم تعجبني.
- من أجل هذا أتيت؟
- أريد أن أعرف لماذا لم تعجبني.
- أنت مجنونة بالكامل. أين تعلّمت قيادة الزورق؟
- كنت في الماضي نزيلة ملجأ على شاطئ بحيرة فاترن. وكان لديهم قارب هناك.
- وكيف عثرت على عنواني؟
- سألت عجوزاً كان يكنس أوراق الشجر أمام الكنيسة. لم يكن ذلك صعباً، سألته فقط إذا كان يعرف طبيباً مختبئاً في جزيرة. أخبرته أنّي ابنتك.

يئست، سيّما لديها جواب لكلّ سؤال. أعرف أنّ شمّاس الكنيسة المكلّف بالاعتناء بالمقبرة، هوغو برسون ثرثار. وعلى الأرجح شرح لها بالتفصيل العنوان، الذي لم يكن معقّداً بالمناسبة، نمضي قُدُماً إلى منارة ميتبادن، وبعد اجتياز مضيق يارنسونديت الذي تحدّه صخور شديدة الانحدار، نواصل التقدّم إلى جزيرتي حيث يظهر وتَدان يشيران إلى مدخل الخليج الصغير.

لاحظت أنّها كانت منهكة القوى: عيناها مطفأتان، ووجهها شاحب، وشعرها مرفوع بإهمال ومثبّت بمشابك بلاستيكيّة... وتلبس الأسود من قدميها إلى رأسها إلّا أنّ رباط حذائها الرياضيّ كان أحمر.

- تعالي، قلت. أنت جائعة بالتأكيد. بعد أن تأكلي سأتّصل بخفر السواحل، وأخبرهم أنّك عندي وأنّك سرقت زورقاً. وسيأتون لأخذك.

لم تحتجّ ولم ترفع سيفها في وجهي. بعد أن أصبحنا في المطبخ سألتها ماذا تريد أن تأكل.

- عصيدة الشوفان.

- ظننت أنّه لم يعد أحد يأكل هذا الطعام.

- لا أعرف ماذا يفعله الآخرون، لكن أنا أريده. وسأعدّه بنفسي.

كنت أحتفظ بكميّة من جَريشِ الشوفان وعبوةَ هريسةِ تفّاح لم تنفد بعد صلاحيّتها. حضَّرَت عصيدتها؛ كانت تفضّلها سميكةً. ثمّ أضافت الحليب في الصحن. لم تُرد الهريسة. كانت تأكل ببطء. السيف على الطاولة. سألتها إذا كانت تريد قهوة أو شاياً، أومأت بالنفي. لم تكن تريد غير عصيدة الشوفان. كنت أحاول فهم سبب مجيئها إلى هنا، وماذا كانت تريد منّي؟ أوّل مرّة رأيتها كانت مندفعة صوبي بسيفها، وها هي تأكل العصيدة في مطبخي. بدا الأمر غير معقول. بعد أن أنهت صحنها، وغسلته ووضعته على حمّالة الصحون، قالت:

- أنا متعبة، ويجب أن أنام.

- يوجد سرير تخييم في الغرفة الجانبية. بإمكانك النوم عليه إذا أردت، ولكن أحذّرك، ثمّة قرية نمل. وبما أنّ الربيع أتى فقد بدأت النّمال تستيقظ.

صدّقتني. شكّكت بموت كلبتي، لكن صدّقت بوجود قرية النمل.
أشارت إلى المقعد.
- أستطيع النوم هنا.
أعطيتها وسادة وغطاءً. لم تخلع ثيابها ولا الحذاء، رفعت الغطاء فوق رأسها واستسلمت للنوم. انتظرت حتّى تأكّدت من نومها، ثمّ ارتديت ملابسي.
عدت إلى الشاطئ برفقة قطّتي. كان الزورق من المطّاط، بمحرّك خارجيّ من طراز ماركوري بقوّة خمسة وعشرين حصاناً. كان هيكل الزورق مكشوطاً بقسوة بأحجار الشاطئ. ما من شكّ: كشّطته سيّما عن قصد. حاولت أن أعرف ما إذا كان ثمّة شقّ في المطّاط، لكن لم أعثر على شيء.
كان يوم البريد؛ سيكتشف يانْسون الزورق. بمعنى آخر، أمامي ساعتان لأتّخذ قراراً. لم أكن متأكّداً من أنّني سأتّصل بخفر السواحل. أفضّل أن أحاول قدر الإمكان إقناع سيّما بالرجوع إلى آغنيس دون تدخّل السلطات. كنت أفكّر في نفسي أيضاً. من غير اللائق لطبيب مسنّ استقبال شابّات يسرقن الزوارق بعد أن يهربن بعيداً عن ملجئهنّ.
استطعت بمساعدة خطّاف وعارضة خشبيّة أن أعيد الزورق إلى الماء. وبمساعدة الخطّاف سحبته إلى الرصيف. وقطَرت به قاربي. كان الزورق السريع يقلع كهربائيّاً، ما يعني أنّ له مفتاحاً وبالطبع لم يكن في مكانه حين استولت عليه سيّما. لقد أدارته بالخيط، وأنا فعلت مثلها. استجاب المحرّك من الضربة الأولى. كانت المروحة والمحور بحالة جيّدة. عدت بالزورق إلى الوراء وأقلعت بعدها باتّجاه جزيرتين كانتا تسمّيان «التنهّدات». كان

يوجد بينهما مرفأ طبيعيّ بعيد عن الأنظار. أستطيع ترك الزورق المسروق فيه حتّى إشعار آخر.

تُثير تسميّة الجزيرتين نقاشاً حولها. يؤكّد يانْسون أنّه فيما مضى كان يوجد في المنطقة صيّاد طيور يدعى ماس، لدية عادة التنهّد في كلّ مرّة ينجح فيها بإسقاط بطّة عيدر، وحسبَ يانْسون سُميّت الجزيرتان على شرفه.

لا أعرف إن كان ذلك صحيحاً. على خارطتي البحريّة ليس لهما اسم، لكن يعجبني أن تسمّى بضع صخور عارية على سطح الماء بهذه الطريقة. يخطر في بالي أحياناً أنّ الشجر يهمس، وأنّ الأزهار توشوش، والأحراش تدندن ألحاناً غامضةً، وزهور النسرين، في الشقوق خلف شجرة تفاح جدّتي، تردّد صدى نغمات صافية على آلات غير مرئيّة. فلماذا إذن لا تتنهّد الجزر؟

استغرقت عودتي نحو ساعة من التجديف. لم يكن هنالك حمّام ذلك الصباح. عدت إلى البيت. كانت سيْما نائمة تحت الغطاء؛ لم تغيّر وضعها. بذات اللحظة سمعت مركب يانْسون يقترب. نزلت لأنتظره على الرصيف. كان هواء خفيف يهبّ من الشمال الشرقي، والحرارة لا تتجاوز الخمس درجات، بدا أنّ الربيع لا يزال بعيداً. لمحتُ في الماء زُنجوراً سرعان ما اختفى.

كان يانْسون في ذلك اليوم قلقاً على شعره، يخشى من الصلع. اقترحت عليه أن يسأل الحلّاق. لكن بدل أن يصغي إليّ بسط ورقة يتبيّن أنّه اقتطعها

من مجلّة وطلب منّي قرأتها. كان إعلاناً على صفحة كاملة لغسول شعر يَعِدُ بنتائج فوريّة شريطة استخدامه بدقّة. فكّرت في أمّي، وأنا أقرأ خلاصة الخزامى بين مكوّناته، فقلت ليانْسون ألّا يصدّق كلّ ما يقوله المعلنون.

- ما أريده، أجاب يانْسون، هو نصيحة.

- لقد أعطيتك إيّاها. اسأل الحلّاق. سيعرف أكثر منّي عن تساقط الشعر.

- ألا تتعلّمون شيئاً عن الصلع خلال دراستكم؟

- أشياء قليلةً، للأسف.

خلع قبّعته وحنى رأسه، كما لو أنّه يعبّر لي عن إجلال مباغت. لم أتمكّن إلّا من ملاحظة كثافة شعره الجميلة، حتّى أعلى رأسه.

- ألا ترى علامة صلع؟ أصرّ يانْسون.

- هذا طبيعيّ، يأتي مع تقدّم العمر.

- أنت مخطئ حسب هذا الإعلان.

- في هذه الحالة، برأيي أن تذهب وتشتري هذا الغسول، وتدهن به رأسك.

دعَكَ يانْسون ورقةَ المجلة.

- أحياناً أتساءل إذا كنت بالفعل طبيباً كما تدّعي.

- بأيّة حال، أستطيع التمييز بين من يعاني من أمراض حقيقيّة وبين سعاة البريد المصابين بالوسواس المرضيّ.

كان يانْسون يهمّ بالردّ لمّا رأيت نظرته تنتقّل من وجهي إلى نقطة وراء ظهري. التفتُّ. سيْما! كانت واقفةً على الدرب، وقطّتي بين ذراعيها، والسيف يتدلّى عن خصرها؛ لم تقل شيئاً، اكتفت بالابتسام. لبث يانْسون

مكانه، فاغر الفم. قبل نهاية اليوم، سيعرف كلّ من في الأرخبيل أنّ شابّة بشعر أشعث كانت تزورني، لها عينان سوداوان، وتجول على جزيرتي مسلّحَةً بسيف سامُورَاي.

- أظنّ أنّي سأطلب هذا المستحضَر لشعري، قال يانْسون بنبرة لطيفة. لن أزعجك أكثر من ذلك. اليوم ليس لديّ بريد لك.

عاد إلى مقود مركبه وانطلق. لاحقته بنظراتي. حين استدرت، كانت سيِّما تصعد باتّجاه البيت، وقد أفلتت القطّة.

وجدتها جالسة على طاولة المطبخ تدخّن.

- أين الزورق؟ سألت.

- أخفيته في مكان آمن حتّى لا يراه أحد.

- مع من كنت تتكلّم، في الخارج؟

- يدعى يانْسون ويوزّع البريد في الأرخبيل. لم يكن من المحبّذ أن يراك.

- لماذا؟

- سيفشي للآخرين. إنّه نمّام.

- لا أكترث.

- أنا الذي يسكن هنا ولست أنت.

أطفأت عقب سيجارتها في صحن جدّتي القديم. ممّا أثار امتعاضي.

- حلمت أنّك تفرغ كثيب النمل فوقي. حاولت الدفاع عن نفسي بالسيف، لكنّ نصله انكسر، ذاك جعلني أصحو. لماذا لديك قرية نمل في الحجرة المجاورة.

- كان ينبغي ألّا تدخليها.

- أجد هذا جميلاً. غُمِرَ نصف الغطاء. بضع سنوات وتختفي الطاولة.

لاحظت شيئاً لم أنتبه إليه حتّى تلك اللحظة. بدت سيْما متوتّرة، وحركاتها عصبية. وأنا أسترق النظر إليها رأيتها تفرك أصابعها بعضها ببعض.

تذكّرت أنّي رأيت هذه العادة من قبل، عند مريض كنت مضطرّاً إلى بتر رجله بسبب مضاعفات مرض السكّريّ. كان هذا المريض يعاني من رُهَاب الجراثيم؛ من الناحية النفسيّة كان على تخوم الجنون، ويعاني من نوبات اكتئاب قصوى.

قفزت القطّة على الطاولة. كنت في الماضي أطردها مباشرة؛ ولكنّي أقلعت عن ذلك منذ سنوات، كانت قد هزمتني. ولكي لا تجرح قوائمها بدّلتُ مكان السيف فقط. ارتجفت سيْما وهي تراني أمسك بالمقبض. كوّرت القطّة نفسها ككرة وأخذت تموء فوق مشمّع الطاولة. كنّا نتأملها أنا وسيّما بصمت.

- أخبريني أوّلاً، قلت. لماذا أتيت إلى هنا وأين تنوين الذهاب فيما بعد. ثمّ نبحث عن الطريقة المثلى لإخراجك من هذا الوضع دون تعقيدات فارغة.

- أين الزورق؟

- تركته في خليج صغير بين جزيرتين صغيرتين تسمّيان «التنهّدات».

- كيف يمكن أن تسمّى جزيرة بتنهيدة؟

- توجد في هذه المنطقة جزيرة معروفة باسم المؤخّرة النحاسيّة وأخرى تسمّى الضّرْطة. للجزر كما للأشخاص أسماء، ولكن لا نعرف دوماً من أين أتت.

- أنت أخفيت الزورق؟

- بلى.

- شكراً.

- لا أعرف إذا كان الأمر يستحقّ الشكر. ولكن إذا لم تخبريني بسرعة لماذا أتيت، فسآخذ الهاتف وأتّصل بخفر السواحل. وسيكونون هنا بعد نصف ساعة.

- إذا لمستَ الهاتف قطعتُ يدك.

قطع كلامها أنفاسي للحظة. ثمّ قلت لها رأيي بصدق:

- أنت لا تستطيعين مسك السيف لأنّي لمسته منذ قليل. لديك خوف مربك من الجراثيم. مذعورة من فكرة التقاط أمراض مُعدية.

- أنا لا أعرف عمّ تتكلّم.

كنت محقّاً. يدها ترتعش على الطاولة بشكل ملحوظ. فُتِحَت ثغرة في حصنها المنيع. وستشنّ بالتالي هجوماً مضادّاً. أمسكت قطّتي العجوز من فرو رقبتها، ورمتها على كومة الحطب بجانب الموقد. ثمّ بدأت بالصراخ. لم أكن أفهم كلمةً ممّا تقوله، كانت تصرخ بلغة أخرى. نظرت إلى سيُما وأنا أفكّر أنّها ليست ابنتي، ولست مسؤولاً عنها.

سكتت فجأةً. عدت واستلمت دفّة الكلام بهدوء:

- إذن؟ ألن تتناولي السيف؟ ألن تقطعّيني إرباً إرباً؟

- لماذا تتصرّف معي بهذه الدناءة؟

- لا يحقّ لأحد مهاجمة قطّتي كما فعلت.

- لا أحتمل شعر القطّة. لديّ حساسية.

- هذا لا يعطيك الحقّ في قتلها.

نهضتُ لأترك قطّتي تخرج –حيث لبثت أمام الباب وهي تنظر بحذر. لحقت بها إلى الخارج وأنا أفكّر أنّ سيْما قد تحتاج إلى البقاء بمفردها. كانت الشّمس تثقب طبقة الغيم، وما من نَسم، وكان يظهر أنّ ذلك اليوم سيكون الأكثر حرارة في الموسم كلّه. اختفت القطّة عند زاوية البيت. ألقيت نظرة حذرة من النافذة. كانت سيْما تغسل يديها في حوض المجلى. جفّفتهما بعناية شديدة، ثمّ فركت قبضة السيف بقطعة قماش قبل أن تعيد وضعه على الطاولة.

كانت بالنسبة لي كائناً غير مفهوم. لم أكن أستطيع حتّى تخيّل أفكارها. ماذا يجول في رأسها؟ لم يكن لديّ أدنى فكرة.

عدت إلى الداخل. كانت منتظرة، تجلس على طاولة المطبخ. لم أقل شيئاً بخصوص السيف. فجأة رفعت بصرها نحوي.

– شارا. كنت أتمنّى أن يكون لي هذا الاسم.

– لماذا؟

– لأنّه جميل. هو اسم مِرقاب. يوجد على جبل ويلسون القريب من لوس أنجلس. سأزوره قبل أن أموت. هو المِرقاب الأكثر مقدرة في العالم. يمكننا أن نرى من خلاله النجوم. وما لا يمكن تخيّله.

وخفضت صوتها كأنّها مأخوذة بالإعجاب، أو كما لو أنّها أرادت أن تبوح لي بسرّ ثمين.

– من شدّة قدرته، يُمكننا به رؤية شخص على القمر. أتمنّى أن أكون ذلك الشخص.

كنت أحزر ما ترمي إليه أكثر ممّا أفهمه. فتاة صغيرة مطاردة، هاربة، بعيدة عن كلّ شيء، بعيدة عن نفسها، تتخيّل أنّ شخصاً مثلها، غير مرئيّ

على هذه الأرض، من الممكن أن يصبح مرئيّاً بفضل مِرقاب قويّ.

شعرت، للحظة، أنّي لمحت جزءاً من كينونتها. حاولت أن أطيل تبادل الكلام عن النجوم التي لا تعدّ والتي بالإمكان أن نراها من جزيرتي في ليالي الخريف الصافية دون قمر. لكنّ سيْما انسحبت إلى داخلها، لم تكن تريد المزيد، كما لو كانت قد ندمت على استفاضتها بالكلام.

بقينا صامتين. سألتها مرّة أخرى لماذا أتت.

- النفط، قالت. سأذهب إلى روسيا وأجني أموالاً كثيرة. هناك يوجد نفط. ثمّ سأرجع وأصبح مهووسة بإشعال الحرائق.

- ما الذي ستحرقينه؟

- كلّ البيوت التي أُجبرت على البقاء فيها دون إرادتي.

- ستحرقين بيتي أيضاً؟

- لا، هذا هو البيت الوحيد الذي سأبقيه قائماً، بيتك وبيت آغنيس. لكنّي سأحرق البيوت الأخرى.

بدأت أصدّق بجدٍّ أنّ هذه الفتاة كانت مجنونة. لا تحمل سيفاً فقط، وإنّما لديها مشاريع مستقبليّة هذيانيّة كلّياً.

بدا أنّها قرأت أفكاري.

- ألا تصدّقني؟

- بصراحة، لا.

- إذن اذهب إلى الشيطان.

- لا تتكلّمي هكذا في بيتي. أستطيع أن أحضر الخفر بأسرع ممّا تظنين.

وضَربتُ بيدي على صحن جدّتي الصغير الذي كانت سيْما تستخدمه منفضةً منذ قليل. تناثرت شظايا الفخار في المطبخ، لكنّ سيْما لم تحرّك

ساكناً. كما لو أنّ نوبة غضبي لم تكن تعنيها.

- لا أريد لك أن تغضب، قالت بصوت هادئ. أريد فقط أن أبيت الليلة هنا. ثمّ سأذهب.

- لماذا أتيت؟

صعقني جوابها:

- أنت دعوتني.

- لا أتذكّر شيئاً بهذا الخصوص.

- أنت قلت أنّك لا تظنّ أنّي سأزورك. وأردت أن أريك أنّك مخطئٌ. فضلاً على أنّي في طريقي إلى روسيا.

- لم أصدّق كلمة ممّا قُلتِهِ. ألا تستطيعين أن تخبريني يا ترى بالحقيقة؟

- لا أظن أنّ لديك رغبة في سماعها.

- ولِمَ لا؟

- لماذا برأيك أخذت السيف؟ ليكون باستطاعتي الدفاع عن نفسي. في وقت ما، وكان عمري أحد عشر عاماً، لم أستطع.

أدركت أنّ ما قالته صحيح. هشاشتها كانت تفيض من كلّ جهات مظهرها الغاضب.

- أصدّقك. لكن لماذا أتيت إلى بيتي؟ حسناً، لا تقولي لي إنّك جادّة في نيّتك في الذهاب إلى روسيا؟

- أعرف أنّي سأنجح هناك.

- ماذا ستعملين؟ تحفرين بيديك باحثة عن النفط؟ لن يُسمح لك حتّى بدخول البلد. لماذا لا تبقين عند آغنيس؟

- ينبغي أن أذهب. تركت كلمة قلت فيها إنّي ذاهبة باتّجاه الشمال.

- لكن الاتّجاه جنوب هنا!

- لا أريد لها أن تجدني. هي مثل الكلب أحياناً تشمّ أثر الفتيات اللواتي يغادرن. أريد البقاء هنا لفترة. ثمّ سأختفي.

- أنت تدركين جيّداً أنّ ذلك مستحيل!

- إذا سمحت لي بالبقاء، سيكون بإمكانك.

- بإمكاني ماذا؟

- ماذا تتوقّع؟

فجأة فهمت ما ترمي إليه.

- من تظنّينني يا ترى؟ سأنسى ما قُلتِه للتّو! حتّى أنّي لم أسمعه!

من فرط ما شعرتُ بالحنق، خرجتُ. فكّرت في السمعة التي يصنعها لي يانْسون في هذه اللحظة من جزيرة لأخرى. سأصبح فريدريك، الذي يعتني بالسرّ بفتيات جيء بهنّ من بلاد عربية.

جلست على الرصيف. ما قالته سيْما ملأني لا بالإحراج والتشويش فقط، بل بالحزن أيضاً. بدأت أفهم تدريجيّاً أيّ عبء كانت تجرّ هذه الصغيرة وراءها.

لحقتني إلى الرصيف.

- اجلسي، قلت. بإمكانك البقاء بضعة أيّام، إذا أردت.

لاحظت قلقها. كانت رجلاها ترتجفان. لا أستطيع أن ألقي بها في الخارج. إضافةً إلى أنّي أحتاج بعض الوقت للتفكير. المرأة الرابعة تحتلّ حياتي وجزيرتي وتطالبني بأمر لا أزال أجهله.

أكلنا القطعة الأخيرة من الأرنب البريّ المتبقّية في الثلّاجة. أكلت سيْما بلا شهية ودون أن تقول الشيء الكثير. يظهر أنّ قلقها يزداد ساعة

بعد ساعة. لا تريد أن تنام مع النمل، قالت، وبالتالي وضعتُ لها الأغطية على مقعد المطبخ. وما إن تجاوزت التاسعة بقليل حتّى أعلنت أنّها تشعر بالنّعاس.

تلك الليلة اضطرت القطّة للمبيت في الخارج. صعدتُ إلى الطابق العلويّ، تمدّدت، وأخذت أقرأ. لم يكن يصلني أيّ صوت من المطبخ، مع أنّ سيْها لم تطفئ المصباح بعد، كما أرى من انعكاس الضوء أمام البيت. حين نهضت لأنزل الستار، لمحت قطّتي تجلس مضاءة بنور المطبخ.

بعد قليل هي أيضاً ستتركني. تملّكني إحساس وأنا أتأمّلها أنّي أرى كائناً أثيريّاً.

كنت أقرأ كتاباً يعود إلى جدّي، صادراً عام 1911 يدور حول طيور خوّاضة نادرة. أكيدٌ أنّني غفوت. لمّا فتحت عينيّ كان المصباح مضاءً بجانب السرير، والساعة لم تتجاوز الحادية عشر ليلاً. لم أنم أكثر من نصف ساعة. أزحت الستار قليلاً. كانت سيْها قد أطفأت الضوء في الأسفل، والقطّة لم تعد موجودة. كنت أحاول العودة للنوم حين تنبّهت أذناي إلى أصوات تتناهى من جهة المطبخ، لم أتمكّن من تمييزها. فتحتُ الباب موارباً، أصغيت، وفهمت. كانت سيْها تبكي. لبثتُ مكاني، فريسة للتردّد. أترى كان ينبغي أن أنزل وأراها؟ أم أنّها تفضّل البقاء وحدها؟ بعد أن خفّ البكاء، أغلقت الباب بهدوء وعدت إلى السرير. كنت أعلم أين أضع قدمي لكي لا تصرّ ألواح الأرضية.

كان كتابي قد انزلق إلى الأرض، فتركته. وبقيت مستلقياً في الظلمة محاولاً الوصول إلى قرار. كان الأمر الوحيد الذي ينبغي فعله هو الاتّصال بخفر السواحل. ولكن لماذا أتمسّك دوماً بالأمر الوحيد الذي ينبغي فعله؟

قرّرت أن أتّصل بآغنيس. وسيكون لها كلمة الفصل. فرغم كلّ شيء هي الشخص الوحيد في العالم الأقرب إلى سيْما، إذا كنت قد فهمتُ جيّداً مأساتها.

استيقظتُ كالعادة بعد السادسة بقليل. المِحرار الخارجيّ المثّبت على النافذة يشير إلى أربع درجات فوق الصفر، والجوُّ ضبابيّ.

لبست ونزلت. دون أن أحدث صوتاً، لأنّي توقّعت أنّ سيْما كانت لا تزال نائمة. كان بنيّتي أخذ غلّاية القهوة والنزول إلى المرآب، إذ يوجد سخّان كهربائيّ منذ أيّام جدّي، كان يستخدمه ليطبخ خلائط القطران والراتنج التي يسدّ بها شقوق قاربه.

كان باب المطبخ موارباً. فتحته ببطء، لمعرفتي بصريره. كانت سيْما مستلقيةً على المقعد بملابسها الداخلية، والمصباح مضاء. جسدها والغطاء كانا غارقين في الدم.

كما لو أنّها مضاءة بنور كشّاف. لم أصدّق عينيّ. عرفت أنّ ما أراه حقيقيّ، مع ذلك كان مستحيلاً. من المستحيل أن يحصل. حاولت إنعاشها، وأنا أبحث بشكل محموم عن مواضع الجروح الأعمق التي جرّحت بها جسدها. لم تستخدم السيف، وإنّما إحدى سكاكين الصيد القديمة التي كانت لجدّي. لسبب غامض، كان ذلك يزيد يأسي. كما لو كانت، بطريقة ما، قد ورّطت هذا الصيّاد القديم المفعم بالطيبة في حياتها المأساويّة. صرخت بها أن تصحو، لكن بقيت أعضاؤها خاملة، وعيناها مغمضتين. أسوأ الجروح كانت أسفل البطن، في البطن والمعصمين. من الغريب أنّ ثمّة جروحاً أيضاً في مؤخّرة عنقها. كيف استطاعت أن تفعل

ذلك؟ هذا يتجاوز قدرتي على الفهم، لكنّ أبلغ الجروح كان في معصمها الأيمن. كنتُ في العشيّة لاحظت أنّها عسراء. كان الدم لا يزال ينزف، لقد فقدت منه الكثير. هيّأتُ من خرقتين عصابة حول الجرح. جسست نبضها، كان ضعيفاً، وكنت مستمرّاً في محاولة إنعاشها. لا أدري ما إذا تناولت أقراصاً، أو ربّما مخدّرات. كانت تحوم في المطبخ رائحة لم أتعرّف عليها. شممت منفضة السجائر -صحن صغير آخر لجدّتي أخذته دون أذني. لعلّها قد دخّنت عشبة مخدّرة. لعنت نفسي لتركي أدواتي الطبّية في المرآب. اندفعت بسرعة، تعثّرت بالقطّة الجالسة على الدرجات، هرعت إلى المرآب، تناولت آلة قياس الضغط وعدت أركض صاعداً إلى المطبخ. كان ضغطها منخفضاً جدّاً. كانت سيّما في حالة خطرة.

اتّصلت بخفر السواحل. رفع السمّاعة هانس لوندمان، الذي كنت ألعب معه حين كنّا طفلين، أثناء العطل الصيفية. كان أبوه قائد خفر السواحل، وصديقاً مقرّباً من جدّي.

- هانس، هذا أنا فريدريك فيلين. في بيتي فتاة يجب إدخالها مستشفى الطوارئ.

هانس رجل عاقل، ويعرف أنْ لا أحد يتّصل بخفر السواحل عند الفجر إذا لم يكن الوضع خطيراً.

- ممّ تشكو؟

لم أستطع إلّا أن أخبره بالحقيقة.

- محاولة انتحار. شرّطت نفسها بكلّ مكان وفقدت الكثير من الدم. حالتا النبض والضغط مقلقتان.

- الجوّ ضبابيّ، قال هانس لوندمان، ولكن خلال نصف ساعة على

الأكثر سأكون عندك.

- ستتّصل بالإسعاف؟

- هي في الطريق إلى جزيرتك.

انتظرت اثنتين وثلاثين دقيقةً قبل أن أسمع صوت المحرّك الهائل لقارب خفر السواحل. كانت تلك أطوَل دقائق في حياتي. أطوَل من دقائق الاعتداء عليّ في روما يوم ظننت أنّي سأموت، أطوَل من أيّ شيء. لم أكن قادراً على فعل شيء، كانت سيْبا تبتعد، ولم أكن أعرف كم فقدت من الدم، لم أكن قادراً أن أقدّم لها أكثر من عصاباتي. حين فهمت أنّ صراخي لن ينفع في شيء، حاولت أن أهمس في أذنها. قلت لها إنّها يجب أن تعيش، إنّه من غير الممكن أن تموت بهذه الطريقة، إنّ ذلك ليس عدلاً، ليس هنا في مطبخي، ليس في تلك اللحظة بينما الربيع قادم، وليس بمثل ذلك النهار الذي كاد يبدأ. هل سمعتني؟ لا أعرف. واصلتُ الهمس في أذنها. رويت لها مقتطفات ممّا أذكره من قصص خرافيّة، أخبرتها عن رائحة الجزيرة حين يزهر الأرجوان والكرز البريّ. أخبرتها ماذا كنّا سنتعشى، حكيت لها عن الطيور الرائعة التي تسير فوق الماء، عند طرف الشاطئ، وتلتقط فرائسها بسرعة البرق. كنت أتكلّم من أجل حياتها وحياتي، كنت مذعوراً من فكرة أن تموت. هل سأنجح بالحفاظ عليها على قيد الحياة؟ حين رأيت أخيراً هانس لوندمان وزميله قادمين يهرولان، صرخت بهما أن يسرعا، كانا يحملان نقّالة، لم يتأخّرا لحظة، وذهبنا. كنت أجري خلفهما، بجوربيّ، حاملاً بيدي جزمتيّ المقصوصتين. وقد نسيت إغلاق باب المدخل.

انطلق القارب في الضباب. استلم هانس دفّة القيادة. سألني عن وضعها.

- لا أعرف. ضغطها ينخفض.

كان يسير بأقصى سرعة إلى الأمام شاقّاً البياض. مساعده، الذي لم أكن أعرفه، كان بجانب سيليا، ينظر إليها وهي مستلقية على النقّالة ومحزّمة. تساءلت إن كان سيغمى عليه.

كانت سيّارة الإسعاف بانتظارنا عند المرفأ. كان الضباب يغمر كلّ شيء.

- أتمنّى أن تنجو، قال هانس وهو يغادرني.

كان يظهر عليه القلق. لعلّ الخبرة علّمته التعرّف على من يمسّهم الموت.

استغرق الطريق إلى المستشفى ثلاثاً وأربعين دقيقةً. كان بجانب النقّالة امرأة أربعينيّة تدعى سونيا. علّقت لسيليا كيس المصل مواصلةً عملها باحتراف وهدوء، وهي باقية على خطّ مفتوح مع المستشفى لتبادُل المعلومات حول حالة المريضة. سألتني مجموعة أسئلة حول مواقيت محدّدة لم يكن لديّ أجوبة عليها.

- هل تناولت شيئاً ما؟ حبوباً مثلاً؟

- لا أعرف. ربّما دخّنت عشبة مخدِّرة.

- هل هي ابنتك؟

- لا. أتتني في زيارة مباغتة.

- هل اتّصلت بأهلها؟

- لا أعرف أهلها. هي تسكن في ملجأ للرعاية. لم ألتقِ بها إلّا مرّة واحدة من قبل. ولا أعرف لماذا أتت لزيارتي.

- اتّصل بالملجأ.

تناولت السمّاعة المثبّتة على جدار سيّارة الإسعاف. اتّصلت بموظّفي الاستعلامات، الذين بدورهم أعطوني رقم مزرعة آغنيس. حين ردّ المجيب الإلكترونيّ، شرحت ما حدث، وإلى أيّ مستشفى كنّا نتّجه وأنهيت بإعطاء رقم الهاتف الذي أعطتني إياه سونيا.

- عاودِ الاتصال بها، قالت. تستيقظ الناس عندما نلحّ.

- ربّما تكون في الحظيرة.

- أليس لديها هاتف محمول؟

شعرت أنّي لم أعد أقوى على الاتّصال.

- ليس لديها محمول. إنّها لا تشبه الآخرين.

في المستشفى، بعد أن تكفّل طاقم الطوارئ بأمر سيما، ألفيتُني بجزمتيّ المقصوصتين جالساً في ممرّ. أخيراً استطعت الوصول إلى آغنيس. بمجرّد سماعي تنفّسها أدركت مدى خوفها.

- كيف حالتها؟

- سيّئة.

- قل الحقيقة.

- ممكن أن تموت. نظراً لكميّة الدم التي فقدتها، وشدّة الصدمة. أتعرفين إذا كانت تأخذ أقراصاً منوّمة؟

- لا أعتقد.

- هذا مهمّ.

- مع سيما لا نستطيع أن نكون متأكّدين من شيء. ولكن لا أظنّ أنّها تتناول أقراصاً منوّمة.

- مخدّرات؟

- كانت تدخّن الحشيش، لكن ليس في بيتي. لا أسمح بذلك.
- هل يمكن أن تتعاطى شيئاً آخر؟
- لا أعرف أبداً، سبق أن قلت لك!

حين رأيت الممرّضة التي استقبلتنا في الطوارئ، ناولتُها السمّاعة.

- خذي، قلت. هذه هي السيّدة الأقرب إلى الصغيرة. لقد شرحت لها خطورة الوضع.

خرجتُ. رأيت عجوزاً عارياً من خصره حتّى قدميه، يئنّ على سرير متحرّك. وممرّضتان تبذلان أقصى جهدهما للتخفيف عن أمّ مصابة بالهستيريا وهي تحمل رضيعها الذي يبكي بين يديها. تابعت إلى آخر الممرّ فألفيتُني في الخارج، أمام مدخل الطوارئ حيث تصطفّ سيّارات الإسعاف مطفأة الأضواء. فكّرت في ما قالته لي سيْما بخصوص المِرقاب العملاق الموضوع في أعلى جبل بالقرب من لوس أنجلس. تشجّعي، همستُ بصوت خافت. شارا، شارا الصغيرة. تشجّعي، ربّما يوماً ما تكونين ذلك الشخص الذي لم نلحظه على الأرض، فأخذ بثأره منّا جميعاً، وها هو يلوّح لنا من القمر.

كان دعاءً، أو ربّما محاولة لطرد الأرواح الشريرة. سيْما الممدّدة هناك من الجهة الأخرى للأبواب، كانت تحتاج إلى كلّ مساعدة بوسعنا أن نقدّمها لها. لستُ مؤمناً، ولكن ينبغي أن نبتكر خالقاً حين تستدعي الضرورة ذلك.

لذا صلّيت لِمرقابٍ يدعى شارا. إذا نجت سيْما، فسأدفع لها تكاليف الرحلة. أريد معرفة من هو ويلسون ذاك الذي أعار اسمه للجبل.

لا شيء يمنع أن يكون للإله اسم. فلماذا لا يكون اسم الخالق ويلسون؟

إذا كانت ستموت، فسيكون ذلك ذنبي. لو كنتُ رأيتها في الوقت الذي كانت تبكي فيه، فلعلّها ما كنت ستشرّط نفسها. أنا طبيب، وكان ينبغي عليّ أن أفهم. وقبل أيّ شيء آخر أنا إنسان كان عليه أن يتخيّل الوحدة التي لا تصدّق، التي قد تشعر بها فتاة تتنقّل ليلَ نهارَ مع سيف طويل قاطع.

اشتقتُ لأبي فجأةً. منذ موته لم ينتبْني هذا الإحساس. غيابه سبّب لي حينئذ ألماً كبيراً. كان يربطنا تواطؤ ضمنيّ حتّى لو لم نتبادل أحاديث حميمة. لقد عاش إلى أن رآني طبيباً، ولم يكن يخفي دهشته وفخره اللّذين شعر بهما بنجاحي. في آخِر أيامه، حين كان راقداً في الفراش يعاني من ألم هائل بباعث من سرطانه - الذي كان قد انتشر، من نقطة سوداء صغيرة تحت كعب قدمه إلى تشعّبات واسعة كان يشبّهها بالطّحلب على حجر- ، كان دائم الحديث عن الصدريّة البيضاء، التي كان يحقّ لي ارتداؤها. كنت محرَجاً من هذه النظرة إلى صدرية الطبيب باعتبارها مرادفة للقوّة. فهمت لاحقاً أنّه قد كلّفني بالانتقام له. هو الذي ارتدى سترة بيضاء طوال حياته، وكان مسحوقاً. انتقامه، كان أنا. فالطبيب شخص لا يمكن معاملته بازدراء.

في تلك اللّحظة، كنت أفتقده. أفتقده هو والرحلة السحريّة التي اصطحبني فيها إلى البحيرة الصغيرة السوداء في الغابة. كنت أتمنّى أن أكون حاضراً في غير ذلك المكان، أتمنّى الرجوع في الزمن، أن أعيد تفكيك الجزء الأكبر من حياتي. بدت لي أمّي لوهلة قصيرة، خزامى ودموع، عيشة لم أفهمها يوماً. هل كانت أمّي أيضاً تحمل سيفاً حادّاً غير مرئيّ؟ هل كانت في تلك اللحظة تقف على الضفّة الأخرى من النهر، ترفع يدها، ملوّحة لسيْيا؟

حاولت في داخلي مخاطبة آرييت ولويز أيضاً. لكنّهما كانتا صامتتين صمتاً مطبقاً، كما لو أنّهما تقولان إنّ عليّ هذه المرّة تدبّر أمري بمفردي.

عدت إلى داخل المستشفى ووجدت قاعة انتظار صغيرة وخالية. بعد وقت قصير، أتى شخص ليخبرني بأنّ حالة سيّما ما زالت خطرة وأنّهم سينقلونها إلى غرفة الإنعاش. كان يدفع العربة رجلان ببشرة سوداء. دلفتُ إلى المصعد معهما، ابتسم لي أحدهما، فبادلته الابتسام. تمنّيت أن أحكي له عن مِرقاب جبل ويلسون. كانت ممدّدة، عيناها مغمضتان، وموصولة إلى كيس المصل مع أنبوب أنفيّ للأوكسجين. انحنيت وهمست بإذنها:

- شارا، حين تتحسّنين، ستذهبين إلى جبل ويلسون وسوف تشاهدين هناك شخصاً على القمر يشبهك إلى درجة لا تصدّق.

صارحني الطبيب بشكوكه؛ قال إنّه يرجّح وجوب إجراء عمليّة. كان مندهشاً لعدم تفاعل سيّما مع العلاج. سألني عدّة أسئلة، لم أتمكّن من الإجابة عليها. لم أكن أعلم ما إذا كانت مريضة أو كانت قد قامت بمحاولات سابقة. كانت المرأة التي قد تستطيع الإجابة في الطريق، لن تتأخّر.

وصلت آغنيس بعد العاشرة بقليل. سبقَ أن تساءلتُ كيف يمكنها القيادة بذراع واحدة. هل كانت سيّارتها من نوع خاصّ؟ لم يكن سؤالاً ملحّاً. قدتُها إلى سيّما، غرقت آغنيس بالدموع. كانت تبكي بلا صخب، إلّا أنّي لم أكن أريد أن تسمعها سيّما، فسحبتها إلى الممرّ.

- لم يطرأ تغيّر على حالتها، ولكن كلّ شيء صار أفضل بمجرّد حضورك. حاولي أن تكلّميها. هي بحاجة لأن تشعر بحضورك.

- هل بإمكانها سماعي؟
- لا نعرف. لنأمل ذلك.

عادت آغنيس إلى جوار سيما. ثمّ تكلّمت مع الطبيب. واستطاعت أن تجيب على كلّ أسئلته: لا مرض، لا أدوية، لا محاولات انتحار سابقة على حدّ علمها. قال الطبيب، الذي كان من عمري، إنّ حالتها مستقرّة منذ وصولها المستشفى. ولا شيء كان يدعو إلى القلق.

بدا الارتياح على آغنيس. كان في الممرّ ماكِنة مشروبات، فتَسَاعدنا لتجميع قطَع نقود تكفي لكوبين من القهوة الرديئة. أدهشتني مهارتها إذ تمكّنت بيد واحدة من أن تقوم بما لم أستطع فعله إلّا بكلتا يديّ.

أخبرتها القصّة منذ البداية. استمعتْ دون أن تقاطعني، وهزّت رأسها.

- يحتمل جدّاً أنّها كانت تنوي الذهاب إلى روسيا. سيما لا تكتفي بالطرُق المعتادة مثلنا، وإنّما تسعى دوماً إلى تسلّق الجبال.
- ولكن لماذا أتت لتراني؟
- أنت تعيش على جزيرة. وفي الجهة الأخرى من هذا البحر، تقع روسيا.
- ولكن ما إن وصلت إلى جزيرتي حتّى حاولت قتل نفسها... لست أفهم.

- ما عاشته سيما لا يمكننا حتّى تخيّله. من المستحيل أن ترى على وجه شخصٍ لأيّ درجة هو متضرّر من الداخل.

- روت لي بعض الأشياء.
- إذن يمكنك أن تتخيّل الباقي.

نحو الثالثة ظهراً، أتت ممرّضة تخبرنا بأنّ حالة سيما كانت مستقرّة، وأنّنا

كان يمكننا الذهاب إذا أردنا، وستتّصل هي لتبلغنا بأيّ طارئ. ولكن لم يكن لدينا أيّ مكان نذهب إليه، فبقينا في المستشفى، النهار بأكمله والليلة التي تلته. أخيراً تمكّنت آغنيس من أن تغفو متكوّرة على مقعد. وبقيت أنا على كرسيّ أتصفح مجلّات قديمة بألوان صارخة يؤكد فيها أناس لا أعرفهم على أهمّيتهم الكبيرة جدّاً. من حين لآخر كنّا نذهب لنأكل شيئاً في الكافيتريا. دون أن نتغيّب لفترات طويلة.

بعد الخامسة صباحاً بقليل، دخلت ممرّضة قاعة الانتظار وأعلنت عن تدهور مفاجئ في حالة سيّما مترافق مع نزيف داخليّ. كان الأطبّاء ينوون إجراء عمليّة على الفور لإيقاف النزيف وإعادة الوضع إلى الاستقرار ثانية.

كنّا قد وثقنا كثيراً بأنفسنا. وها هي سيّما تبتعد من جديد...

عاد الطبيب في السادسة والثلث. وجهه رماديٌّ من الإنهاك. جلس وحدّق في يديه. لم ينجح في إيقاف النزيف. سيّما مضت، لم تكن قد استيقظت في أيّة لحظة. وإذا أردنا، فهو يستطيع أن يحوّلنا إلى قسم المساعدة النفسيّة في المستشفى.

ذهبنا سويّة لرؤيتها. كان التيّار الكهربائيّ مفصولاً عن الأسلاك، وصفير الآلات قد صمت. اللون الشمعيّ الذي يميّز الأشخاص الذين ماتوا للتوّ كان قد كسا وجهها. لا أعرف كم ميت رأيت في حياتي. شهدت أشخاصاً ينازعون، وشاركت في دراسات في الأمراض التشريحيّة، وأمسكت بين يديّ أدمغة رجال ونساء. ورغم ذلك أنا الذي انفجرت بالبكاء فيما بقيت آغنيس خرساء من الألم. أمسكت ذراعي بيدها الوحيدة وشدّت عليها، أحسست بقوّتها؛ كنت أتمنّى ألّا تفلتها أبداً.

اقترحتُ أن أبقى معها، لكنّها رفضت. لقد فعلت ما بوسعي فعله، وهي ممتنّة لذلك، غير أنّها أرادت البقاء بمفردها للاعتناء بسيُما. أوصلتني إلى سيّارة الأجرة. كان الصباح جميلاً ولا يزال بارداً. رأيت على المنحدر مقابل مدخل جناح الطوارئ زهر القدّيسين متفتّحاً.

كانت لحظة تفتح زهور القدّيسين في ذلك الصباح، في حين كانت سيُما ممدّدة ميتةً داخل غرفة في ذلك المستشفى. كانت قد تلألأت كالياقوت للحظات قصيرة. ثمّ صارت كأنّها لم تكن قطُّ.

لا يخيفني الموت إلّا بلا مبالاته الهائلة.

- السيف، قلت. والحقيبة، لقد كان معها حقيبة أيضاً. ماذا أفعل بهما؟

- سأتّصل بك. ليس فوراً على الأرجح. أعرف أين أجدك.

نظرت إليها وهي تختفي وراء الأبواب الزجاجيّة. ملاك أقطع طافح بالحزن، فقدَ للتوّ إحدى فتياته الرائعات، سيّئات التربية. صعدت إلى سيّارة الأجرة، وأبلغت السائق وجهتي. من نظرته في المرآة، فهمت أنّه كان لي هيئة غريبة على ما يبدو، بجزمتيّ المقصوصتين، ولباسي المجعّد، فضلاً عن لحية نابتة عمرها يومان وعينين غائرتين.

- اعتدنا في المسافات الطويلة أن نأخذ دفعة مقدّماً. حصلتْ لنا بعض التجارب السيّئة.

وأنا أدسّ يدي في جيوبي أدركت أنّني لم أحضر محفظتي. انحنيت صوب السائق.

- منذ قليل ماتت ابنتي، وأريد العودة إلى البيت. ستحصل على نقودك، ولكن أريد منك أن تكون حذراً على الطريق.

كنت غارقاً في دموعي، لم يصرّ وبقي صامتاً حتّى وصولنا إلى المرفأ.

انتبهت إلى أنّها العاشرة صباحاً. كانت نسائم خفيفة تهبّ على سطح الماء. طلبت منه أن يقف أمام المبنى الأحمر لخفر السواحل. على الأرجح أنّ هانس لوندمان رأى السيّارة فما إن وصلنا حتّى كان خارج المبنى. وبمجرّد نظرة عين فهم أنّ الأمور لم تجرِ على ما يرام.

- لم تنجُ، أخبرته. لوهلة اعتقدنا أنّها ستنجو، إلّا أنّه حصل نزيفٌ داخليٌّ لم نتوقّعه أبداً. احتاج إلى أن تقرضني ألف كورون لأدفع لسيّارة الأجرة.

- سأسدّد ببطاقتي، قال هانس لوندمان وهو متّجه صوب السيّارة.

فهمت أنّ مناوبته قد انتهت منذ ساعات، وكان قد بقي يترقّب وصولي. كان هانس لوندمان يقطن على جزيرة في الأرخبيل الجنوبيّ.

- سأوصلك، قال.

- ليس لديّ مال في البيت. ولأحصل عليه ينبغي أن أطلبه عن طريق يانْسون.

- من يكترث بالمال في مثل هذا الظرف؟

أشعر بالارتياح دوماً حين أكون في البحر. كان قارب هانس لوندمان قارب صيد قديماً تمّ تكييفه، يتقدّم ببطء وثقة. كان هانس رجلاً مستعجلاً داخل إطار عمله، إلّا أنّه ليس كذلك خارجه.

ركن قاربه. كانت الحرارة مرتفعة والشّمس مشرقة. لقد وصل الربيع ولكن كما لو أنّه لم يكن يعنيني، وكما لو كانت تلك الخضرة الطريّة بالنسبة لي توجد في الجهة الأخرى من سور غير مرئيّ. ودّعت هانس.

- آه، على فكرة، ثمّة زورق صغير يرسو من جهة «التنهّدات». زورق مسروق.

فهمَ فوراً.

- سنعثر عليه غداً وأنا أقوم بدوريّة في المنطقة. لا نعرف من هو السارق، ولا لماذا أختار تركه في ذلك المكان.

تصافحنا.

- ما كان يجب أن تموت.

- أجل. ما كان يجب.

بقيتُ على الرّصيف فيما كان هانس يعاود الانطلاق. رفع يده ومضى. جلست على المقعد. مرّ وقت طويل قبل أن أصعد باتّجاه البيت. كان الباب مفتوحاً على مصراعَيه.

(3)

تأخّر إيراق السنديان بشكل ملفت هذا العام. دوّنت في يوميّاتي أنّ السنديانة الكبيرة التي تنتصب بين مرآب القوارب وما كان فيما مضى حظيرة جَدّيَّ لم تخضرّ حتّى الخامس والعشرين من مايو. والسنديانات النامية في الجهة الشماليّة من الخليج -الخليج الذي لأسباب مبهمة كنّا ندعوه على الدوام «خليج المشاجرة»- أورقت منذ عدّة أيّام فقط.

يحكى أنّ أشجار السنديان هذه زُرعت في هذه الجزر في بداية القرن التاسع عشر من قبَل المملكة، لتأمين الخشب الضروريّ لبناء السفن الحربيّة في كارلسكرونا. في إحدى ليالي طفولتي نزلت صاعقة على غابة السنديان، محطّمةً إحدى شجراتها. نشر جدّي ما تبقى من جذعها. وحكى لي أنّ تلك السنديانة كانت قد زُرعت وبدأت بالنموّ في عام 1802، في عهد نابليون. لم أكن أعرف حينذاك من هو نابليون، ولكن فهمت أنّ السنديانة تعود إلى زمن بعيد. قصة حلقات نموّها تبعتني طوال حياتي. أيّام بيتهوفن، كانت السنديانة لا تزال شجيرة غضّة. وعند ولادة أبي، كانت قد أصبحت شجرة.

أتى الصيف، كما يأتي غالباً في الأرخبيل، بقفزات متعاقبة. لا نعرف البتّة بأيّة لحظة وصل تماماً. بالنسبة إليّ، لم أكن أرى له كبيرَ أثرٍ، رغم

الملاحظات السريعة التي كنت أفرض على نفسي تدوينها في دفتر يوميّاتي. عادةً، يتناقص إحساسي بالوحدة مع ارتفاع الحرارة، غير أنّ هذا العام لم يكن كذلك. كنت لا أزال في هذا المكان برفقة منملتي، مع سيف قاطع وحقيبة سيْما شبه الفارغة.

تكلّمت أكثر من مرّة مع آغنيس خلال هذه الفترة. أخبرتني بأنّ الجنازة أقيمت في كنيسة موغاتا، وخلا آغنيس والفتاتين اللتين قابلتهما عندها، ميرندا وعايدة، لم يحضر سوى رجل عجوز، كان يدّعي أنّه أحد أقرباء سيْما البعيدين. وصل بسيّارة أجرة؛ أخبرتني آغنيس أنّها خافت أن يموت بين ذراعيها، لفرط هزال هيئته. لم تفلح في أن تحصل منه على تحديد درجة قرابته مع سيْما. ربّما التبست عليه الفتاة؟ حين أرته آغنيس صورة سيْما، لم يكن متأكّداً من التعرّف عليها.

ولكن أيّة أهمية لذلك؟ كان ينبغي أن تكون الكنيسة مزدحمةً، ملأى بأناس قدموا ليودّعوا تلك التي لم تحظ يوماً بفرصة اكتشاف ثرائها الداخليّ ولا العالم الذي كان عليه أن يفتح أبوابه أمامها.

كان النعش مغطّى بباقة من الورد الأحمر. أخذت إحدى نساء الأبرشيّة مكانها أمام الأرغن وأنشدت ترتيلتين، وإلى جانبها طفلها الذي لم يكن يثبت في مكان، كما أخبرتني آغنيس. ثمّ قالت آغنيس بضع كلمات. أمّا القسيس، فقد تمكّنت من إقناعه بعدم التمادي بالحديث عن إله طيّب عالم بكلّ شيء.

اقترحت أن أموّل شراء شاهدة رخاميّة، حين علمت أنّ قبر سيْما لن يكون عليه سوى رقم. وفي أحد الأيّام أحضر لي يانْسون رسالة من آغنيس متضمّنة رسماً لشاهدة القبر كما تخيّلَتْها؛ سيكون عليها اسم سيْما

وتواريخها، وكانت تفكّر في رسم وردة في أعلاها.

اتّصلت بها في مساء ذلك اليوم، وسألتها إذا لم يكن من الأجدر أن نقش سيف الساموراي بدل الوردة. أجابتني بأنّها كان لديها ذات الفكرة.

- غير أنّه سيجلب لي المتاعب. وليس لديّ القوّة لأقاتل من أجل الحقّ بنقش سيف على شاهدة قبر سيْما.

- ما الذي ينبغي أن أفعل بأغراضها؟ السيف والحقيبة؟

- ما بداخل الحقيبة؟

- ألبسة داخليّة، بنطال و«تي شيرت»، وخريطة قديمة عن بلدان البلطيق والخليج الفنلنديّ.

- سآتي لآخذها. أريد أن أرى منزلك. ورؤية المكان الذي بكت فيه سيْما، قبل أن تقدم على طعن نفسها.

- كان عليّ أن أنزل. أعرف، لقد أخبرتك سابقاً بذلك. سأندم أبداً أنّي لم أفعل ذلك.

- لا أتّهمك بشيء. سبق أن رأيت برفقتك مكان نهايتها، والآن أريد أن أرى فقط المكان الذي بدأت تموت فيه.

اتّفقنا على أن تزورني في آخِر أسبوع من مايو. إلا أنّ أحداثاً حالت دون ذلك. أرجأت الموعد مرّتين متواليتين، في المرّة الأولى كانت ميرندا فارّة، وفي الثانية كانت مريضة. عاود السنديان اخضراره ولم تكن آغنيس قد أتت، وحتى ذلك الحين وضعت السيف وحقيبة ثياب سيْما في حجرة الصالون.

صحوت ذات ليلة بعد حلم رأيت فيه قرية النمل وقد بدأت تتوسّع بضمّ الحقيبة والسيف إليها. اندفعت إلى الطابق الأرضيّ وفتحت الباب.

كان النمل يواصل ضمّ الطاولة والغطاء الأبيض ببطء.

نقلت أغراض سيْما إلى مرآب القوارب.

أخبرني يانْسون ذات يوم، ودون أن يبدو عليه أيّ تلميح، بأنّ خفر السواحل قد عثروا منذ بعض الوقت على زورق مسروق بمحرّك من ناحية جزيرتي «التنهّدات». فهمت أنّ هانس لوندمان كان عند وعده.

- في أحد الأيّام سنتورّط بهم، أكمل يانْسون بنبرة مرّة.

- عمّن تتكلّم؟

- رجال العصابات، إنّهم يتدفّقون من كلّ الأماكن وفي ذات الوقت. ماذا نستطيع أن نفعل للدفاع عن أنفسنا؟ هل سنهيم على وجوهنا في عرض البحر؟

- إذا وافقتك فما غاية قدومهم؟ لا يوجد شيء هنا ليأخذوه.

- مجرّد التفكير بذلك، يرفع ضغطي.

ذهبت وأحضرت جهازي فيما تمدّد يانْسون على المقعد، وبعد استراحة خمس دقائق قست ضغطه.

- إنّه ممتاز: 14/ 8.

- أعتقد أنّك مخطئ.

- في هذه الحالة أنصحك بتغيير الطبيب.

عدت إلى المرآب وانتظرت في العتمة حتّى سمعت إقلاع قارب يانْسون.

في الأيّام الأخيرة قبل تفتّح السنديان، أوليت قاربي العناية أخيراً، إذ نجحت بعد جهود مضنية بتجريده من الغطاء الثقيل الذي كان يحميه. عثرت تحت العارضة الرئيسيّة على سنجاب ميت، أدهشني وجوده إذ أنّني

لم أرَ قطُّ سنجاباً في الجزيرة، ولم أسمع حتّى بوجوده.

كان القارب في حالة أسوأ ممّا خشيت. وبعد يومين من الجرد الدقيق لما يتطلّبه العمل كنت مستعدّاً لتركه برمّته. ومع ذلك واصلت في اليوم الثالث كشط الجوانب كي أخلّصها من طلائها المتقشّر. اتّصلت بهانس لوندمان وطلبت نصيحته، فوعدني بأن يمرّ. كان العمل يتقدّم ببطء. لم أكن معتاداً على أن تكون لي انشغالات يوميّة أخرى سوى حمّامي الصباحيّ وتسجيل الملاحظات في دفتري.

في اليوم الذي بدأت فيه بكشط القارب، أحضرت مجلّد يوميّاتي الذي يعود إلى سنتي الأولى في الجزيرة، وفتحته بتاريخ اليوم، وقرأت بدهشة كبيرة أنّي كنت ثملاً قبل يوم من ذلك التاريخ. «البارحة، شربت كثيراً». هذا فقط. لم يكن لديّ إلّا ذكرى غائمة؛ لم أتذكّر إطلاقاً أسباب تلك السّكْرَة. في الليلة التي سبقتها كنت كتبت فقط أنّي أصلحت البالوعة، وفي اليوم الذي تلاها أنّي رميت شِباكي والتقطت ثلاث سمكات من فصيلة ذئب البحر وسبعاً من سمَكات موسى.

أعدت المجلّد القديم إلى مكانه. كانت شجرة التفّاح قد أزهرت. في المساء، تراءت لي جدّتي على مقعدها بهيئة متلألئة متداخلة مع الخلفيّة، مع جذع الشجرة والصخور وشجيرات العلّيق.

في اليوم التالي، أحضر لي يانْسون رسالتين، واحدة من آريت والأخرى من لويز. كنت قد أخبرتها بعد تردّد عن زيارة سيما وموتها المأساويّ. بدأتُ بقراءة رسالة آريت. كالعادة، لم تكن تقول الكثير. كانت، كما كتبت، أكثر إجهاداً من أن تجد القوّة الكافية لتخطّ رسالة حقيقيّة. تابعت القراءة مقطّباً حاجبيّ؛ بصعوبة بالغة يُقَرأ خطها، لم يكن هكذا في السابق.

كانت الكلمات تتلوّى على الورق. فضلاً عن ذلك، كانت تتكلّم عن أشياء متناقضة: فحالتها كانت تتحسّن، لكنّها تشعر بأنّها أكثر مرضاً. ولم تتطرّق إلى موت سيْما.

وضعت الرسالة. قفزت القطّة على الطاولة. أحياناً أحسد الحيوانات، لأنّها غير مجبرة على اتّخاذ موقف من الرسائل التي تصل في ظروف مختومة. هل كانت آرييت تعاني من دوار بسبب الأدوية لحظة كتابتها الرسالة؟ التقطت الهاتف واتّصلت بها لأتأكّد، كنت أودّ معرفة ما إذا كانت تنزلق إلى المرحلة الأخيرة من حياتها. كان الهاتف يرنّ في الفضاء. جرّبت رقم جوّالها. لا جواب. سجّلت رسالة أطلب منها أن تعاود الاتّصال بي.

ثمّ فتحت رسالة لويز. كانت تخبرني عن شبكة مدهشة تحت الأرض تُعرف باسم مغارات لاسكو، في الجنوب الغربيّ من فرنسا، حيث اكتشف صبْية بالمصادفة أثناء لعبهم سنة 1940 رسوماً قديمة على جدران الكهوف تعود إلى سبعة عشر ألف عام. يصل ارتفاع بعض الحيوانات المصوّرة على الصخور إلى أربعة أمتار. كتبت لي:

هذه الأعمال الفنيّة الموغلة في القدم مهدّدة بالاختفاء الآن، لأنّ المجانين فقدوا صوابهم هناك ووضعوا في الممرّات آلات لتكييف الهواء لكي لا يُحرم السيّاح الأمريكيون ولا تحت أيّة ذريعة من رفاهيتهم، التي يشكّل فيها الهواء البارد الاصطناعيّ عنصراً هامّاً. في المحصّلة، تعرّضت الجدران إلى هجوم قطعان من الفطريّات المعاندة. وإذا لم يبادر أحد للقيام بشيء، وإذا بقي العالم مكتوف الأيدي، فسيختفي أحد أقدم متاحفنا الفنيّة ولن يتسنّى للأجيال القادمة مشاهدة هذه اللوحات إلّا في نماذج منسوخة.

كان في نيّة لويز التصرّف. هذا ما أبلغتني به في رسالتها. خطر لي أنّها ستأخذ قلمها لتكتب للمسؤولين الأوربّيين. ملأتني هذه الفكرة بالزهو، لديّ ابنة مناضلة.

يبدو أنّها كتبت رسالتها على عدّة مراحل لأنّ الخطّ والأقلام كانت تتبدّل. بين مقطعين مخيفين ومليئين بالغضب، كانت تدوّن ملاحظات يوميّة: تعرّضتْ لالتواء كاحلها وهي تحضر الماء، كان جاكونيلي قد مرض، وكان ثمّة قلق من إصابته بالتهاب رِئَويّ ولكنّه بدأ يتماثل للشفاء تدريجيّاً. واستني بموت سيْما. وفي النهاية أضافت:

سآتي إليك قريباً. أريد رؤية الجزيرة التي اختفيتَ فيها طوال هذه السنوات. كنت أحلم بأن يكون أبي رجلاً باهر الجمال، مثل كرافاتّجو. لا يُمكن القول إنّك كذلك. ولكن على الأقلّ، لم تعد تستطيع جعل نفسك غير مرئيّ. أريد معرفتك، أن أقبض على إرثي، أريد أن تشرح لي كلّ ما لم أفهمه إلى الآن.

ولا كلمة بخصوص آرييت. هذا يفوق قدرتي على الفهم. أيُعقل ألّا تكون مهمومة إطلاقاً بوضع أمّها التي تحتضر؟

عاودتُ طلب أرقام آرييت، لا جواب أيضاً. اتصلت بجوّال لويز، كان مطفأً. تسلّقت الصخرة وراء البيت. كان يوماً جميلاً عند بداية الصيف. لم يكن الحرّ شديداً بعد، والجزر بدأت بالاخضرار. لمحت من بعيد أحد المراكب الشراعيّة لهذا الموسم. يقوم بجولة، دون أن أتمكّن من معرفة

جهة إيابه أو ذهابه. انتابتني رغبة عارمة ومباغِتة في مغادرة جزيرتي. لقد أهدرت شطراً من حياتي كبيراً بالذهاب والإياب بين الرصيف والمطبخ.

كنت أريد الرحيل ببساطة. حين ظهرت آرييت على الجليد مع عكّازها الرباعيّ، أبطلتِ اللعنة التي أبقتني مسجوناً منذ أمد طويل، بقراري، وكأنّي في قفص. اكتشفت أنّ الاثني عشر عاماً التي أمضيتها على الجزيرة كانت أعواماً ضائعة، لا أكثر ولا أقلّ: تركت الماء يتسرّب من وعاء مثقوب. لكن لا عودة إلى الوراء، ولا نستطيع البدء من جديد وترتيب الأشياء بطريقة مختلفة.

درت حول الجزيرة. كانت تطغى روائح البحر والأرض، وعلى الشاطئ طيور العقعق المرحة تنقر بمناقيرها الحمر هنا وهناك. تملّكني إحساس بأنّي أجوب ساحة سجن، طولاً وعرضاً، قبل أيّام من اجتياز البوابة حيث سأعود رجلاً طليقاً من جديد. ولكن هل حقّاً سأقوم بذلك؟ وإلى أين يمكنني الذهاب؟ وأيّة حياة تنتظرني؟

جلست تحت سنديانة في الجهة الشماليّة. بغتة، شعرت أنّي مستعجل. أيّاً كان المستقبل الذي ينتظرني، لم يعد هناك وقت لأضيّعه.

في المساء نزلت إلى الرصيف وركبت قارباً وبدأت أجدّف إلى ستارودن، وصولاً إلى «رأس السّعادى»[1]، حيث كان القاع مستوياً. وضعت الشبكة هناك مع أنّه لم يكن لديّ أمل في اصطياد أيّ شيء، خلا سمكة موسى وحيدة أو ربّما سمكة من فصيلة ذئب البحر ستفرح بها قطّتي. أمّا ما تبقّى في شبكتي فسيكون غالباً طحالب لزجة بدأت تكسو قاع بحر البلطيق.

هذا البحر الممتدّ أمام بصري في هذه الأماسي الجميلة عند بداية الصيف، بدأ يتحوّل، شيئاً فشيئاً، إلى مستنقع.

(1) السعادى أو السعديّة نبات ينمو في الأمكان المستنقعيّة، له أزهار نهاياتها مدبّبة.

في وقت متأخّر من السهرة، أقدمت على فعلٍ لم أفهمه قط. أحضرت رفشاً وبدأت أنبش قبر كلبتي. بسرعة ارتطم الرفش بجسدها؛ أخرجت الجثّة كاملة. كان التحلّل في مرحلة متقدّمة، وبدأ الدود يأكل مخاطيّات الفم، والعيون، والأذنين، وفتح المعدة. عنقود أبيض من الدود كان ملتصقاً بمؤخّرتها. وضعت الرفش وذهبت لكي أحضر القطّة التي كانت نائمة على مقعد المطبخ. حملتها بين ذراعي وعدت بها إلى الحفرة ووضعتها فوق الجثة. قفزت القطّة عاموديّاً كما لو أنّها رأت أفعى، وقبل أن تختفي عند زاوية البيت التفتت باتّجاهي، متأهّبة للهروب من جديد. وضعت بضع ديدان كبيرة في يدي متسائلاً إذا ما كنت أستطيع ابتلاعها أو أنّ الدوار سيمنعني. ثمّ نفّضت يدي على الكلبة وأعدت إغلاق القبر بسرعة.

لم أكن أعلم ماذا أصنع، هل كنت أتهيأ لفتح تابوت آخر، ولكن في داخلي هذه المرّة؟ هل أتهيأ لفتحه، والتجرؤ على رؤية ما دفن فيه منذ زمن طويل؟

فركت يدي مطولاً تحت صنبور المطبخ. أمرضني ما فعلته.

في الحادية عشر ليلاً عاودت الاتّصال بآرييت، ثمّ بلويز. ما من أحد إلى الآن.

مبكّراً في صباح اليوم التالي رفعت شبكتي، كانت تحوي سمكتَي موسى ضئيلتين وسمكة من فصيلة ذئب البحر، ميتة. صَدَقت مخاوفي، كانت الشبكة مليئة بالرواسب الطينيّة والطحالب اللزجة. لزمني أكثر من ساعة حتى نَظفتُ إلى حدّ ما، قبل أن أعلّقها ثانيةً على حائط المرآب.

شعرت بالغبطة لأنّ جدّي لم يشهد اختناق الدنيا التي أحبّها وهي تحتضر تدريجيّاً. عدت بعدها لكشط هيكل المركب. كنت أعمل وأنا شبْه عارٍ، وأحاول إعادة وصل ما انقطع مع قطّتي، التي كانت محافظة على حذرها بعد مقابلتها الكلبة الميّتة بالأمس. لم تقبل بسمكات موسى، وأخذت سمكة ذئب البحر فقط، حملتها إلى فجوة صخريّة وأخذت تلوكها ببطء. عند العاشرة، صعدت إلى البيت لأتّصل. لا أحد على الطرف الآخر من الخطّ. لم يكن يومَ بريدٍ، وليس بإمكاني فعل شيء.

أعددت بيضاً للغداء وأكلته وأنا أتصفّح نشرة إعلانيّة تعلن عن طلاءات متنوّعة للمراكب الخشبية. كان عمر النشرة ثماني سنوات.

بعد الأكل تمدّدت على المقعد. حقّاً، لقد أتعبني كشط المركب. غفوت.

كانت تقريباً الواحدة ظهراً حين استفقت قافزاً من مكاني. تناهى من النافذة المفتوحة صوت محرّك قارب ديزيل قديم يشبه بإفراطٍ محرّك يانْسون. ولكن في ذلك اليوم بالذات لم يكن يتوجّب على يانْسون أن يأتي. نهضت، حشرت قدميَّ في الجزمتين وخرجت. كان الصوت يقترب. بلا أدنى شكّ، هو محرك يانْسون بالفعل -كان يصدر صوتاً متقطّعاً لأنّ خرطوم كاتم الصوت فيه ينزل تحت الماء تارةً، وتارةً فوقه. نزلت أنتظره على الرصيف. حسبَ الصوت كان يتقدّم ببطء. لماذا؟ أخيراً، ظهرت مقدّمة المَركب عند زاوية الصخور. بالفعل كان يتقدّم ببطء شديد.

ثمّ فهمت: كان يجرّ مقطورة، أو بالأحرى، عبّارةً قديمة لنقل الدوابّ. وأنا طفل كنت أرى هذه العبّارات تنقل أبقاراً إلى بعض الجزر التي تُستثمر كمراعٍ في الصيف. لكنّ ذلك الزمن مضى. منذ عودتي للعيش في الأرخبيل، لم أَرَ أيّاً منها.

على سطح عبّارة الدواب كانت تنتصب مقطورة لويز. لويز نفسها كانت واقفة في فرجة بابها، كما رأيتها أوّل مرّة. كان شخص آخر أيضاً على متن العبّارة، متكئاً على الحافّة: آرييت! مع عكّازها الرباعيّ.

لو استطعت لهربت سباحةً، ولكن ليس لدي أيّ مكان أذهب إليه، ولا مكان أختبئ به. أبطأ يانْسون السرعة. ثمّ فكّ العبّارة ودفعها لتتزحلق وحدها إلى آخر الخليج الصغير. كنت مذعوراً، وأنا أرى العبّارة مع المقطورة تتهاديان برخاوة على الشاطئ. أرسى يانْسون مركبه عند جانب الرّصيف.

- لم أتوقّع أنّ هذه العبّارة القديمة ستعود يوماً للاستخدام، قال. آخر مرّة أخرجتها فيها كانت لنقل حصانين إلى روكسكار، منذ خمسة وعشرين عاماً. أو ربّما أكثر.

- كان بإمكانك أن تتّصل بي، أن تخبرني.

بدت دهشة صادقة على يانْسون.

- اعتقدت أنّك على علم. بأيّة حال هذا ما أخبرتني به المدعوّة لويز. حسناً، أظن أنّنا بحاجة إلى جرّارك. المدّ عالٍ لحسن حظنا. وإلّا لكنّا اضطررنا لإنزال المقطورة في الماء.

لم يخبرني أحد بشيء. لهذا السبب كانت هواتفهم صامتة. ساعدت لويز أمّها على النزول من العبّارة مع العكّاز الرباعيّ. بدت آرييت نحيلة؛ لقد خسرت الكثير من قواها منذ ذلك اليوم الذي صفقتُ فيه باب المقطورة.

نَزلتُ إلى الشاطئ. كانت لويز تسند آرييت.

- مكانك جميل، قالت لويز. مع أنّي أفضل الغابة إلّا أنّه جميل.

- أعتقد أنّ عليّ الترحيب بكما.

رفعت آرييت رأسها. كانت تتصبّب عرقاً.

- إذا أفلتُّ يديّ سقطتُ. أتمنّى الذهاب والاستلقاء في قرية النمل.

ساعدناها على الصعود إلى البيت. قلت ليانْسون إنّه يستطيع أن يحاول إحياء جرّاري القديم إذا أراد. تمدّدت آرييت على سرير التخييم. كان تنفّسها يحدث جلبةً؛ بدا أنّها تتألّم. ذهبت لويز وأحضرت كأس ماء مع قرص أعطته لها، وجدت صعوبة في بلعه. ثمّ نظرت إليّ.

- لم يبق لي الكثير من الوقت، قالت. هات يدك.

أخذت يَدَها الدافئة في يدي.

- أرغب في البقاء ممدّدة داخل هذه الغرفة، أسمع البحر وتكونان أنتما إلى جواري، هذا كلّ شيء. وتعِدكما العجوز بأن تكون محتمَلة، لن أصرخ حتّى حين أتألم. سآخذ أقراصي، وتحقنني لويز بإبرة إذا لزم الأمر.

أغمضت عينيها، كنّا ننظر إليها حين أخلدت للنوم. دارت لويز حول الطاولة تتفقّد قرية النمل الآخذة في التوسّع.

- كم نملة هنا؟ همست.

- ما يقارب المليون، على ما يظهر، أو ربّما أكثر.

- منذ متى هي هنا؟

- هذه هي السنة الحادية عشرة.

خرجنا من الغرفة.

- كان بإمكانك أن تتّصلي، قلت لها.

انتصبت لويز أمامي وتشبثت بكتفيّ بقوّة.

- لو اتّصلت بك لكنت رفضت. لم أكن أريد المجازفة. لقد أتينا وانتهى

الأمر. أنت مدين لنا، وخاصّة لها. وإذا كانت تريد أن تسمع صوت البحر عند لحظة الموت بدلاً من أبواق السيّارات، فذلك من حقّها. وبوسعك أن تشعر بالامتنان لأنّي لن ألاحقك باتّهاماتي إلى آخر حياتك.

خَرجَت من البيت. في غضون ذلك، كان يانْسون قد نجح في تشغيل جرّاري. كان حدسي على الدوام أنّ لديه مهارة عالية مع المحرِّكات المستعصية.

ربطنا المقطورة، التي كانت لا تزال على متن العبّارة، ونجحنا بعد جهود كبيرة تولّى يانْسون إدارتها في إنزالها عنها.

- أين تريد وضعها؟ صرخ من فوق الجرّار.

- هنا! صرخت لويز وهي تشير إلى رقعة من العشب تلي شريط الشاطئ الرمليّ، من الجهة الأخرى لمرآب القوارب. أريد شاطئي الخاصّ، أضافت. كنت أحلم دوماً بشاطئ لي.

ناور يانْسون بمهارة ليضع المقطورة بالضبط في المكان الذي أرادته لويز. ثبّتنا المقطورة بخشبٍ طافٍ وبصناديق صيد جُلبت من المرآب.

- ممتاز، أعلن يانْسون برضا حين فرغنا من العمل. الجزيرة الوحيدة في الأرخبيل التي لديها مقطورة.

- والآن، ندعوكم إلى القهوة، أعلنت لويز باحتفاليّة.

رمقني يانْسون بنظرة، لم أتجاوب معها. وصعدنا إلى البيت.

منذ سكنت بمفردي على الجزيرة، كانت تلك هي المرّة الأولى التي يدخل فيها يانْسون البيت. أخذ يتفحّص المكان بفضول.

- على عهدي به، أعلن لاحقاً. لم يتغيّر شيء تقريباً. إذا لم أكن مخطئاً،

غطاء الطاولة هذا ذاته من أيّام الأبوين.

أعدّت لويز القهوة. سألتني إذا كان ثمّة فطائر. لم يكن موجوداً منها، فأحضرتْها من مقطورتها.

- امرأة جميلة، قال يانْسون. كيف عثرت عليها؟

- هي من عثرت عليّ.

- وضعتَ إعلاناً؟ أنا نفسي، يخطر لي ذلك أحياناً.

لم يكن يانْسون لمّاحاً، ولا أحد يستطيع أن يدّعي أنّه يقوم بعمليّات ذهنيّة معقّدة. ولكن أن يخطر له أنّ لويز هي السيّدة التي نجحتُ في اجتذابها إلى هذا المكان، مع مقطورتها وكلّ الملحقات، بما فيها امرأة مسنّة على شفير الموت، فهذا يفوق أيّ فهم.

- هذه ابنتي. ألم أخبرك بأنّ لديّ ابنة؟ يبدو لي أنّي أخبرتك. كنّا على المقعد، وكنت تتألّم من أذنيك، في الخريف، وأخبرتك بأنّها راشدة. هل نسيت؟

بالطبع لم يكن لدى يانْسون أيّة ذكرى. ولكن لم يجرؤ على الاحتجاج. فلا يمكنه المجازفة بخسارة طبيبه الشخصيّ الذي هو في متناول اليد.

عادت لويز بسلّة مملوءة بفطائر بالقرفة. بدا جلياً أنّ يانْسون وابنتي متّفقان على أكمل وجه. نويت أن أوضّح للويز، أوّل ما نكون بمفردنا، إنّها تستطيع أن تتصرّف بمقطورتها كما تريد، ولكن على جزيرتي، أنا فقط من يضع القواعد. وأوّل هذه القواعد عدم دعوة يانْسون لتناول القهوة في مطبخي.

وأخيراً مضى يانْسون، يجرّ عبّارة الدواب خلفه. لم أسأل لويز كم دفعت له لقاء النقل. وبعد أن رأينا أنّ آرييت كانت لا تزال نائمة، تجوّلنا

حول الجزيرة. أشرت للويز إلى المكان الذي دفنت فيه كلبتي. ثمّ تسلّقنا الصخور من الجهة الجنوبية، وسرنا بمحاذاة الشاطئ.

للحظة قصيرة بدا الأمر، رغم كلّ شيء، وكأنّني استعدت طفلة صغيرة. أرادت لويز أن تعرف كلّ شيء، عن النباتات، والطحالب، والجزر الصغيرة التي تكاد لا تبين من وراء الضباب، والأسماك التي في الأعماق والتي لا يمكن أن تراها. لم تسمح معارفي بالإجابة إلّا على سؤال واحد من كلّ اثنين. ولكنّ الأمر سيّان عندها؛ فالأهمّ، على ما يبدو، أن أصغي لها.

عند الرأس الشماليّ للجزيرة، كان هناك كتل صخريّة شكّلها الجليد على هيئة عروش مرتفعة. جلسنا عليها.

- من التي خطرت لها هذه الفكرة؟ سَألتُ لويز. أنت أم آرييت؟

- أظنّ نحن الاثنتان في الوقت عينه. فقد حانت ساعة زيارتك، لنجمع شمل العائلة قبل فوات الأوان.

- بماذا علّق أصدقاؤك في الغابة؟

- هم يعرفون أنّي سأعود.

- لِمَ كان ينبغي أن تجرّي مقطورتك إلى هنا؟

- هذه قوقعتي. لا أتركها أبداً.

بخصوص آرييت، أخبرتني أنّ من أوصلها إلى بيتها في ستوكهولم كان أحد الملاكمين؛ يدعى ستيور، ويعيش من حفْر الآبار.

بعدها تدهورت حالة آرييت بشكل سريع. وسافرت لويز إلى ستوكهولم للاعتناء بها، لأنّ آرييت كانت ترفض تدخّلات وحدة العناية الملطَّفة. وبمشقةٍ تمكّنت لويز من انتزاع الحقّ في إعطاء آرييت أدويتها.

المسكّنات، حصراً. فقد تخلّوا عن آخر محاولاتهم في إيقاف انتشار السرطان. كان العدّ التنازليّ قد بدأ. ولويز على اتّصال مستمرّ مع وحدة العلاج المنزليّ التي كانت تتبع لها آرييت.

كنا نتأمّل البحر من فوق عرشَينا.

- بقي لها شهر على الأكثر لتعيش، قالت لويز. إنّها تتناول جرعات قويّة جدّاً. ستموت هنا، كن مستعداً لذلك. أنت طبيب، أو على الأقلّ كنت كذلك، ومعتاد على رؤية الموت أكثر منّي. لقد أدركت أنّ المرء إزاء موته يكون وحيداً بالكامل، ومع ذلك يمكننا أن نبقى إلى جوارها ونقدّم لها يد العون.

- هل تتألّم كثيراً؟

- أحياناً تصرخ من الألم.

تابعنا جولتنا على طول الشاطئ. وعند وصولنا إلى رأس الجزيرة الذي يشرف من هناك على اتّساع البحر، وقفنا ثانية. منذ زمن طويل وضع جدّي مقعداً في ذلك المكان، صمّمه من حطام حصّادة قديمة وبضعة ألواح سميكة من السنديان. كان يحدث، في أوقات نادرة جدّاً، أن يتشاجر جدّاي، وعندئذ كان جدّي يذهب إلى هناك ويبقى جالساً على المقعد إلى أن تأتي جدّتي لتخبره بأنّ العشاء أصبح جاهزاً. في تلك الأثناء يكون الغضب قد تبدّد. في السابعة من عمري، حفرت اسمي على قفا ذلك المقعد. ما أدّى إلى استياء جدي، إلّا أنّه لم يوجه لي أيّ لوم.

كانت طيور العيدر، والبطّ البريّ وآكل الأسماك تتقافز مع ارتفاع البحر وانخفاضه.

- توجد ثغرة في هذا المكان، قلت. عموماً، لا يتجاوز عمق القاع خمسة

عشر متراً إلى عشرين، إلّا أنّه ينخفض فجأة هنا إلى ستّة وخمسين متراً. حين كنت صغيراً، كنت آتي إليها بزورقي، وأُنزل المرساة متخيّلاً أن تكون الحفرة بلا قاع. أتى جيولوجيّون لمحاولة فهم أسباب وجود هذه الثغرة هنا. وحسبَ علمي، لم يصلوا إلى جواب مُرضٍ. وذلك أرضاني، لأنّني لا أؤمن في عالم محلولة كلّ ألغازه.

- أنا أؤمن في العالم الذي نكافح فيه، قالت لويز.

- تفكّرين في المغارات الفرنسيّة؟

- أجَل، هي إحدى الأشياء التي أفكّر فيها.

- كتبتِ رسائل؟

- آخر الرسائل وجّهتها إلى توني بلير وجاك شيراك.

- أجاباك؟

- لا بالطبع. لكن أُعدّ لأفعال أخرى.

- أيّة أفعال؟

هزّت رأسها، لم تكن تريد الإجابة عن هذه النقطة.

في النهاية عدنا إلى المرآب. كانت الشّمس تضرب بقوّة على الحائط الذي يدرأ الريح. عادت لويز وبادرت بالكلام:

- أنت وفيت بوعدك الذي قطعته على آرييت فيما مضى. ولكن يوجد شيء آخر تريده منك.

- لن أعود إلى البحيرة.

- ما تريده سيكون هنا تحديداً. حفلة صيفيّة.

- ماذا؟

ارتفعت نبرة صوتها.

- هل يمكن أن يكون لهذه العبارة ألف معنى؟ إنّها حفلة صيفيّة، حفلة، تُقَامُ في الصيف.
- لا أقيم حفلات على جزيرتي أبداً، لا صيفاً ولا شتاءً.
- إذن آن الأوان ليتغيّر الحال. تريد آرييت أن تجمع بعض الأشخاص في سهرة جميلة. وأن تفرش طاولة في الخارج تحت السماء، ويكون الطعام جيّداً، والشراب كذلك. ثمّ تعود إلى سريرها وتموت بأسرع وقت.
- بالطبع بإمكاننا نحن الثلاثة القيام بذلك. نفرش طاولة على العشب أمام شجيرات الكشمش.
- تريد آرييت حفلة مع مدعوّين. تريد أن تقابل أشخاصاً.
- من هم؟
- حسب علمي، أنت من يقيم في هذه المنطقة. ادعُ عدداً من أصدقائك. لا حاجة لأن يكون العدد غفيراً.

صعدت لويز باتّجاه البيت دون أن تنتظر جوابي. أدركت أنّي سأكون مجبراً على إقامة هذه الحفلة. كان بإمكاني أن أدعو يانْسون، وهانس لوندمان مع زوجته رومانا التي تعمل في سوبر ماركت على الشاطئ في قسم شرائح اللّحم البارد.

ستحظى آرييت بعشائها الأخير على جزيرتي. بالتأكيد هذا أقلّ ما يمكنني فعله إكراماً لها.

(4)

أمطرت دون انقطاع تقريباً حتّى عيد القديس يوحنّا. كنّا قد استحدثنا بعض العادات البسيطة التي تتلاءم مع وضع آرييت. في البداية كانت لويز تنام في مقطورتها، ولكن عندما بدأت آرييت تصرخ من الألمّ لليلتين متتاليتين، انتقلت إلى مطبخي. عرضتُ النيابة عنها في إعطاء الأقراص وحقن الإبر، لكنّها أرادت أن تحتفظ بهذه المسؤولية لها. في الليل كانت تمدّ فراشاً على الأرض، وتضعه نهاراً في البهو. أخبرتني أنّ القطّة كانت تأتي لتراها وتنام عند قدميها.

كانت آرييت في حالة سبات معظم الوقت تحت تأثير الأدويّة. لم تكن تريد أن تأكل، لكنّ لويز، وبصبرٍ لا حدود له، كانت تجبرها على تناول بعض المواد الغذائيّة الضروريّة. لمسني الحنان الذي أبدته لأمّها، والذي لم تُتَح لي الفرصة لكي أراه من قبل. تنحّيت جانباً؛ فلن أكون يوماً جزءاً من هذه الحميميّة.

في المساء، كنّا نتبادل الأحاديث في مقطورة لويز أو في مطبخي. كانت هي من يتكفّل بالوجبات، وأنا من يتّصل بالمتجر وأملي عليه القائمة المكتوبة بخطّ لويز، وبالقارب البريديّ كانت تصل المشتريات. قبل أسبوع من عيد القديس يوحنا، أدركتُ أنّ النهاية اقتربت. كانت آرييت

تسألني كلّما وجدتها صاحيةً إذا كان الطقس يتحسّن؛ فهمتُ أنّها كانت تفكّر في حفلتها. في زيارة يانْسون التالية، وفيما كان المطر ينهمر يوميّاً والريح الشماليّة تهبّ من المحيط المتجمّد الشماليّ البعيد، دعوته إلى الحفل يوم الجمعة.

- عيد ميلادك؟

- تشكو منّي كلّ سنة في عيد الميلاد لأنّي لا أزيّن منزلي بشرائط مضيئة. وأيضاً في عيد القديس يوحنا لأنّي أرفض أن أشرب كأساً على الرّصيف. وحصل الآن أن أقيم حفلة وأنت مدعوّ إليها. ألهذه الدرجة الأمر غير قابل للفهم؟ الموعد في السابعة مساءً، إذا كان الطقس مواتياً.

- أحس بإبهاميّ أنّ الدفء قادم.

يدّعي يانْسون أنّ بوسعه أحياناً الاستدلال على المياه الجوّفية بالعصا، وأيضاً معرفة الطقس بإبهاميه.

لم أجبه. في ذات اليوم اتّصلت بهانس لوندمان لأدعوه، هو وزوجته.

- لديّ مناوبة يوم الجمعة، قال. لكن أستطيع تدبّر الأمر مع أدفين. أهو عيد ميلادك؟

- دائماً هو عيد ميلادي. في السابعة مساء إذا كان الطقس مواتياً.

أعددت الحفلة مع لويز. أخرجت من المرآب بعض أثاث الحديقة المهمل منذ زمن طويل، والذي كان لجدّيَّ. أعدت طلاءه وأصلحت الطاولة التي كانت إحدى قوائمها متعفّنة.

قبل يومين من عيد القديس يوحنا، كان المطر ينسكب بغزارة مع ريح شماليّة غربيّة، ودرجة الحرارة انخفضت إلى اثنتي عشرة درجة. تسلّقنا

أنا ولويز الصخرة خلف البيت، ونحن نصارع الريح، وشاهدنا قوارب جانحة على الخليج الصغير لجزيرة كورشولمين، حيث يعيش أقرب جيراني.

- أتعتقد أنّ الطقس سيكون ذاته غداً؟ سألتني.

- وفقاً لإبهامَي يانْسونْ سيكون الطقس جميلاً.

في اليوم التالي، كفّت الريح وتوقّف المطر، تبدّدت الغيوم وبدأت الحرارة بالارتفاع. كانت آرييت خارجة للتوّ من ليلتين عصيبتين، حيث لم يكن للدواء أيّ نفع، وصارت تستغلّ الهدوء المؤقّت. أعددنا كلّ شيء، كانت لويز تعرف بالضبط ما تريده آرييت لحفلتها.

- تريدُ الوفرة البسيطة، قالت. يبدو من المستحيل الجمع بينهما. ولكن ينبغي أحياناً طلب المستحيل.

في المحصّلة، كانت حفلة صيفيّة غير اعتياديّة. إنّ أيّاً من الحاضرين لن ينساها، فيما أعتقد، ولو أنّ كلّ واحد سيحتفظ بذكرى مختلفة عنها. في الصباح اتّصل هانس لوندمان ليسألني إذا كان بإمكانه اصطحاب حفيدته، التي أتت لزيارتهم ولم يكن ممكناً تركها بمفردها. تبلغ الصغيرة ستّة عشر عاماً وتدعى أندريا. وكنت أعلم أنّها تعاني من إعاقة عقليّة تتبدّى، بين علامات أخرى، عبرَ الثقة المفرطة التي تمنحها للغرباء. لديها أيضاً مثل بعض المعاقين صعوبة كبيرة في التعلّم. ولكنّ المأخذ الأكبر عليها هو أسلوبها في التقرّب من الغرباء، إذ بإمكانها أن تمسك بيدِ أيٍّ كان، وحين كانت طفلة كانت تجلس في أحضان أناس لم ترهم من قبل، وتشعر أنّها بأحسن حال.

كانت مرحّباً بها بالتأكيد. فرشنا المائدة لسبعة أشخاص بدلاً من

ستّة. آرييت التي كانت لا تكاد تغادر سريرها، طلبت أن تكون جالسة على كرسيّ الحديقة في الخامسة. كانت لويز قد ألبستها فستاناً صيفيّاً فاتح اللون؛ ومشّطت شعرها الرماديّ ورفعته بشكل أنيق فوق عنقها، ووضعتْ لها مكياجاً كما لاحظتُ، فبدا وجه آرييت الهزيل أنّه استردّ شيئاً من عافيته التي كانت له في الحياة. جلستُ إلى جوارها حاملاً كأس نبيذ. أخذته منّي وتناولت بضع رشفات.

- اسكب لي كأساً، قالت. أنقصت جرعات الدواء كي لا أغفو، لذا أشعر بالألم ولا أظنّه سيخفّ. لكنّ ما أريده هذا المساء نبيذ أبيض، وليس أقراصاً بيضاء. نبيذ!

ذهبت إلى المطبخ حيث تصطفّ الزجاجات المفتوحة. كانت لويز مشغولة بشيء سيمضي فيما يبدو إلى الفرن.

- تريد آرييت أن تشرب نبيذاً، قلت.

- إذن قدّمه لها! هذه حفلتها. وهذه المرّة الأخيرة التي ستتمكّن فيها من أن تشرب وتبتهج، وإذا ثملت قليلاً، فينبغي أن يسرّنا ذلك!

أخذت زجاجة إلى الحديقة. كانت المائدة جميلة، زيّنتها لويز بزهور وأغصان خضر. وقد وضعت بعض المقبّلات؛ تداريها بقطع قماش بالية لجدّتي.

شربنا نخباً. أمسكت آرييت بيدي.

- تزعجك رغبتي في أن أموت في منزلك؟

- لماذا ستزعجني؟

- لم تقبل في الماضي بأن أعيش معك. فلربّما لا تريدني أن أموت عندك...

- لن أستغرب إذا عشتِ بعدنا كلّنا.

- عمّا قريب لن أعود موجودة. منذ الآن أشعر أنّ ثمّة ما يشدّني، الأرض تجتذبني إليها. أحياناً حين أصحو من الألم في الليل، وقبل أن أبدأ الصراخ، يكون لي متّسعٌ من الوقت لأتساءل: هل أنا خائفة ممّا ينتظرني؟ أجَل، أنا خائفة، ولكن ليس بالضبط، الأمر أشبه بموجة قلق، كما لو أنّنا على وشك فتح باب لا نعرف تماماً ماذا يُخفي وراءه. ثمّ تأتي الأوجاع، وحينها لا يبقى ما أخشاه عداها.

خرجت لويز من المنزل. ملأت لنفسها كأس نبيذ وجلست معنا.

- العائلة، قالت. لا أعرف إذا كنت أفضّل أن يكون اسم شهرتي فيلين أو هورنفليد. أو لعلّني لويز هورنفليد-فيلين، والمهنة: كاتبة رسائل.

كانت قد أحضرت معها آلة تصوير. صوّرتنا، أنا وآرييت، وبيدينا الكؤوس. ثمّ التقطت صورة لنا نحن الثلاثة معاً.

- إنّها آلة تقليديّة، يلزم تظهير الفلم في المختبر... إلّا أنّي قد نجحت في التقاط الصورة التي حلمتُ بها طوال حياتي.

شربنا نخب المساء الصيفيّ. فكّرت في حقيقة أنّ آرييت كانت مضطرّة إلى وضع حِفَاض تحت فستانها الفاتح، وأنّ الجميلة لويز هي ابنتي.

نزلت لويز إلى مقطورتها لتغيّر ملابسها. قفزت القطّة على الطاولة فطردتُها. ابتعدت متّخذةً هيئة متكبّرة. بقينا جالسين بصمت نستمع إلى صخب البحر.

- أنا وأنتَ، قالت آرييت. أنا وأنت، وها هي القصّة انتهت.

عند السابعة مساءً، لم يَعد ثمّة من ريحٍ والحرارة ارتفعت إلى سبع عشرة درجة.

وصل يانْسون وعائلة لوندمان في الوقت عينه. كان قارباهما متتابعين مثل موكب صغير ودود. كان الاثنان يرفعان علَماً. كانت لويز في أوج بهائها على الرّصيف حيث نزلنا لاستقبالهم. بدا فستانها محرِجاً من فرط قِصَره، لكن كان لها ساقان جميلتان. عرفتُ الحذاء الأحمر الذي كانت تنتعله في أوّل مرّة رأيتها فيها أمام مقطورتها. كان يانْسون يرتدي بذلة قديمة مشدودة عند الكتفين، ورومانا تتألّق بالأحمر والأسود، بينما ظهر هانس في حلّة بيضاء، وعلى رأسه قبّعة البحريّة. وارتدت أندريا فستاناً أزرق، مع شريط أصفر على شعرها. ربطنا القاربين؛ وبقينا للحظات متحلّقين على الرّصيف، نتكلّم عن الصيف الذي وصل متأخّراً، ثمّ صعدنا باتّجاه البيت. كانت عينا يانْسون تبرقان ولاحظ الجميع أنّه كان يخطو أحياناً مترّنحاً قليلاً. ولكن لا أحد كان يعلّق، خاصّةً آرييت، التي تمكّنت من النهوض عن الكرسيّ بمبادرة منها لكي تصافحه.

كنا قد اتّخذنا القرار بأن نخبرهم بالحقيقة: آرييت هي أمّ لويز، وأنا أبوها، في الماضي كنّا سنتزوّج. آرييت مريضة الآن، ولكن ليس لدرجة تمنعنا من قضاء سهرة في الهواء الطلق ومن أن نأكل ونشرب تحت أشجار السنديان.

ثمّ، بعد أن انتهى الحفل، خطر في ذهني أنّ حفلتنا كانت في بدايتها تشبه الأوركسترا، عندما يدوزن أعضاؤها آلاتهم. ومن كثرة ما تحادثنا وصلنا إلى النغم الصحيح. في تلك الأثناء كنّا نأكل، ونكرع الأنخاب، نُحْضر أطباقاً ونعيد أطباقاً ونترك صدى ضحكاتنا يتردّد بعيداً فوق الصخور.

في تلك اللا حظة كانت آرييت في أحسن أحوالها. تتحدّث مع هانس عن صورايخ الإنقاذ، وتقارن الأسعار مع رومانا، وتناشد يانْسون أن يخبرها عن أغرب طرود بريديّة سلّمها خلال خدمته الطويلة ساعيَ بريدٍ في الأرخبيل. كانت تلك سهرتها، حفلتها، وهي من كانت تدير الأوركسترا وتعطي اللدِن العامّ للنغمات الصادرة عن كلّ واحد منّا. أندريا لم تقل شيئاً. منذ وصولها تشبّثت بلويز التي تركتها على هواها. طبعاً كنّا في النهاية جميعاً سكارى، يانْسون الأوّل، ولكنّه لم يفقد السيطرة على حركاته في أيّة لحظة. استمرّ يساعد لويز في وضع المائدة ورفعها، ولم يُسقط شيئاً من يده. وعند هبوط الليل هو أيضاً من أشعل الشمع وعيدان البَخُور التي اشترتها لويز لطرد البعوض. كانت أندريا تترصّد الكبار بنظرة ثاقبة، وهي جالسة قبالة آرييت التي تمدّ يدها من حين لآخر لتلامس أطراف أصابعها. شعرت بحزن عميق وأنا أرى هذه الأصابع تتلامس. فالأولى ستموت قريباً، والأخرى لن تدرك بالكامل يوماً ماذا يعني أن تكون على قيد الحياة. التقطت آرييت نظرتي ورفعت كأسها. قرعنا الكأسين.

ثمّ ألقيتُ كلمةً، لم يكن مخطّطاً لها. لم يكن يُخيَّل لي أنّي أعددت الكلمات مسْبقاً في داخلي وأنّي كنت مستعدّاً لإلقائها. تكلّمتُ عن الوفرة والبساطة، عن الكمال والتحقّق، اللذين ليس لهما وجود ربّما، ولكن قد نلمحهما برفقة صحبة طيّبة في أمسية صيفيّة جميلة. صحيح أنّ الصيف السّويدي نزِقٌ، ولا يدوم فترة طويلة. إلّا أنّ جماله يمكن أن يكون مذهلاً، كما في تلك الليلة.

- أنتم أصدقائي وعائلتي، ولقد كنت أميراً جاحداً على هذه الجزيرة الصغيرة، فلم أدعُكم للقدوم يوماً. أنا ممتنّ لصبركم، أخشى ما قد

تكونون كوّنتموه من أفكار عنّي، وأتمنّى ألّا تكون هذه هي المرّة الأخيرة التي نجتمع فيها.

رفعنا كؤوسنا. حرّك نَسيمٌ خفيفٌ أوراقَ السنديان وشعلةَ الشمعة ودخانَ العيدان المضادّة للبعوض.

وقف يانْسون بعد أن نقر على كأسه. ترنّح لمرّة فقط ثمّ ثبت. فتح فمه، لكنه لم يقل شيئاً، وإنّما شرع بالغناء. بصوت باريتون[1] صافٍ، غنّى *Ave Maria*[2]. عبرت قشعريرة كامل جسدي. أعتقد أنّ هذه كانت حال جميع المتحلّقين حول الطاولة، فلم تكن مفاجأة هانس ورومانا أقلّ من مفاجأتي. لا يبدو أنّ أحداً كان يعلم أنّ يانْسون يغنّي، وبهذه المقدرة! ما جعل عينيّ تدمعان. ها هو يانْسون مع كلّ أمراضه المتخيّلة وبَذلته الشديدة الضّيق يغنّي *Ave Maria* كما لو أنّ ملاكاً هبط بيننا في ليلة صيفيّة. لماذا كان يخفي صوته؟ هو الوحيد القادر على الإجابة على هذا السؤال.

غنّى. كانت العصافير صامتةً. أصغت إليه أندريا فاغرةَ الفم. كانت تلك هنيهات أشبه بالسِّحر. ثمّ صمت وجلس.

لم ينبس أحد بكلمة. وأخيراً أجْمَلَ هانس الانطباع العامّ:

- يا للرّوعة!

عندئذ، أمطرت الأسئلة على يانْسون. لماذا لم يغنّ في السابق، وكيف حصل ذلك؟ لكنّ يانْسون لم يجب. ولم يُردْ غناء شيء آخر.

- لقد ألقيت كلمة شكري، قال. أتمنّى ألّا تنتهي هذه الأمسية أبداً.

---

(1) Baryton: صوت الباريتون هو الصوت الوسط بين طبقات أصوات الرجال الغنائية، يقع بين صوتَي التينور والباص (الجهير والخفيض).

(2) «السلام عليك يا مريم» (Ave Maria باللاتينية): صلاة مسيحية عريقة مستخدمة في الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية لتمجيد مريم العذراء أمّ يسوع الناصريّ.

تابعنا الشراب والأكل. طرحت آرييت عصا المايسترو، وبدأت الأحاديث تتدفّق وتتقلّب مثل حيوانات صغيرة طليقة فوق العشب. كنّا جميعاً سكارى. انسحبت لويز وأندريا بهدوء إلى المقطورة. وفجأة خطر لهانس أن يرقص مع رومانا، فاندفعا معاً يتقافزان برقصة ثنائيّة، تمثّل حسبَ يانْسون رقصة راينلندر[1]، لمّا عادا للظهور بعد لحظات من صوب زاوية البيت، بدت أقرب إلى رقصة هامبو[2].

كانت آرييت مستمتعة بحفلتها، أعتقد أنّ لحظات مرّت عليها تلك الليلة لم تشعر فيها بأيّ ألم ونسيت كليّاً أنّها ستموت. أعدت سكب النبيذ والأكوافيت للجميع باستثناء أندريا. ابتعد يانْسون مترنّحاً ليتبوّل في الحرش، وكان هانس ورومانا يتصارعان بالأذرع على الطريقة الصينية. ومن مذياعي كانت تنبعث موسيقى حالمة لشومان، مؤلّفة خصّيصاً للبيانو إذا كنت قد فهمت جيّداً. جلست بجوار آرييت.

- هكذا أفضل، قالت.

- ما هو الأفضل؟

- لم يكن بإمكاننا أبداً أن نعيش سويّةً. في النهاية كنت سأملّ من هوَسك في التنصّت وراء الأبواب والعبث بأغراضي. كان الأمر كما لو أنّك كنتَ تحت جلدي، أتفهم؟ كنت تتسبّب لي بالحكّة. كنت أحبّك، وبالتالي لم أكن أبالي. ظننت أنّ ذلك سيمضي. وبالفعل، مضى. ولكن كان عليك أن تختفي لكي يمضي.

---

(1) Rheinländer أو (البولكا الألمانية Polka allemande) وأصلها من بوهيميا: كانت في البدء رقصة ريفية انتشرت في القرى وفي المنتديات الشعبية ثمّ انتقلت إلى الصالونات، وتتميّز بطابعها الخفيف والمرح.

(2) Hambo: رقصة شعبية سويدية.

رفعت كأسها وهي تحدّق في عينيّ.

- لم تكن يوماً شخصاً طيّباً. بتلقائيّة كنت تتهرّب من مسؤوليّاتك. ولكن تستطيع أن تتحسّن. لا تخسر لويز، أعتنِ بها وهي ستبادلك الاعتناء.

- كان عليك أن تخبريني. حين أفكّر أنّه كان لديّ ابنة كلّ هذه السنوات دون أن أعلم...

- بالطبع كان عليّ إخبارك. وأنت على حقّ حين تقول إنّه كان بإمكاني العثور عليك لو أردت ذلك بالفعل. ولكن من شدّة غضبي لم أفعل. احتفظت بطفلتك لأجلي، كان هذا انتقامي. والآن أُعاقَب بجريرة ذلك.

- كيف ذلك؟

- بالندم.

عاد يانسون بخطوات غير واثقة، وجلس أيضاً إلى جوار آرييت، دون أن يكترث إلى أنّنا كنّا في غمرة حديث.

- أنا أعتبرك امرأة مدهشة، قال بصوت رخو. امرأة مدهشة تماماً تلك التي تجلس في حوّامتي المائية دون اكتراث، لكي تمضي مجازفةً بالسير على الجليد.

- كانت تجربةً رهيبةً، لا أتمنّى تكرارها ثانية.

نهضت، ذهبت وراء البيت وتسلّقت أعلى الصخرة. كان ضجيج الحفل يصلني كأصواتٍ متقطّعة، مثل نداءات. خُيّل لي أنّي أرى جدّتي على مقعدها، تحت شجرة التفّاح؛ ولعلّ جدّي أيضاً كان يرتقي طريق المرآب. كانت إحدى الأمسيات التي يمكن فيها للأحياء والأموات أن يحتفلوا

سويةً. أمسية لَمَن كان لا يزال أمامهم وقت طويل ليعيشوه، ولَمن وقفوا، كما هي حال آرييت، على الحدّ النهائيّ غير المرئيّ ينتظرون النوتيّ.

لقد نجحتْ في العبور الأوّل، على متن عبّارة يانْسون للدوابّ، التي أوصلتها إلى هنا. ولم يكن بقيَ إلّا العبور الأخير.

نزلتُ باتّجاه الرّصيف، كان باب المقطورة مفتوحاً. استدرت خلفه واسترقت النظر من الزجاج. كانت أندريا تجرّب أزياء لويز، وتقف متوازنة على كعبين يبعثان على الدوار لحذاء أزرق فاتح، وترتدي فستاناً غريباً مطرّزاً بقطَع صغيرة برّاقة.

ذهبتُ وجلستُ على المقعد. تذكّرت فجأةً الانقلاب الشتويّ: كنت جالساً في مطبخي آنذاك وأنا أفكر أنّ كلّ ما يخصّني قد بات منتهياً. ستّة أشهر انقضت، ولا شيء ظلّ على حاله. الانقلاب الصيفيّ أعادنا مرّة أخرى إلى جهة الليل. كنت أسمع أصواتاً على جزيرتي التي عادةً ما تكون صامتة. ضحكة رومانا الحادّة، وصوت آرييت طافياً فوق الموت والألم يطالب بالمزيد من النبيذ.

المزيد من النبيذ! مثل صرخة حرب. كانت آرييت تحشّد كلّ قواها لخوض معركتها الأخيرة. صعدت إلى البيت وفتحت الزجاجات المتبقّية. حين خرجت كان يانْسون يضمّ رومانا برقصة يلفّها ما يشبه الوسن، مثل هدهدة. وهانس يجلس إلى جوار آرييت. ممسكاً بيدها، أو ربّما العكس، تصغي هي له فيما يشرح لها، بصعوبة ودون نجاح، الطريقة التي تضيء فيها المنارات الممرّات المائيّة كي تؤمّن ملاحة السفن، حتّى تلك التي تندفع بسرعة عالية. انبثقت لويز وأندريا من الظلمة. ما عدا آرييت، لا أحد لاحظ الجميلة أندريا، متألّقةً بمبتكرات لويز المليئة بالغرابة. كانت لا

تزال منتعلةً الحذاء الأزرق الفاتح. تبعتْ لويز نظرتي.

- صنعه لي جاكونيلي، همست في أذني. وأنا أعطيته لهذه الفتاة الـ.. في داخلها من الحبّ ما لا يجرؤ أحد على احتماله. من العدل أن ينتعل ملاكٌ حذاءً أزرق من تصميم المعلم.

دخل الليل الطويل ببطء إلى طور أشبه بالحلم؛ لم أعد أعرف ما حدث فيه ولا ما قيل. ولكن في لحظة، فيما كنت ذاهباً لأتبوّل، رأيت يانسون جالساً على درجات البيت، يبكي في أحضان رومانا. وهانس يرقص الفالس مع أندريا، وآرييت ولويز تتهامسان بهدوء فيما تشرق الشّمس بخفَرٍ فوق البحر.

عند نحو الرابعة فجراً، كنّا أشبه ما نكون بموكب مترنّح ونحن نهبط الدرب صوب الرّصيف. كانت آرييت تسير خلف عكّازها الرباعيّ، بمساعدة هانس. استغرقنا وقتاً طويلاً ونحن نتوادع، ثمّ ونحن نفكّ القوارب، وننظر إليهم وهم يغادرون. أتذكر أنّ أندريا، قبل أن تصعد إلى قارب جدّيها، اتّجهت نحوي، وبيديها الحذاء الأزرق، واحتضنتني بذراعين ضعيفتين كان قد نهشَها البعوض.

بعد أن غابت القوارب عند منعطف الصخور، بقيت لوقت طويل أشعر بتلك الضمّة، مثل جلدٍ ثانٍ، يدفّئ جسدي.

- سأرافق آرييت، قالت لويز. لعلّها تحتاج إلى حمّام دافئ. سيكون أسهل لو بقينا نحن الاثنتين بمفردنا. بإمكانك التمدّد في المقطورة إذا كنت تشعر بالنعاس.

- سأبدأ بالترتيب.

- غداً سنتولّى الأمر.

تبعتها بنظرتي وهي ترافق آرييت صوب البيت. كانت آرييت منهكة، لا تكاد تقف، رغم العكّاز الرباعيّ ومساعدة ابنتها.

إنّها أسرتي، فكّرت، التي مُنِحت لي بعد فوات الأوان.

غفوت على المقعد ولم أصحُ إلّا ويد لويز على كتفي.

- نامت. حريّ بنا أن نذهب وننام نحن أيضاً.

كانت الشّمس عاليةً في كبد السماء. وكنت أشعر بصداع وجفاف في الفم.

- أتعتقدين أنّها سعيدة؟ سألتُ لويز.

- أتمنّى ذلك.

- ألم تقل لك شيئاً؟

- كانت فاقدة الوعي تقريباً حين وضعتها في الفراش.

صعدنا باتّجاه البيت. لم تظهر القطّة طوال الليل، كانت نائمة على مقعد المطبخ. أمسكت لويز بيدي.

- أتساءل من أنت. ربّما سأفهم يوماً ما. لكنّ الحفلة كانت ناجحةً وقد أعجبني أصدقاؤك.

مدّت فراشها على الأرض. وصعدت أنا إلى غرفتي. استلقيت على السرير بعد أن خلعت حذائي.

سمعت فجأةً في حلمي صراخ نوارس تقترب، ثمّ تُغِيرُ بغتةً على وجهي!

حين صحوت، فهمت أنّ ما ظننته نوارس كان يأتي من الطابق الأرضيّ. آرييت هي التي كانت تصرخ من الألم مجدّداً.

لقد انتهت الحفلة.

(5)

بعد أسبوع اختفت القطّة. لم نترك أنا ولويز ثغرة إلّا وبحثنا فيها، لم نترك تجويفاً في الجزيرة إلّا وبحثنا في داخله، دون جدوى. غالباً ما فكّرت في كلبتي أثناء أيّام البحث، فلو أنّها كانت هناك لكنت عثرت عليها مباشرة. إلّا أنّ كلبتي ماتت وفهمت أنّ قطّتي كذلك على الأرجح. كنت أقطن جزيرة مسكونة بحيوانات ميّتة، وامرأة تعيش أيّام ألمها الأخيرة بجوار قرية نمل تحتلّ الحجرة التي فيها سريرها.

لم تعد القطّة. كان حَرُّ منتصف الصيف يكتسح جزيرتي. ذهبت بالزورق السريع إلى الشاطئ واشتريت مروحة وضعناها قرب آرييت. كنّا نبقي النوافذ مفتوحةً طوال الليل. كان البعوض يتراقص على الأطر الحديديّة التي ثبتها جدّي في الماضي. حتّى أنّ ثمّة تاريخاً مسجّلاً بقلم الرّصاص على أحد مصاريع النوافذ، بخطّ النجّار: 1936. بدأت أفكّر أنّ موجة الحرّ الطويلة خلال شهر يوليو ستجعل هذا الصيف، رغم بدايته غير المشجّعة، أحرّ صيف عرفتُه على هذه الجزيرة.

كانت لويز تذهب في المساء للسباحة. انتهى بنا الأمر إلى التناوب للبقاء على مرمى السمع من غرفة آرييت؛ كان على أحدنا أن يبقى إلى جوارها. كانت هَدَآت نوبات الألم تقصر تدريجيّاً. بقيت لويز على تواصل مع قسم

التطبيب المنزليّ، الذي كان هو المسؤول عن آرييت في نهاية المطاف. أصرّوا في الأسبوع الثاني من يوليو على أن تخضع لفحص طبيب. كنت أتابع الحديث الهاتفيّ من بهو المدخل، حيث كنت مشغولاً باستبدال مصباح. بدهشة كبيرة، سمعت لويز تقول أنّه لا داعيَ لإحضار طبيب، لأنّ والدها طبيب.

كنت دائم الذهاب إلى الشاطئ، أو بالأحرى إلى الصيدليّة، لتجديد مخزون المسكّنات. وفي أحد الأيّام، طلبت منّي لويز أن أحضر لها بطاقات بريدية، لا على التّعيين. اشتريت لها سلسلة من البطاقات والطوابع، فبدأت تكتب لأصدقائها في النورلند أثناء نوم آرييت. لاحظت أيضاً أنّها كانت تعمل على كتابة رسالة، بدا واضحاً أنّها ستكون طويلةً جدّاً. لم تخبرني بهُويّة المرسَل إليه، ولم تكن تترك أوراقها. كانت تعيدها بعناية إلى المقطورة.

حذّرتها من يانْسون، قائلاً لها: لا بدّ أنّه سيقرأ كلّ بطاقة ستسلّمينها له.

- ولِمَ سيتصرّف على هذا النحو؟
- طبعه فضوليّ.
- أعتقد أنّه سيحترم بطاقاتي.

لم نعد للتكلّم في هذا الأمر. وعند كلّ مرّة كان يانْسون يرسو فيها على الرّصيف، تسلّمه رزمةً جديدةً من البطاقات البريديّة، كان يضعها في خُرْجه دون النظر إليها.

لم يعد يشتكي من أيّ شيء. في ذلك الصيف الذي كانت فيه آرييت تموت في بيتي، بدا على يانْسون أنّه تحرّر فجأةً من كلّ أمراضه الوهميّة.

وبما أنّ لويز كانت تعتني بآرييت، تولّيت أنا تحضير وجبات الطعام.

كانت آرييت بالطبع هي محور الاهتمام، غير أنّ لويز من كانت تدير المنزل مثل سفينة هي قبطانها، وهذا الأمر لم يكن يزعجني.

كانت آرييت تجد مشقّة في تحمّل موجة الحرّ الشديدة. اشتريت مروحة ثانيةً دون أن يصنع ذلك فارقاً حقيقيّاً. اتّصلت بهانس لوندمان مراراً لكي أسأله عن توقّعات خبراء الأرصاد الجوّية الذين يراقبون الساحل.

- إنّها موجة حرّ غريبة، قال لي، لا تسير وفق المعتاد. ففي الحالة الطبيعيّة يصل الضغط الجوّي العالي من منطقة ويواصل طريقه، حتّى لو لم نلحظ ذلك بسبب بطء حركته. إلّا أنّه ثابت هذه المرّة. ظاهرة فريدة. يؤكّد مؤرّخو الحالات الجوّيّة أنّها من نمط الموجة الحارّة التي اجتاحت السّويد صيف 1955.

أتذكّر ذلك الصيف. كان عمري ثمانية عشر عاماً وكنت أقضي معظم وقتي على مركب جدّي الشراعيّ متنزّهاً بين الجزر. كان صيفاً قلقاً، يخفق بكلّ نبض المراهقة. كنت أتمدّد عارياً على الصخور الحارّة من وهج الشّمس، أحلم بالنساء. والأجمل بين معلّماتي كنّ يعبرن مخيّلتي الواحدة تلو الأخرى آخذات دور العاشقات.

حدث ذلك منذ ما يقرب من خمسين عاماً.

- ينبغي أن يكون باستطاعتهم إخبارنا شيئاً! متى تنخفض الحرارة؟

- في هذه اللحظة، لا يتحرّك الضغط الجوّيّ. الحرائق تندلع تلقائيّاً في أماكن لم تشبّ النيران فيها من قبل.

بقينا تحت وطأة الحرارة. ومن وقت لآخر كانت تتجمّع الغيوم السوداء في الأفق من جهة اليابسة، فتهبّ عاصفة رعديّة، وينقطع الإرسال في بعض الأحيان، إلّا أنّ جدّي كان قد خصّص وقتاً طويلاً لابتكار مانع

صواعق ذكيّ له أكثر من فرع ويحمي البيت والمرآب في الوقت عينه.

في أوّل دويّ للرعد، عند نهاية اليوم الأشدّ قيظاً في ذلك الصيف، أخبرتني لويز أنّ العاصفة الرعدية ترعبها. سكبت لنفسها كأس كونياك، من نصف الزجاجة المتبقّية من زجاجات الكحول التي كانت مكدّسة كاحتياطيّ للحفلة الكبيرة.

- لا أحاول بهذا لفت الانتباه، قالت. أنا بالفعل خائفة.

كانت تلوذ مع كأسها تحت طاولة المطبخ، وكنت أسمع أنينها كلّما برقت في الخارج أو قصفَ الرعد، ولم تكن تخرج إلّا في نهاية العاصفة؛ بكأس فارغ ووجه شاحب.

- لا أدري لماذا، قالت. لا يخيفني شيء مثل خطوط البرق وصوت الرعد الذي يسقط فوقنا.

- هل رسمَ كرافاجّو العواصف الرعديّة؟

- غالباً ما كان يرسم ما يخيفه... ولكن ليس البرق حسب علمي، مع أنّ من المؤكّد أنّه كان مثلي يخاف منه.

كانت أمطار العاصفة الرعديّة تنعش الأرض وتنعشنا أيضاً، نحن القاطنين هنا. بعد العاصفة كان عليّ الجلوس إلى جوار آرييت. ولكنّي كنت قد خرجت قبلها لأرى إذا ما صادف ظهور قوس قزح. كانت آرييت نائمةً، لا يزال رأسها مرتفعاً أكثر من العادة، لتخفّف الآلام المنبعثة من ظهرها. جلست إلى جوار سريرها، وأخذت يدها الضعيفة والباردة في يدي.

- ألا تزال تمطر؟

- لا. ليس إلّا جداول صغيرة غاضبة تنحدر فوق الصخور.

- وقوس قزح؟

- ليس في هذا المساء.

صمْت.

- لم أرَ القطّة.

- اختفت. بحثنا عنها. ولم نجدها.

- ذلك يعني أنّها ميّتة. تغادر القطط حين تشعر أنّ ساعتها قد حانت. ذات الشيء يقوم به أفراد بعض القبائل. لدينا يكون الأمر معاكساً: نتشبّث لأطول فترة ممكنة قرب من ينتظرون موتنا بفارغ الصبر.

- أنا لا أنتظر ذلك.

- بلى بالطبع. حين نعتني بمريض آيل إلى الموت، ليس بوسعنا فعل شيء آخر. ومع الانتظار يفقد المرء صبره.

كانت تتكلّم بصوت متقطّع، كما لو أنّها تتسلّق سلّماً لا نهاية له، مضطرّة إلى التوقّف مراراً لالتقاط أنفاسها. مدّت يدها بحذر باحثةً عن كأس مائها. ناولته لها وأسندت رأسها وهي تشرب.

أعادت لي الكأس.

- أشكرك لأنّك آويتني. كان يمكن أن يقتلني البرد على الجليد. كان يمكنك التظاهر بعدم رؤيتي.

- تخلّيت عنك مرّة، هذا لا يعني أنّي سأكرّرها.

أومأت برأسها بطريقة غير ملحوظة.

- كم كذبتَ في حياتك، وإلى الآن لم تتعلّم أن تكذب بشكل متقن. يجب أن يكون الجزء الأكبر ممّا يقال صحيحاً، وإلّا فستكون الكذبة مفضوحة. أنت تعلم مثلي أنّه كان بوسعك التخلّي عنّي ثانية. هل

حصل وتخلّيت عن آخرين؟

فكّرت قبل أن أجيب. أردت أن يكون جوابي حقيقيّاً.

- أجَل، قلت. واحدة أخرى.

- ما اسمها؟

- ليست امرأة، إنّها ذاتي.

هزّت رأسها بذات الحركة غير الملحوظة.

- لا داعي لاجترار كلّ ذلك. هكذا سارت حياتنا وليس بطريقة أخرى. وشيكاً سأموت، وستعيش أنت لفترة أخرى، ثمّ ستموت أيضاً. وبالمحصّلة سيمحى الأثر بالفعل، أثر هذا الضوء الصغير الذي ومض، خاطفاً، بين ظلمتين كبيرتين.

مدّت يدها وأمسكت بمعصمي، كان بوسعي تحسّس نبضها السريع على جلدي.

- سأقول لك شيئاً ربّما سبق أن توصّلت إليه. لم أحبّ رجلاً قطُّ كما أحببتك. ولهذا السبب، لكي أعود لملاقاة هذا الحبّ بالتحديد، أتيت أبحث عنك. ولكي تلاقي أنت الابنة التي حرمتُك منها. لكن بالدرجة الأولى، وأكثر من كلّ الأسباب كنت أريد الموت بجانب الرجل الذي أحببته. صحيح أنّي لم أكره رجلاً كما كرهتك. ولكن الكره يؤلم، وبما يخصّ الألم، لديّ منه أكثر ممّا يلزمني. الحبّ يعطي نضارةً، سكينةً، وحتّى أماناً ربّما، ممّا يجعل لقاء الموت أقلّ ذعراً. لا تقل شيئاً بعد ما قلته لك للتوّ. صدّقني فقط. واطلب من لويز أن تأتي. أشعر أنّني بلّلت الشراشف.

ذهبت للبحث عن لويز. ووجدتها جالسة على الدرجات أمام المنزل.

- المكان جميل بالفعل، قالت لي حين رأتني. يكاد يكون بجمال الغابة.
- أنا أخاف الغابات الكثيفة. أخاف دوماً أن أضلّ إذا ما توغّلت بعيداً عن الطريق.
- أنت تخاف من نفسك، هذا كلّ ما في الأمر. أنا أيضاً، وآرييت، والصغيرة الرائعة أندريا، وكرافاجّو... نخاف من أنفسنا وممّا نراه منّا في الآخرين.

عادت إلى جوار آرييت لتغيّر حِفَاضها. جلست على المقعد تحت شجرة التفاح، قريباً من قبر الكلبة. سمعت صوتاً أصمَّ من بعيد: محرّك قارب ضخم؛ ربّما كانت القوّات البحريّة تستأنف مناورات الخريف؟

قالت آرييت إنّها لم تحبّ رجلاً كما أحبّتني. كلامها قلبَ كياني، لم أتوقّع ذلك. شعرت أخيراً أنّ بإمكاني رؤية ما أسفرت عنه خيانتي لها من نتائج فعليّة علينا نحن الاثنين.

خنت لأنّي خشيت بدوري أن أُخان. هذا الخوف من الارتباط، من المشاعر التي لقوّتها تفلت عن السيطرة، كان يدفعني دوماً للتصرّف بطريقة واحدة: المراوغة، الهروب. لماذا؟ لا أعرف الإجابة على هذا السؤال. لكنّ ما أعرفه هو أنّي لست الوحيد. كنت أعيش في عالم فيه الكثير من الرجال يقضون حياتهم في الخوف مثلي.

كنت أحاول التعرّف على نفسي في وجه أبي. غير أنّ خوفه كان مختلفاً عن خوفي. فهو لم يتردّد يوماً في إظهار حبّه لي ولأمي، حتّى إذا لم تكن أمّي امرأة يَسهُلُ العيش معها.

ينبغي أن أفهم ذلك، فكّرت. قبل الموت، يجب أن أعرف لماذا عشت. بقي لي القليل من الوقت، لذا يجب أن أستخدمه بالطريقة الأمثل.

شعرت بأنّي منهك القوى. عدت إلى الداخل. كان باب غرفة آرييت موارباً. صعدت الدرج. تمدّدت، وتركت المصباح بجوار السرير مضاءً. كان دوماً على الحائط بجوار السرير مجموعة خرائط بحريّة تعود إلى جدّي، عثر عليها في الماضي مقذوفةً على الشاطئ، تالفةً ويصعب قراءتها. خرائط لسكابا فلو[1]، في أرخبيل أوركاد-قاعدة بحريّة للجيش الإنكليزي صارت أسطورة. غالباً ما كنت أتابع بنظراتي الممرّات الضيّقة لمضيق بينتلاند فيرث وأتخيّل السفن الإنكليزيّة وراصديها مذعورين من أن يَلمَحوا مناظير الغوّاصات الألمانيّة عند مدخل الخليج.

غفوت مع المصباح مُضاءً. عند الثانية فجراً فتحت عينيّ. كانت آرييت تصرخ. صممت أذنيّ بانتظار أن تحدث الأدويّة مفعولها.

كنّا نعيش مع الصمت في هذا المنزل الذي كان من الممكن أن ينفجر بأيّة لحظة بصرخات مرعبة. وراحت تزداد المرّات التي أتمنّى فيها أن تموت آرييت سريعاً. من أجلها، لكي تتحرّر من أوجاعها، ومن أجلنا أنا ولويز أيضاً.

امتدت موجة الحرّ حتّى الرابع والعشرين من يوليو. في ذلك اليوم دوّنت في دفتر يوميّاتي أنّ الريح هبّت من جهة الشمال الشرقيّ وبدأ الزئبق ينخفض في ميزان الحرارة. الفترة الطويلة للحرارة المرتفعة تبدّلت بطقس غير مستقرّ وضغوط منخفضة تصل تباعاً فوق البحر الشمالي. هبّت

(1) سكابا فلو (Scapa Flow): ميناء بحريّ، تحيط به جزر أوركني أو أوركاد، شماليّ اسكتلندة، كانت فيه إبّان الحرب العالمية الثانية قاعدة عسكرية بحرية إنكليزية، وقد تمكّنت غوّاصة ألمانية من التسلّل إليها وتدمير سفينة رويال أوك، التي كان مبعث اعتزاز الأسطول الإنكليزيّ.

عاصفة في ليلة السابع والعشرين من يوليو، قَدِمت من الشمال وكنَسَت الأرخبيل. تفكّكت بضع قطع من قرميد السقف وتحطّمت على الأرض. تمكّنت من التسلّق إلى الأعلى واستبدالها بقطع أخرى كانت متروكةً منذ سنوات في إحدى الأبنية الملحقة التي بقيت واقفة بعد هدم الحظيرة في نهاية الستّينيات.

كان وضع آرييت آخذاً بالتدهور. منذ اجتاحت الساحلَ موجة هوائيّة باردة، لم تكن تستعيد وعيها إلّا فيما ندر. كنّا أنا ولويز نتناوب إلى جوارها. كانت المهمّة الوحيدة التي بقيت لويز تؤدّيها بمفردها هي تحميمها وتغيير الحِفَاضات.

كنت ممتنّاً لإعفائي من ذلك. لم أكن أرغب بالخضوع إلى هذه التجربة مع آرييت.

كان موسم الإنقليس يقترب، والليالي تزداد طولاً. لم تعُد الشّمس تدفّئ كما كانت قبل بضعة أسابيع. كنّا أنا ولويز متهيّئين لموت آرييت بين يوم وآخر. لم يكن تنفّسها منتظماً، وباتت نادراً ما تخرج من سباتها. وحين تصحو نبقى نحن الاثنين إلى جوارها. كانت لويز تصرّ على أن ترانا آرييت معاً. ولم تكن هذه الأخيرة تقول الكثير في تلك اللحظات. قد تسأل عن الساعة، وعمّا إذا كان قد حان موعد الطعام. كان واضحاً أنّها تفقد معالم الأمكنة تدريجيّاً. تظنّ نفسها أحياناً في المقطورة، في الغابة، أو في بيتها في ستوكهولم. بالنسبة لها لم يكن يوجد جزيرة ولا غرفة فيها قرية نمل. لم تكن واعيةً في الحقيقة لقرب موتها أيضاً. حين تصحو كان يبدو الأمر كما لو أنّه الشيء الأكثر طبيعيّة في العالم. تشرب قليلاً من الماء، وتبتلع بضع ملاعق من الحساء وتعود للنوم. صرت أخشى من شدّة نحولها أن يتمزّق جلد

الوجه ويظهر عظمها تحته. بشع هو الموت، فكّرت. لم يكن بقي من جمال آرييت شيء تقريباً. كانت هيكلاً عظمياً من الشمع تحت غطاء، ولا شيء أكثر.

في إحدى السهرات، في بداية أغسطس، جلسنا أنا ولويز على المقعد، تحت شجرة التفّاح. كنّا نرتدي سترتين دافئتين وتضع لويز على رأسها إحدى قلنسواتي الصوفيّة القديمة.

- ماذا ستفعل حين تموت؟ سَألتُ لويز. بالتأكيد فكّرتِ في ذلك. ربّما تعرفين ماذا تريد؟

- تريد أن تُحرَقَ جثتها. أرسلت لي منذ عدّة أشهر نشرة إعلانيّة لشركة تدير شؤون الجنازات. ربّما ما زالت معي، إذا لم أهملها. لقد رسمت دائرة بالقلم على التابوت الأرخص وأخرى على قارورة رماد سعرها مخفّض.

- هل لديها مدفن عائليّ؟

عقدت لويز حاجبيها.

- ما هو هذا؟

- هل يوجد مقبرة للعائلة؟ المكان الذي دُفن فيه أهلها؟ فيما مضى كنّا نسمّيه مدفناً عائليّاً.

- عائلتها موزّعة على امتداد البلد. ولم أسمعها تقول يوماً إنّها وضعت باقة ورد على قبر ذويها أو أيّ شيء من هذا القبيل. ولم تصرح بأمنيّة خاصّة. إلّا إنّها لا تريد وضع شاهدة على قبرها. وأظنّ أنّها تفضّل أن يُنثَر رمادها في الهواء. ولا يوجد ما يمنعنا من القيام بذلك.

- ينبغي الحصول على ترخيص. أخبرني يانسون أنّ صيّادين مسنّين

قدّموا طلباً لكي يُنثَر رمادهم في المياه الضحلة، حيث اعتاد سكّان المنطقة اصطياد سمك الرنكة.

أخذنا لبرهةٍ نفكّر صامتَين في مصير آرييت. بالنسبة لي، كان لديّ قطعة أرض في المقبرة، ولا مانع من أن تكون فيها لآرييت مساحة صغيرة إلى جواري.

فجأةً وضعت لويز يدها على ذراعي.

- على فكرة، ربّما لا داعي لطلب الإذن. بإمكان آرييت أن تكون ببساطة واحدة من كثيرين في هذا البلد ليس لهم وجود.

- عمّ تتكلمين؟ لكلّ شخص رقم تأمين صحيّ، يلاحقه حتّى الممات. ولا يحقّ لنا أن نختفي كما نريد.

- نستطيع المراوغة. تموت في بيتك، ثمّ نحرقها، كما يفعلون في الهند. وبعد ذلك ننثرها على الماء. ثمّ أُلغي عقد شقّتها في ستوكهولم وأُخليها، دون أن أدع البريد يتبعها. وهي لن تعود لقبض راتبها التقاعديّ. وأُبلغ قسم التطبيب المنزليّ بموتها، هذا كلّ ما يهمّهم. ربّما سأل أحدهم، ولكن بوسعي القول إنّي لم أتواصل مع أمّي منذ عدّة أشهر. وأنت تستطيع أن تدّعي أنّها غادرت بعد زيارة قصيرة.

- حقّاً؟

- مَن، برأيك، سيذهب ليسأل يانْسون أو هانس لوندمان عن المكان الذي غادرتْ إليه؟

- بالضبط، أين ذهبت؟ ومن أوصلها إلى الشاطئ؟

- أنت. منذ أسبوع. لا يعرف أحد أنّها لا تزال هنا.

فهمت تدريجيّاً أنّها كانت جادّة. أن نترك آرييت تموت هنا ونتكفّل

نحن بالجنازة. هل هذا ممكن بالفعل؟ لم نعد للتكلّم في هذا الأمر ذلك المساء. في الليل، وجدت صعوبة في النوم. لقد بدأت أقتنع أنّ ذلك كان ممكناً.

بعد يومين، أثناء العشاء، طرحت لويز شوكتها فجأةً.

- النار! صرتُ أعرف كيف يمكننا إشعالها دون أن نلفت الأنظار.

سمعت اقتراحها. مانعت في البداية، ثمّ أدركت أنّها فكرة جميلة.

اختفى القمر. ظلمة أغسطس، الليل الذي ندعوه ليل الإنقليس كان يغطّي الأرخبيل. آخر قوارب الصيف الشراعيّة تلتحق بمرابطها. أسطول البحريّة الملكيّة كان يناور في الأرخبيل الجنوبيّ. كان يصلنا أزيز القذائف من حين لآخر. وكانت آرييت تنام أربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة، وكنّا نسهر قربها بالتناوب. من بين أعمال كثيرة قمت بها لتأمين معيشتي أثناء دراسة الطبّ، كانت الرعاية الليليّة في المستشفى. ما زلت أذكر المرّة الأولى التي مات فيها أحدهم تحت بصري. حدث ذلك دون حركة، وبلا صخب. القفزة الكبيرة كانت بالغة الصغر... وحدة زمنيّة لا يكاد يمكن قياسها، يعبر بعدها الحيّ إلى ناحية الموتى.

أتذكّر أنّي فكّرت حينذاك أنّ ذلك الرجل الذي كان قد مات للتوّ لم يكن في الواقع موجوداً يوماً. كلّ ما كان يمّحي بعد الموت. لا يترك الموت أيّ أثر، إلّا ما كان لديّ على الدوام صعوبة في تحمّله: الحبّ والمشاعر. هربتُ من آرييت لأنّها اقتربت منّي أكثر ممّا ينبغي. وها هي ترحل.

في الأيّام الأخيرة من حياة آرييت كانت لويز حزينةً معظم الوقت. من جهتي شعرت بخوف كان يزداد باضطراد من فكرة أنّي لم أكن بعيداً أيضاً عمّا تقاسيه آرييت تحت بصري. كنت خائفاً من الإهانة، من الذلّ، وأتمنّى

ميتة ناعمة، تعفيني من المكوث فترةً طويلةً طريح الفراش بانتظار العبور إلى الضفّة الأخرى.

ماتت آرييت عند الفجر، بعد السادسة بقليل، في 22 أغسطس. كانت الليلة مضطربة، وبدا أنّ الأدوية لم تعد تجدي نفعاً. كنت أعدّ القهوة حين دخلت لويز المطبخ. وقفت إلى جواري وانتظرت أن أنهي عَدّ ثَوانيَّ السبع عشرة.

- أمّي ماتت.

ذهبنا إلى غرفة آرييت. جسست نبضها بأطراف أصابعي ووضعت السمّاعة على قلبها، كانت ميّتة بالفعل. جلسنا على طرف السرير. كانت لويز تبكي بهدوء، بلا صوت تقريباً. أمّا أنا فلم أشعر إلّا بارتياح آثم لأنّي لست الشخص الذي مات للتوّ.

بقينا صامتين نحو عشر دقائق. حاولت مرّة أخرى سماع قلبها، لم أسمع شيئاً. أخيراً أحضرت منديلي المطرّز العائد إلى جدّتي ووضعته على وجه آرييت.

شربنا القهوة التي كانت لا تزال ساخنة. وعند السابعة، اتّصلت بخفر السواحل. هانس لوندمان هو من رفع السمّاعة.

- بالمناسبة! شكراً للحفلة، كان ينبغي أن أتّصل بك...

- شكراً لحضورك.

- كيف حال ابنتك؟

- بخير.

- وآرييت؟

- لقد غادرت.

- أندريا لا تفارق حذاءها الأزرق، مهما واجهت من صعوبة في التوازن به. هلّا تخبر لويز بذلك؟

- أجل. لقد أردت تنبيهك إلى نيّتي اليوم في حرق كومة من الأغراض العتيقة. في حال ما إذا اتصل بك أحدهم ظنّاً منه أنّ حريقاً قد شبّ على الجزيرة.

- انتهى الجفاف لهذا العامّ.

- قد يظنّ أحدهم أنّ بيتي يحترق.

- معك حقّ، حسنٌ أنّك نبّهتني.

خرجت إلى الباحة، كانت الغيوم تغطّي السماء وما من ريح. ثمّ نزلت إلى المرآب وأحضرت الغطاء الذي أعددته كفناً وأشبعته بالقطران. فرشته على الأرض، وفي تلك الأثناء ألبستْ لويز آرييت فستانها الفاتح الذي ارتدته في الحفلة، ومشّطت لها شعرها ووضعت حُمرة على شفتيها. كان لا يزال بكاؤها كما كان، مكتوماً. بقينا لبرهة متعانقَين.

- سأشتاق لها، قالت لويز. كم كنت غاضبة منها طوال تلك السنين، والآن أدرك أنّها تفتح في داخلي ثغرة ستبقى فاغرة تنفث فيّ الأسى لبقيّة حياتي.

سمعت قلب آرييت للمرّة الأخيرة. كان جلدها قد بدأ يكتسي بالصّفرة التي تلحق الموت.

انتظرنا ساعة أخرى. ثمّ حملناها إلى الخارج ولففناها بالغطاء. كنت قد هيّأت المحرقة ووضعت على مقربة منها إحدى صفائح الوقود التي أحتفظ بها دوماً كاحتياطيّ.

رفعناها ووضعناها في قاربي القديم. وأغرقت كلّ شيء بالوقود، الجسد وهيكل القارب.

- يفضَّل ترك مسافة. سيندلع الوقود فجأةً، وقد تحترقين إذا بقيت قريبةً.

تراجعنا. نظرت إلى لويز، التي كانت قد كفّت عن البكاء، فأومأت لي بالإيجاب. أشعلت فتيلاً مشبعاً بالقطران وقذفته على القارب.

تعالى هدير النار، وبدأ الغطاء المشبع بالقطران يفرقع ويخشخش. أمسكت لويز يدي. أخيراً وجد قاربي القديم الفرصة ليكون مفيداً، أرسلت على متنه آرييت إلى العالم الآخر الذي كانت مثلي لا تؤمن به، ولكن على الأرجح كنّا سويّة نحمل أمله في أعماقنا.

وبينما كان القارب يشتعل نزلت إلى المرآب، وأخذت منشاراً حديديّاً قديماً وبدأت بنشر العكّاز الرباعيّ. بعد برهة، أدركت أنّي لن أستفيد شيئاً. فحملته في الزورق مع حجرين كبيرين وجنزيرين. ومضيت أجدّف إلى طرف البحر الشماليّ ورميت العكّاز المُثَقَّل إلى القاع. لن يأتي أحد ليرسو أو يصطاد في هذا المكان. لا شيء سيلتقط العكّاز الرباعيّ ويعيده إلى سطح الماء.

كان الدخان يتصاعد عالياً في السماء. خطر لي وأنا عائد إلى الجزيرة مجدّفاً أنّه لم يبق أمامنا على الأرجح وقت طويل حتّى يصل يانْسون. وجدت لويز مقرفصة، تتأمّل القارب الملتهب.

- مؤسف أنّي لا أجيد العزف على آلة موسيقيّة، قالت. أتعرف الموسيقى التي كانت تفضّلها أمي؟

- أعتقد أنّها كان يستهويها الجاز الكلاسيكيّ. حين كنّا نعيش معاً كنّا

نذهب إلى المدينة القديمة لسماعه، في ستوكهولم.

- إنّك مخطئ. كانت تودّ دوماً سماع اللّحن العاطفيّ *Sail Along Silvery Moon* الذي كان رائجاً في الخمسينيّات. كنت أودّ أن أعزفه لها، مزمورَ وداع...

- ليس لديّ أدنى فكرة عن هذا اللّحن.

وأخذت تدندن بلحنٍ لم أميّزه. قد أكون سمعته في الماضي، ولكن لم تعزفه أيّة فرقة جاز.

نهضتُ.

- سأقول ليانْسون حين يصل إنّ آرييت غادرت البارحة. وأنّي أوصلتها إلى المرفأ. ثمّ وصل قريب لها وأخذها في سيّارة. فقد كان ينبغي عليها الذهاب إلى المستشفى، في ستوكهولم.

- أخبرْه بأنّها تبلغه تحيّاتها. هكذا، لن يسأل أبداً لماذا غادرت بهذه السرعة.

يانْسون دقيق بمواعيده على جري عادته. وصل ومعه على متن القارب مسّاح لديه مهمّة على جزيرة بريدهولمن. تبادلنا التحيّة، ثمّ نزل يانْسون إلى الرّصيف ليتأمّل تراقص النار.

- اتّصلت بلوندمان، قال. خُيّل لي أنّ بيتك هو الذي يحترق.

- إنّني أُحرق قاربي، ففي النهاية لا يمكن استعادته، وليس لديّ الشجاعة لأن أراه قابعاً تحت غطائه شتاءً آخر.

- حسناً فعلتَ، تأبى القوارب المسنّة أن تموت ما لم تُقطَّع أو تُحرَق.

- على فكرة، لقد غادرت آرييت. أوصلتها يوم البارحة إلى المرفأ، وهي تبلغك تحيّاتها.

- لطيف منها. أبلغها سلامي. أعجبتني جدّاً، رائعة هذه السيّدة المسنّة. هل لي أن آمل في أن يكون وضعها تحسّن؟
- ينبغي أن تعود إلى المستشفى، أخشى أنْ لم يتحسّن وضعها. لكنّها تبلغك تحيّاتها.

لم يكن لدى يانْسون بريد لي. غادر مع المسّاح. تساقطت بضع قطرات من السماء، غير أنّ الانهمار الشديد ما لبث أن توقّف. عدت إلى جانب النار. كان مؤخّر القارب منهاراً. لم يعد بالإمكان تمييز الخشب المتفحّم من الغطاء ومحتواه. لم تكن تنبعث رائحة اللحم المحروق من الجمر. كانت لويز جالسةً على حجر. فجأةً خطرت لي سيّما وتساءلت ما إذا كانت جزيرتي تجتذب الموت. هي شرّطت جسدها هنا، وإلى هنا أتت آرييت لكي تموت. هنا ماتت كلبتي ولم تعد قطّتي للظهور.

شعرت بإحباط وأنا أفكّر في نفسي. أثمّة شيء يمكن أن أكون فخوراً به؟ من المؤكّد أنّي لم أكن رجلاً سيئاً، ولا عنيفاً، وليس لديّ ميول إجراميّة. لكنّي خنت آرييت، ولم تكن الوحيدة. بقيت أمّي تسعة عشر عاماً في بيت العجَزة بعد موت أبي ولم أزرها إلّا مرّة واحدة. ولطول المدّة التي كانت قد مرّت حينئذ لم تتعرّف عليّ. وظنّت أنّي أخوها، المتوفّى منذ خمسين عاماً. لم أحاول إزالة التباسها. بقيت جالساً على الكرسيّ، داعماً وجهة نظرها. أجَل، بالتأكيد، أنا أخوك الذي مات منذ سنين. ثمّ تخلّيت عنها. ولم أعد إلى زيارتها قطُّ. حتّى لم أحضر دفنها. تركت لمؤسّسة معنيّة بشؤون الجنازات أن تتكفّل بكلّ شيء، ويوم وصلتني الفاتورة، سدّدتها. باستثناء الكاهن وعازف الأرغن، لم يحضر الجنازة إلّا ممثّل عن المؤسّسة ذاتها. لم أحضر لسبب بسيط، هو أنّه لم يكن لأحد أن يجبرني على ذلك. والآن أدركُ

أنّي بذلك ازدريت أمّي. وبطريقة ما، ازدريت آرييت أيضاً.

ربّما شعرت بازدراء للعالم كلّه، وعلى الأخصّ لنفسي.

لم أعد أعرف ما إذا كنت جرّاح عظام جيّداً. كنت الكائن الصغير المذعور الذي رأى، في شخص أبيه، الجحيمَ الموحش الذي يتهدّدنا حين نصبح كباراً.

مضى النهار بذات البطء الذي عبرت به الغيوم. حين بدأت النار تخبو، أطعمتها بحطب مشبع بالوقود. إنّ حرْق إنسان يستغرق وقتاً. خاصّة عندما لا يكون ذلك في محرقة، حيث تصل درجة الحرارة إلى 1000 درجة، ما يكفي لتحطيم حتّى العظام.

كانت النار لا تزال مشتعلة لمّا ظهر الشفق. أضفت حطباً جديداً وحرّكت الرماد. أحضرت لويز صينية الطعام. شربنا ما تبقّى من الكونياك وبسرعة ثملنا. كنّا نبكي ونضحك من الحزن، ولكن أيضاً من الارتياح لأنّ عذاب آرييت توقّف أخيراً. أصبحت لويز أقرب إليّ بعد أن غادرت أمّها وما عادت بيننا لتذكّرني بهجري لها. كنّا جالسين على العشب، متّكئين أحدنا على الآخر نتأمّل دخان المحرقة الجنائزيّة وهو يتصاعد ويختفي في الظلمة.

- سأبقى في هذه الجزيرة للأبد، قالت لويز.

- ابقي إلى الغد أوّلاً...

عند الفجر، تركت النار تخمد أخيراً وتصير جمراً.

غفت لويز متكوّرة على العشب، غطّيتها بسترتي. استيقظت عندما بدأت أرشق الجمر بدلاء ملأى بماء البحر. لم يتبقّ شيء أبداً، لا من آرييت ولا من قاربي العتيق. رأتني لويز أجمع الرماد.

- لا شيء، قالت. إلى البارحة كانت امرأة على قيد الحياة. ولم يتبقّ منها شيء.
- فكّرت أنّ بإمكاننا حمل الرماد في الزورق ونثره فوق سطح الماء.
- لا. لا أستطيع ذلك. ينبغي أن يبقى رمادها على الأقلّ.
- ليس عندي قارورة رماد.
- مرطبان بسيط يفي بالغرض. أريد أن يبقى رمادها. نستطيع دفنه بجوار الكلبة.

مضت لويز باتّجاه المرآب. لم أشعر بالارتياح في أن تتحوّل رقعة العشب تحت شجرة التفّاح إلى مقبرة. سمعت صوتاً من جهة المرآب. عادت لويز مع مرطبان كان في الماضي يحوي زيتَ محرّكات يستعمله جدّي لقاربه، الذي غسلتُه لأضع فيه البراغي والمسامير. كان فارغاً. نفخت لويز الغبار عنه ووضعته على مقربة من كومة الرماد، وبدأت تملأه بيديها العاريتين. ذهبت بدوري إلى المرآب وأحضرت الرفش. حفرت بالقرب من حفرة الكلبة، ووضعناه في أسفل الحفرة وغمرناها بالتراب. غابت لويز من جهة الصخور، وعادت بعد برهة ومعها حجر كبير حفرت عليه الترسّبات خطوطاً شبيهةً برسم الصليب. ووضعته على القبر.

كان النهار والليل مرهِقين. نال منّا الإنهاك. أكلنا بصمت. عادت لويز إلى مقطورتها لتنام. بحثت مطوّلاً في خزانة الحمّام قبل أن أجد منوّماً. غفوت مباشرة ونمت تسع ساعات متواصلة. لا أتذكّر آخر مرّة حصل لي ذلك.

عندما نزلت كانت لويز جالسةً إلى طاولة المطبخ. كان بابِ حجرة

الصالون مفتوحاً. لقد أعادت توضيبها، ماحيةً كلّ أثر لنزاع الموت الذي كان نشب فيها قبل ليلة.

- إني ذاهبة، قالت. سأغادر اليوم. البحر هادئ، فهل توصلني إلى المرفأ؟

جلستُ. لم أكن مهيّئاً أبداً لرحيلها.

- أين ستذهبين؟

- لديّ بعض الأعمال الملّحة.

- بإمكان شقّة آرييت أن تنتظر بضعة أيّام.

- ليس الأمر كذلك. ألا تذكر المغارات المعرّضة رسومها للتعفّن؟

- اعتقدت أنّك ستكتبين رسائل للزعماء...

- لا. لم تعد الرسائل تكفي. يجب فعل شيء آخر.

- ما هو؟

- لا أعرف بعد. ثمّ ينبغي أن أذهب لمشاهدة لوحات كرافاجّو. أصبح الآن معي مال. تركت لي آرييت ما يقارب مائتي ألف كورون. وحتّى من قبل، كانت تعطيني من حين لآخر وكنت دوماً مقتصدة. ربّما تتساءل عن المبالغ النقدية التي وجدتها وأنت تبحث في مقطورتي. حسّ اقتصاديّ هذا كلّ شيء. في حياتي لم أكن أكتب الرسائل فقط، حصل أن عملت أيضاً مثل جميع النّاس. ولم أكن يوماً مبذّرة.

- كم تنوين أن تغيبي؟ إذا كنت لن تعودي، فحملّي مقطورتك وخذيها معك. لا حاجة بي لها على جزيرتي.

- لماذا غضبت؟

- أنا حزين لأنّك ذاهبة ولعلّك لن تعودي.

نَهضت فجأة.

- لست مثلك، قالت. أنا سأعود. وعلاوةً على ذلك، أحذّرك قبل أن أذهب، إذا لم يكن ممكناً إبقاء المقطورة هنا، فأنا أنصحك بإحراقها هي أيضاً. سأذهب وأعدّ حقائبي، وسأكون جاهزة بعد ساعة. ستوصلني أم لا؟

كان الهواء ساكناً حين خرجنا أنا ولويز، والبحر مصقولاً مثل مرآة. ظلّ القارب ينفث الدّخان بشكل مخيف عند الإقلاع إلّا أنّه انطلق في النهاية. كانت لويز جالسة في المقدّمة، مبتسمة. أحسست بالندم على انفعالي.

كانت سيّارة الأجرة بانتظارها عند وصولنا. لم يكن معها غير حقيبة ظهر.

- سأتّصل بك، قالت. وسأرسل لك بطاقات بريديّة.

- كيف بوسعي التواصل معك؟

- لديك رقم هاتفي. ولكن لا أعدك بأن يكون جوّالي مُفَعّلاً دوماً، غير أنّي أعدك بإرسال بطاقة بريديّة إلى أندريا.

- وأرسلي بطاقة أيضاً ليانْسون، سيفرح كثيراً.

انحنت لتصير بموازاتي.

- رتّب مقطورتي إلى حين عودتي، وضّبها، ولمّع الحذاء الأحمر الذي تركته.

مرّرت يدها على جبيني ثمّ ركبت في سيارة الأجرة التي انطلقت. تناولت صفيحة الوقود ورحت أملأها من المرفأ. لم يكن يوجد أحد تقريباً، فقد غادر المصطافون.

عند عودتي، قمت مرّة أخرى بجولة حول الجزيرة باحثاً عن قطّتي، فلم أجدها. صرتُ وحيداً في هذه المكان أكثر من أيّ وقت مضى.

مضت بضعة أسابيع. عاد كلّ شيء كما كان. يانْسون يصل بقاربه، وبين حين وآخر يحضر لي رسالة من آغنيس، ولا شيء من لويز. كنت أتّصل بها فلا تجيب. رسائلي الصوتيّة التي كنت أتركها في مُجيبها الآليّ كانت أقرب إلى ملاحظات قصيرة ورديئة عن الطقس والاختفاء الغامض لقطّتي.

لعلّ ثعلباً اقتنصها، وفرّ من الجزيرة سابحاً!

كان قلقي يزداد. فكّرت أنّني عمّا قريب لن أتحمّل البقاء في الجزيرة. كان ينبغي أن أذهب. ولكن لم أكن أعرف إلى أين.

بدأ سبتمبر بعاصفة شماليّة شرقيّة. ولا إشارة من لويز. آغنيس سكتت أيضاً. كنت أجلس إلى طاولة المطبخ، وأتأمّل الطبيعة من النافذة وهي تتجمّد في الخارج. لديّ شعور بأنّ بيتي كانت تبتلعه شيئاً فشيئاً قرية نمل عملاقة تتضخّم بلا صخب يوماً بعد يوم.

كان يبدو أنّ الخريف سيكون قاسياً. وكنت أترقّب.

الانقلاب الشتويّ

(1)

بدأ التجمّد هذا العام في ليلة الثالث من أكتوبر.

حين عدت إلى دفاتر يوميّاتي القديمة، لاحظت أنّه منذ سكني على الجزيرة لم تتدنّ درجات الحرارة تحت الصفر مبكّراً مثل هذا العام. كنت لا أزال أنتظر أخباراً عن لويز. لم يصلني منها شيء، ولا حتّى بطاقة بريديّة.

في ذلك المساء رنّ الهاتف، سألني صوت امرأة إذا كنت فريدريك فيلين. بدا لي أنّي أعرف صوتها، ولكن حين قدّمت نفسها، آنّا ليدن، لم يعنِ لي اسمها أيّ شيء على الإطلاق.

- أنا من الشرطة، لقد التقينا سابقاً.

حينها تذكّرت المرأة العجوز التي وجدتُها ميّتة على أرض مطبخها. وتذكّرتُ آنّا ليدن، الشرطيّة الشابّة ذات ذيل الحصان الأشقر تحت القبّعة.

- أتّصل بك بخصوص الكلب الإسبانيوليّ[1]، قالت. كلب سارا لارسون. بالمناسبة، هي كلبة. لم يطالب أحد بها، وكان ينبغي حقنها بإبرة؛ إلا أنّي فضّلت أخذها. ولكن بتّ مرتبطة برجل لديه حساسيّة من الكلاب، ولأنّي لا أريدها أن تموت، فكّرت فيك. ووجدت اسمك وعنوانك الذي دوّنته من قبل. أتساءل إذا كان

(1) فصيلة من الكلاب سُميّت هكذا لأصلها الإسبانيّ.

في نيّتك الاعتناء بها. فأنت تحبّ الحيوانات على الأرجح، بما أنّك توقّفت حين لمحتها على الطريق.

أجبتها دون أيّ تردّد.

- كان لديّ كلبة، ماتت منذ وقت قصير. أرغب بأخذها، ولكن كيف ستصل إلى هنا؟

- أستطيع إحضارها لك. لقد استفسرت عنها، كانت سارا لارسون تدعوها: روبي، أي الياقوتة الحمراء؛ اسم غير مألوف ولكن لم أغيّره. وعمرها خمس سنوات.

- متى تستطيعين أن تأتي؟

- في نهاية الأسبوع القادم.

لم أكن أريد المغامرة بجلب الكلبة على متن قاربي، الذي كان بالفعل صغيراً؛ فتدبّرت الأمر مع يانْسون. وهو بدوره أمطرني بالأسئلة، عن فصيلة الكلبة وأشياء أخرى. ولكن أجبته فقط بأنّي ورثته. فلم يصرّ.

في الثاني عشر من أكتوبر، عند الساعة الخامسة، وصلت آنّا ليدن بسيّارتها. لديها هيئة مختلفة كلياً عمّا هي عليه في بزّتها الرسميّة. كانت الكلبة معها.

- أعيش في جزيرة، قلتُ. وهي ستكون هناك مثل ملكة.

ناولتني آنّا ليدن زمام الكلبة. جلست روبي إلى جانبي.

- سأغادر فوراً، قالت آنّا ليدن، وإلّا فسأجهش بالبكاء. هل أستطيع الاتّصال لمعرفة أخبارها؟

- طبعاً.

عادت إلى سيّارتها وأقلعت. لم تشدّ روبي زمامها لتركض وراءها. ولم

تتردّد في القفز داخل قارب يانْسون.

عدنا نمخر المياه المعتمة. كانت ريح باردة تهبّ من خليج فنلندا.

عند وصولنا، وذهاب يانْسون، أفلتُّها. اختفت وراء الصخور. وعادت بعد نصف ساعة. بدت الوحدة لي أقلّ وطأة.

كان الخريف قد أتى.

كنت ما فتئت أتساءل ما الذي كان يحصل لي. ولماذا لم ترسل لويز أخبارها إليّ؟

(2)

لم يعجبني اسم الكلبة.

ولا يعجبها هي كما يبدو، طالما أنّها معظم الأحيان لا تأتي حين أناديها به.

لا يوجد كلب اسمه روبي. لماذا أطلقت عليها سارا لارسون هذا الاسم السخيف؟ حين اتّصلت آنّا ليدن لتطمئنّ، سألتُها عن ذلك. فأدهشني جوابها.

- حسبَما يقال، كانت سارا لارسون في مطلع حياتها تعمل خادمة على متن سفينة شحن، وغالباً ما كانت هذه السفينة تقف في مدينة أنفير البلجيكيّة. وفي أحد الأيام نزلت إلى المدينة وأصبحت تخدم عند تاجر مجوهرات. ولعلّ هذا ما أوحى لها بالاسم.

- كان الأفضل أن تدعوها «ديامون» (ألماسة).

بغتةً سمعت هياجاً كبيراً على الطرف الآخر من الخطّ؛ جلبة أصوات تصرخ وتئنّ، وضجّة كما لو أنّ أحدهم يطرق على صفيحة معدنيّة.

- آسفة، ينبغي أن أغلق.

- أين أنت؟

- نستجوب رجلاً مهتاجاً في ورشة خردة.

انقطعت المكالمة. كنت أحاول تخيّل الصغيرة آنا ليدن، بيدها السلاح وذيل الحصان يتقافز تحت قبّعتها. بالتأكيد ليس من المبهج الوقوع بيدها في مثل هذه الحالة.

أعطيت الكلبة اسماً آخر، دعوتها كارّا. من الواضح أنّ ذلك متعلّق جزئيّاً بابنتي، التي لم تكن تتّصل بي إطلاقاً والتي كانت تهتمّ بكرافاجّو، ولكن لماذا نطلق هذا الاسم أو ذاك على حيوان؟ لا أعرف أبداً.

لزم الأمر عدّة أسابيع من التدريب المكثّف لتتقبّل أن تصبح كارّا، وأصبحت تأتيني على مضض حين أناديها.

مضى أكتوبر بطقس متقلّب: أسبوع حارّ مثل صيف هنديّ، ثمّ أيّام تكنسها ريح قارسة من الشمال الشرقيّ. أحياناً، وأنا أتأمّل البحر الواسع، ألاحق أسراب الطيور بنظري وهي تتجمّع، قلقة، قبل أن تبدأ بغتة، كما لو بعد إشارة، هجرتها صوب الجنوب.

ثمّة حزن خاصّ يرافق هجرة الطيور الراحلة. بعكس الفرح الذي نشعر به حين عودتها في الربيع. كان الخريف يغلق كتابه، والشّتاء يقترب يوماً بعد آخر.

عند الاستيقاظ في كلّ صباح، أحاول استشعار جسدي لأعرف ما إذا كانت آلام الشيخوخة تقترب. يقلقني أحياناً الاندفاع الضعيف لبولي. ينطوي الأمر على مهانة شخصيّة في أن يأتي الموت بسبب خلل في البول. من الصعب تخيّل موت فلاسفة يونانيّين أو أباطرة رومان بسبب سرطان البروستات -لكن بالطبع هذا ما حصل مع بعضهم.

فكّرت في حياتي. أكتب أحياناً في دفتري جملة ليس لها معنى. توقّفت

عن تسجيل اتّجاهات الريح ودرجة الحرارة. وبدلاً عن ذلك جعلتُ أدوّن رياحاً وحرارة متخيّلتين. بهذه الطريقة أعلنت للجيل القادم أنّه في 27 أكتوبر كنس إعصارٌ جزيرتي وأنّ درجة الحرارة في المساء كانت سبعاً وثلاثين درجة.

كنت أجلس في أماكن تأمّلي المختلفة. من فرط ما هو رائع تكوين جزيرتي كان بوسع المرء أن يجد دوماً أمكنة محميّة للجلوس. لا يمكن التذرّع بقوّة الريح لعدم الخروج. فكنت أبحث عن المكان الهادئ في هذه الساعة أو تلك، وأبقى جالساً فيه، متسائلاً عن اختياري أن أكون ما أنا عليه. من السهل طبعاً تمييز بعض الأسباب الأوليّة. كنت نزعت نفسي من بيئتي الأصلية؛ الكلام اليوميّ المتكرّر عن ظروف الحياة غير المستقرّة التي كان يعيشها أبي أعطاني القوّة الضروريّة لأنفذ بجلدي. ولكن أستطيع أيضاً وبذات الوقت أن أشكر الصدفة التي جعلتني أولد في زمن يتيح مثل هذا الارتقاء الاجتماعيّ. زمن يستطيع فيه ابن نادل متواضع أن يتقدّم إلى البكالوريا وأكثر من ذلك أن ينهي دراسته في الطبّ. ولكن لماذا أصبحت هذا الرجل الباحث دوماً عن أماكن للتخفّي بدل البحث عن إمكانات تواصل حميميّ؟ لماذا عشت طوال حياتي مثل ثعلب لديه مخارج كثيرة لجحره؟

البتر اللعين الذي لم أرغب يوماً في تحمّل مسؤوليّته، لم يكن يفسّر كلّ شيء. لم أكن جرّاح العظام الوحيد في العالم الذي يتعرّض إلى مثل هذا المكروه.

مرّت لحظات، في ذلك الخريف، كان فيها الخوف على أشدّه. كان ذلك يُتَرْجَم بسهرات لا نهائيّة أمام التلفاز الذي كانت برامجه تافهة دوماً ومملّة،

ليالٍ مرّت دون نوم وأنا أعيد التفكير في حياتي، أبكيها وألعنها –أو أقوم بالاثنين معاً.

أخيراً وصلت رسالة من لويز، مثل طوق نجاة يُرمى لغريق. كتبت لي أنّها كرّست أيّاماً طويلة لإخلاء شقّة أمّها. وأرفقت رسالتها بصور عثرت عليها بين أوراق آرييت المخبّأة، لم تكن حتّى تلك اللحظة تعلم بوجودها. تأمّلتُ بذهولٍ صورنا أنا وآرييت، قبل أربعين عاماً. تعرّفت عليها هي، أمّا شكلي فكان غريباً لدرجة مرعبة. على إحداها، وكانت مأخوذة في مكان ما في ستوكهولم عام 1966، حسبَ الأرقام المكتوبة على ظهر الصورة، كان لديّ لحية. تلك هي المرّة الوحيدة في حياتي التي تركت فيها لحيتي تطول، وكنت نسيت... لم يكن لديّ فكرة عن الشخص الذي التقط الصورة. لفت انتباهي رجل في الخلفيّة يشرب من فوهة زجاجة أكوافيت. تذكّرته هو، ولكن أين كنّا ذاهبين أنا وآرييت في ذلك النهار؟ وأين كنّا؟ من يمكن أن يكون قد ضغط على الزرّ؟

حدّقت في الصور الأخرى بذات الدهشة، بذات التساؤل الشارد. لقد كدّست ذكرياتي في غرفة، ثمّ أقفلت الباب، ورميت المفتاح.

كتبت لي لويز أنّها اكتشفت جزءاً كبيراً من طفولتها خلال الأيّام والأسابيع التي وضّبت بها الشقّة. كتبت:

ولكن أكثر ما فهمته أنّي، في العمق، لم أكن أعرف شيئاً عن أمّي. وجدت رسائل، ويوميّات حميمة أيضاً (كانت عموماً تهملها بسرعة) فيها الكثير من الأفكار والتجارب التي لم تكلّمني عنها قطّ. حسبَ ما قرأت، كانت تحلم في مطلع حياتها بأن تصبح طيّارة. كانت تقول لي طيلة حياتها

إنّها كانت ترتعب في كلّ مرّة تضطرّ فيها إلى صعود الطائرة. وإنّها تريد أيضاً أن تزرع حقل ورد في جزيرة غوتلاند، وإنها تحاول تأليف كتاب لم تنجزه قطُّ. ولكنّ أكثر ما هزّني هو أن أكتشف إلى أيّة درجة كانت تكذب عليّ. قراءة أوراقها أعادتني إلى ذكريات الطفولة، وكلّ مرّة تقريباً أفاجأ وأنا أقبض عليها متلبّسة بالكذب. في أحد الأيام، مثلاً، كانت إحدى صديقاتها مريضة وكان ينبغي أن تذهب على الفور لمساعدتها. أتذكّر هذا تماماً: لم أكن أريد أن تذهب، كنت أبكي، كنت أرجوها أن تبقى، وهي تشرح لي أثناء ذلك أنّ صديقتها مريضة مرضاً خطيراً جدّاً يوجب عليها الذهاب. في الحقيقة -هذا ما أكتشفه الآن- كانت قد ذهبت إلى فرنسا مع رجل كانت تتطلّع إلى الزواج منه، ولكنّه اختفى بسرعة من حياتها. لا أريد إزعاجك بكلّ التفاصيل التي وجدتها هنا. ولكنّ ما اكتشفته علّمني شيئاً على الأقلّ، أنّ على المرء أن يرتّب حياته قبل أن يموت. وهذا ما استغربته من آرييت، رغم أنّها كانت تعرف منذ أمد طويل أنّها وصلت إلى النهاية، لم ترمِ بعض أوراقها أو تحرقها بنفسها. مع أنّها تعرف أنّها ستسقط في يدي. التفسيرِ الوحيد الذي يخطر في بالي هو أنّها كانت تريد أن تُفهمني بأنّها، من جوانب عدّة، لم تكن هي الشخص الذي اعتقدتُه. هل كان مهمّاً بالنسبة إليها أن أعرف الحقيقة، حتّى لو بدا واضحاً أنّي في الوقت ذاته سأكتشف كلّ أكاذيبها؟ إلى الآن لا أعرف إذا كان ينبغي أن أمحضها الإعجاب أو أنعتها بالقسوة. على أيّة حال، الشقّة الآن فارغة؛ سأترك مفاتيحها في علبة البريد وأغادر. سأذهب لزيارة المغارات مصطحبةً كرافاجّو.

الجملة الأخيرة على الأقلّ تركتني حائراً. كيف كانت تفكّر في أن

«تصطحب» كرافاجّو إلى المغارات الفرنسيّة؟ هل هذه شفرة عليّ فكّ لغزها؟

لم تترك لي عنواناً لأكتب لها. مع ذلك جلست إلى الطاولة في مساء اليوم ذاته لأردّ على رسالتها. علّقت على الصور، وأخبرتها عن ذاكرتي الخاصّة التي كانت تخونني وعن نزهاتي على الصخور مع كارّا أيضاً. حاولت أن أشرح لها أنّي أمضي في طريق حياتي متلمّساً، كما لو أنّني سقطت في حقل مليء بالأشواك وأكاد لا أقدر على المضيّ فيه قدُماً.

أكثر من أيّ أمر آخر كتبت عن اشتياقي لها. لم أتوقّف عن تكرار ذلك في الرسالة. أغلقت الظرف وألصقت طابعاً وكتبت اسمها. ثمّ تركته بانتظار اليوم الذي سترسل لي فيه عنوانها.

وما كدت أنام ذلك المساء حتّى رنّ الهاتف. أفزعني، أخذ قلبي يخفق بقوّة وأنا أنزل الطابق الأرضيّ لأردّ. لن يصل خبر سارّ في مثل هذا الساعة. كانت كارّا نائمة على أرض المطبخ، رفعتْ رأسها عند دخولي.

- أنا آغنيس. أتمنّى أنّي لم أوقظك.

- لا تبالي. بأيّة حال، أنام أكثر من حاجتي.

- سآتي أليك.

- أنت في المرفأ؟

- ليس بعد. أفكّر في القدوم غداً، إذا كان ذلك يناسبك.

- أجَل، بالطبع.

- بإمكانك أن تأتي لاصطحابي؟

سمعت هبوب الريح وصوت الموج يتكسّر على صخور الرأس الشماليّ.

- هبوب الريح أقوى من قدرة زورقي الصغير. سأتدبّر الأمر بالاتّفاق مع أحدهم ليوصلك إلى الجزيرة. متى ستأتين؟

- عند الظهيرة.

- اتّفقنا. ستجدين من ينتظرك في المرفأ.

أغلقت السمّاعة بغتةً. شعرت بقلق في صوتها. بدا أنّها مستعجلة للقدوم.

بدأتُ التنظيف في الخامسة فجراً. أبدلت كيس مكنستي الكهربائيّة القديمة، ولاحظت أنّ الغبار قد اجتاح المنزل بأكمله ثانيةً. دام العمل ثلاث ساعات متواصلة حتّى حصلت على نظافة مقبولة. ثمّ استحممت في البحر البارد، وبعد أن نشّفت نفسي وتدفّأت، جلست إلى طاولة المطبخ بنيّة الاتّصال بيانْسون. ولكن في المحصّلة طلبت رقم خفر السواحل. كان هانس لوندمان في البحر؛ اتّصل بي بعد ربع ساعة. فسألته إذا كان يستطيع أن يحضر شخصاً من المرفأ ويوصله إلى جزيرتي.

- أعرف أنّه يُمنع عليك حمْل ركّاب في الزورق...

- نستطيع القيام بدوريّة من جهة جزيرتك. ماذا يدعى الراكب؟

- هي امرأة. لا يمكنك أن تخطئها، تنقصها ذراع.

أنا وهانس متشابهان، بخلاف يانْسون، لدينا ميل لإخفاء فضولنا فلا نطرح أسئلة غير ضروريّة. وبالمقابل، لا أعتقد أنّ هانس لديه عادة العبث بأغراض معاونيه.

اصطحبت كارّا في جولة حول الجزيرة. كنّا في الأوّل من نوفمبر، البحر يزداد رماديّة مع الوقت، والشجر يتجرّد من آخِر أوراقه. كنت مفعماً بالتوقّعات بخصوص زيارة آغنيس. لكنّ ما فاجأني شخصيّاً هو

ملاحظة أنّها كانت تثيرني. تخيّلتها واقفة في مطبخي، عارية مع جدعتها. جلست على المقعد قريباً من الرّصيف وحلمت بقصّة حبّ مستحيلة. لم يكن لديّ أيّة فكرة عمّا كانت تريده منّي، ولكنّ لا أظنّ أنّها قادمة لكي تصارحني بحبّها.

جلبتُ سيف سيّا وحقيبتها من المرآب ووضعتهما في المطبخ. لم تخبرني آغنيس ما إذا كانت تنوي البقاء. ولكن تحسّباً لذلك، وضعت أغطية على سرير التخييم في الصالون.

أكثر من مرّة فكّرت في نقل قرية النمل، بعربة اليد، ووضْعها قرب المرج القديم الذي بات مهمَلاً. ولكن مثل أغلب الأشياء، لم يتحقّق ذلك، فيما كانت قرية النمل تتمادى في زحفها على الغطاء والطاولة.

عند تمام الساعة الحادية عشرة، حلقت ذقني، وانتقيت ثياباً لبستها بسرعة قبل أن أتردّد وأرتدي غيرها. كانت فكرة زيارتها تجعلني عصبيّاً مثل مراهق. وفي النهاية، عدت ولبست ثيابي اليوميّة، بنطال غامق، وجزمة مقصوصة وكنزة سميكة منسولة الخيوط. كنت في الصباح قد أخرجت دجاجة من الثلّاجة.

مررت بمنفضة الغبار على الأماكن التي كنت نظّفتها من قبل. وعند الظهيرة لبست سترتي ونزلت أنتظر على الرّصيف. لم يكن اليوم يوم بريد، بمعنى آخر لن يزعجنا يانْسون. كانت كارّا متأهبةً عند آخر الرّصيف؛ بدت تخمّن أنّ حدثاً هامّاً يُعدّ له.

وصل هانس لوندمان على متن أكبر قوارب خفر السواحل. سمعته يقترب من بعيد، بمحرّكه القويّ، ونهضت حين ظهر عند مدخل الخليج. رسى هانس بجؤجؤ القارب فقط بسبب ضحالة المياه. خرجت آغنيس

من مقصورة الربّان؛ كانت تلقي على كتفها حقيبة ظهر. وكان هانس ببزّته الرسميّة متّكئاً على دربزون القارب. شكرتُه.

- كان ينبغي أن أمرّ من هنا على أيّة حال، قال. بُلِّغنا عن قارب شراعيّ بلا ملّاح في جهة غوتلاند.

عاد إلى موقعه، تابعناه بنظرنا وهو يقلع. كان شعر آغنيس يتطاير في الهواء. تملّكتني رغبة جارفة في تقبيلها.

- المكان جميل هنا، قالت. كنت أحاول تخيّل جزيرتك ولكنّي الآن أرى الحقيقة مختلفة.

- لماذا؟

- بسبب الخضرة. ظننت أنْ ليس فيها سوى الصخر والماء.

أقبلت كارّا باتّجاهنا. بدت المفاجأة على آغنيس.

- ألم تخبرني بأنّ كلبتك ماتت؟

- هذه أخرى. تدعى كارّا، هديّة من شرطيّة. إنّها قصّة طويلة.

صعدنا باتّجاه البيت. أردت حمل حقيبة الظهر عنها، فرفضت. وما إن دَخلَتِ المطبخ، حتّى لاحظتِ السيف وحقيبة سيّما. جلستْ على الكرسي.

- هنا حدث الأمر؟ أريد أن تروي لي الآن، مباشرة.

أخبرتها بكافّة التفاصيل المحفورة أبداً في ذاكرتي. اغرورقت عيناها بالدمع. ما قلته كان أقرب إلى خطبة تأبين منه إلى ملخّص سريريّ عن الانتحار، الذي انتهى على سرير المستشفى. حين صمتّ، لم تطرح أيّ سؤال. واكتفت بفتح الحقيبة والنظر إلى داخلها. استأنفتُ الكلام:

- لماذا أقدمت على الانتحار هنا؟ على الأرجح حصل شيء عند وصولها... لم أتخيّل ولو للحظة أنّها ستقدم على ذلك.

- ربّما وجدت... الأمان هنا. شيء لم تتوقّعه.

- أمان؟ إذن لماذا انتحرتْ؟

- ربّما هناك يأس يجعل المرء بحاجة إلى الشعور بالأمان حتّى يتجرّأ على القيام بالوثبة الكبرى؟ ربّما وجدتْه هنا، في بيتك؟ هي بالفعل كانت تريد قتل نفسها. لم تكن لديها رغبة في الحياة. لم تطعن نفسها كما لو أنّها تطلب النجدة. فعلت ذلك لأنّها لم تعد تطيق سماع نفسها تصرخ في داخلها.

سألت آغنيس كم ستمكث عندي. حتّى الغد، أجابت، إذا كان ممكناً. أريتها السرير في حجرة النمل، فقهقهت بالضّحك. ليس لديّها أيّ مانع من النوم هناك. وأخبرتها بأنّي سأحضّر دجاجاً للعشاء. غابت في الحمّام. ثمّ عادت وقد استبدلت ثيابها ورفعت شعرها.

طلبت منّي أن تزور الجزيرة. مضينا، وجرتْ كارّا في أعقابنا. قصصت على آغنيس كيف رَكَضت في أحد الأيام خلف السيّارة لترشدنا إلى جثّة سارا لارسون. لاحظتُ أنّ ثرثرتي تزعجها. كانت تريد التمتّع بالطبيعة. كان يوماً خريفيّاً ميّالاً إلى البرودة، وكان بساط شجيرات الخلنج ينحني أمام الريح. البحر رماديّ داكن، والطحالب المتعفّنة تبثّ رائحتها بين الصخور. بضعة طيور، تطير من الشقوق، وتستريح على تيّارات الهواء الصاعدة التي تتشكّل دوماً عند أطراف الصخور الكبيرة. وصلنا الرأس الشماليّ حيث لم نعد نرى، عدا سعة البحر، إلّا الصخور القاسية التي تدعى صخور الرنكة، والتي تكاد لا تظهر وجوهها عند مستوى البحر. كنت أسترق النظر إلى آغنيس، بدت مبهورة بما ترى. ثمّ التفتت باتّجاهي وصرخت في الهواء:

- ما لن أغفره لك أبداً، أنّي لم أعد قادرة على التصفيق!

بماذا كنت أستطيع أن أجيب؟ بلا شيء، بالطبع، هي تعلم ذلك مثلي. اقتربت وأدارت ظهرها للهواء لتُسمِعَني.

- كنت معتادة في طفولتي على ذلك.

- على ماذا؟

- أن أصفّق لمنظر جميل في الطبيعة. لماذا يحصر التصفيق بقاعات الموسيقى، ولِمَن يلقون خُطَباً؟ لماذا ليس هنا، على هذه الصخور؟ أعتقد أنّي لم أشاهد قطُّ أجمل من هذا، أحسدك على إقامتك هنا.

- إذا أردتِ، أصفّق بدلاً عنك.

أومأت بالإيجاب. سحبتني إلى أعلى صخرة، في أقصى رأس الجزيرة. كنّا معلّقين في الأعلى، هي تصرخ «برافو!» وأنا أصفّق. تجربة استثنائية.

تابعنا تجوالنا إلى المقطورة، خلف مرآب القوارب.

- لا يوجد سيّارة، قالت. لا سيّارة، ولا طريق، ولكن ثمّة مقطورة. وحذاء جميل أحمر...

كان الباب مفتوحاً، وقد ثبّته بقطعة خشب لكي لا يصطفق. كان حذاء لويز يبرق بلمعان قويّ. جلسنا محتمين من الريح. كلّمتها عن ابنتي، وعن موت آرييت، وتجنّبت ذكر خيانتي. لاحظت لبرهة أنّها لم تكن تسمعني. بدت ذاهلة، ومشغولة، فأدركت أنّ وجودها قد يكون لسبب آخر غير أن ترى المطبخ وتستعيد السيف والحقيبة.

- أشعر بالبرد، قالت. ربّما يبرد الأقطع أكثر من غيره. لأنّ الدم يلجأ لمسارات غير اعتياديّة...

عدنا إلى البيت وجلسنا في المطبخ. كان الشفق قد اختفى فأشعلتُ

شمعة ووضعتها على الطاولة.

- سيأخذون البيت منّي، صرّحتْ فجأة. أستأجره منذ وقت طويل، وليس لديّ قدرة على شرائه. والآن، يريد المالكون استرجاعه. ودون بيت، لن أستطيع مواصلة نشاطي. بالطبع، يمكنني إيجاد عمل في مؤسّسة ما. إلّا أنّي لا أريد.

- من هم المالكون؟

- شقيقتان تقيمان في لوزان وقد نجحتا في جنْي ثروة من وراء المكمّلات الغذائيّة الزائفة. تُحاكَمان باستمرارٍ بسبب إعلاناتهما الكاذبة، فموادّهما ليست إلّا مسحوقاً عديمَ النفع ممزوجاً بالفيتامينات، تنزلانه إلى السوق تحت اسم جديد وبغلاف مختلف. كان البيت لشقيقهما، وهما الوريثتان الوحيدتان. ولم تعد تريدان بعد الآن تأجيره لي، لأنّ أهل القرية اشتكوا من فتياتي. سيؤخذ منّي البيت والفتيات. نحن في بلد يريد أهله أن يُحشر من خرج عن السرب في غور غابة أو على جزيرة كهذه. كنت بحاجة إلى الابتعاد قليلاً، لأفكّر أو ربّما لأبكي، أو ربّما لأحلم في النهاية أنّ بوسعي شراء البيت. لكنّ الحال غير ذلك.

- لو أستطيع، لاشتريته.

- لم أحضر لأطلب منك مالاً.

ونهضتْ.

- سأخرج. وأقوم بجولة أخرى حول الجزيرة قبل أن يحلّ الليل.

- خذي الكلبة. ناديها، وستتبعك. هي رفيقة جيّدة للنزهات، لا تنبح أبداً. وسأعدّ العشاء، في هذه الأثناء.

رأيتهما تغيبان فوق الصخور. التفتت كارّا عدّة مرّات لتتأكّد من أنّي لا أناديها. بدأت بالطبخ وأنا أتخيّل نفسي أقبّل آغنيس.

منذ سنوات لم أستغرق في أحلام اليقظة. لا خيالات ولا حياة جنسيّة، وها أنا أعي ذلك بشكل صادم.

بدت آغنيس عند رجوعها أقلّ انهياراً.

- ينبغي أن أعترف، قالت قبل أن تخلع سترتها وتجلس، بأنّي لم أتمكن من مقاومة الرغبة في تجريب حذاء ابنتك. أتى على مقاسي بشكل رائع.

- آسف، حتّى لو كنت أرغب، لا أستطيع أن أقدّمه لك.

- سوف تقتلني فتياتي إذا ما ظهرت أمامهنّ بمثل هذا الكعب. سيعتقدن أنّي تغيّرت ولم أعُد المرأة التي يعرفنها.

جلست على المقعد وتربّعت، وأخذت تتابعني وأنا أضع المائدة. سألتها بضعة أسئلة عمّا تراه للمستقبل. كانت تجيب بنعم أو لا، وأخيراً سكتت. أكلنا بصمت، كانت الظلمة كاملة في الجهة الأخرى من النافذة، ثمّ شربنا قهوة. أوقدت الفرن القديم بالحطب، الذي لم أكن أستخدمه إلّا كمصدر دفء في أيام الشّتاء الباردة حقّاً. ترك النبيذ الذي شربناه مع الطعام أثره عليّ، وكما يبدو على آغنيس أيضاً. ملأتُ فنجانينا ثانية. حينها خرجت عن صمتها؛ وبدأت تتكلّم عن حياتها، وعن السنوات الصعبة التي مرّت بها.

- كنت أبحث عن عزاء، قالت. جرّبت الكحول، ولكن كنت أتقيّأ دوماً. فانتقلت إلى الحشيش، غير أنّ تدخينه كان يُمرضني ويطبعني بالبلاهة ويضاعف من قلقي. بحثت عن عشّاق لديهم القدرة على تحمّل ذراعي الناقصة. وبدأت برياضة ذوي الاحتياجات الخاصة، وأصبحت

عدّاءة مقبولة للمسافات المتوسّطة، لكنّ ذلك أصابني بضجر أخذ يزداد. كتبت الشعر، وراسلت الصحف، ودرست تاريخ البتر. أردت أن أكون مقدّمة برامج تلفزيونيّة: قدّمت طلبات لكلّ القنوات السّويديّة وحتّى لبعض القنوات الأجنبية. لكن لم أجد في أيّ مكانٍ العزاء الذي سيجعلني أستيقظ ذات صباح دون أن أفكّر في الشيء الذي لا يُطاق الذي حدث لي. بالطبع، حاولت التأقلم، وجرّبت استخدام عضو اصطناعيّ، غير أنّه لم يكن ذا نفع. وفي النهاية، بعد ثلاث سنوات من العمليّة، انتصبت عاريةً أمام المرآة كما لو أنّني في قاعة المحكمة، وتقبّلت أنّي قطْعاء. عندئذ، لم يبق أمامي إلّا اللّجوء إلى الله. بحثت عن العزاء في الركوع. قرأت الإنجيل، وقرأت القرآن، وشاركت في الملتقيات تحت خيمة كنيسة العنصرة، حتّى أنّي شاركت في اجتماعات الطائفة البغيضة التي تدعو نفسها Livets[1] Ord. بحثت عن مِلَل أخرى، ونويت أن أصبح راهبة. ذهبت في الخريف إلى إسبانيا، وسرت على قدميّ حتّى كومبوستيل مقتفية آثار الحجيج. وضعت حجراً في حقيبة ظهري، كما يفترض بالمرء أن يفعل، لكي يرميه في النهاية، حين يجد حلّاً لمعضلته. كان حجري صخرة كلسية بوزن أربعة كيلوغرامات. حملتها طوال المسافة ولم أُنزلها إلّا حين وصولي. كنت أرتجي أن يظهر الله لي ويكلّمني. لكنّ صوته كان شديد الخفوت، لم أسمعه أبداً. كان خلفه على الدوام شخص يطغى على صوته بالصراخ.

- من؟

- الشيطان. فقد تعلّمت أن الله يتكلّم همساً. أمّا الشيطان فيصرخ.

---

(1) كلمة الحياة (Livets Ord، بالسويديّة): جماعة دينية مسيحية تأسست في 24 مايو 1983 في مدينة أوبسالا السويدية، تعرّضت لانتقادات واسعة من الصحافة وبعض الكنائس بسبب موقفها المتعالي وغير الإنسانيّ من المعاقين والفقراء.

لم أجد لي مكاناً في الصراع الدائر بينهما. وحين هجرتُ الكنائس أخيراً، لم يكن تبقّى لي شيء ولا أيّ عزاء أرتجيه. عندئذ أدركت أنّ ذلك هو العزاء ذاته. وبذلك قرّرت أن أكرّس حياتي لمن حالتهم أسوأ من حالي. وهكذا تواصلت مع الفتيات اللواتي لا أحد يريدهنّ؛ لا أحد غيري.

أنهينا النبيذ المتبقّي؛ كنّا ثملين فعلاً. وجدت صعوبة في التركيز على ما تقوله فقد كنت أشتهي لمسها، مطارحتَها الغرام. كان النبيذ يفتح أيضاً شهيّتنا للضحك؛ أخبرتني بردود الفعل التي أثارتها جدعتها على مرّ السنوات.

- كنت أقول أحياناً إنّ ذراعي افترستها سمكة قرش في أستراليا. أو نهشها أسد في مفازات بوتسوانا. لم أكن أهتمّ بالتفاصيل، في وقتها كانت النّاس تصدّق كلّ ما أقوله. الأشخاص الذين لم يكونوا يروقونني لسبب أو لآخر، كانوا يستحقّون قصصاً دمويّة بالفعل. مثل القول إنّ شخصاً نشرَ ذراعي بمنشار كهربائيّ، أو إنّني ألفيتُني عالقة تحت آلة قضمتْها ملمتراً إثرَ ملمتر. إحدى المرّات أَصبت بالإغماء رجلاً ضخماً. القصّة الوحيدة التي لم أجرؤ على اختلاقها قطّ هي أنّ أكلة لحوم البشر هم من التهموا ذراعي.

خرجنا لمشاهدة النجوم والإصغاء للبحر. حاولت لمسها دون أن يبدو عليّ ذلك. لم تلاحظ شيئاً.

- ثمّة موسيقى لا نسمعها أبداً، قالت.

- السّكون يغنّي. وبإمكاننا أن نسمعه.

- ليست هذه هي الموسيقى التي أفكّر فيها، وإنّما تلك التي تعجز آذاننا

عن التقاطها. في يوم من الأيّام، في المستقبل البعيد، حين يرهف سمعنا أكثر سنبتكر آلات جديدة، وسيكون بوسعنا سماع تلك الموسيقى وعزفها.

- فكرة جميلة.

- أظنّني أعرف ما الذي تشبهه هذه الموسيقى. أصوات البشر، حين تكون شفّافة بالفعل، حين يغنّي البشر دون خوف.

عدنا إلى الداخل. من فرطما ثملتُ وجدتُ صعوبة في السير دون ترنّح. أردتُ أن أسكب لنا كأسَي كونياك. وضعت آغنيس يدها على كأسها.

- أحتاج إلى النوم، قالت. كانت سهرة مدهشة. أنا الآن أقلّ إحباطاً من لحظة وصولي.

- أريد منك أن تبقي معي، وأن تمضي الليلة في غرفتي.

لم تمانع حين سحبتها إليّ. لم تطلب منّي التوقّف إلّا حين أردت تقبيلها على فمها. طلبت منّي ذلك بحزم، لكن لم يعد الأمر ممكناً. حصلت بعدها معركة مرتبكة، كانت تتخبّط وهي تصرخ، تمكّنت من حصرها عند طرف الطاولة، وارتمينا على الأرض. تمكّنتْ من إفلات يدها، خمشتني في وجهي وهي تسدّد رفسة إلى بطني قطعت أنفاسي. لم أعد أستطيع قول شيء. كنت أبحث عن مخرج غير موجود. في هذه اللحظة نَهضت ورفعت إحدى سكاكين المطبخ.

نهضت بصعوبة وجلست إلى الطاولة.

- لماذا فعلت ذلك؟

- أعتذر. لم أكن أنوي ذلك. هذه الوحدة حوّلتني إلى مجنون.

- لا أصدّقك. لعلك وحيد، لا أعرف. لكن ليس لهذا هاجمتني.

- أتمنّى أن تتمكّني من نسيان ما حدث. سامحيني. لم يكن ينبغي أن أشرب.

وضعت السكين، وانتصبت أمامي. رأيت هولَ غضبها وخيبتها. لم أتمكّن من قول شيء، فبكيت. فوجئت أنا نفسي بكوني شعرتُ حينها أنّ بكائي لم يكن للتهرّب من ذلك الوضع. لا بل كان خجلي صادقاً.

جلست آغنيس في الطرف الآخر من المقعد. مُشيحة وجهها عنّي، تحدّق في الظلمة خلال النافذة. مسحت وجهي وأنفي بمنديل ورقيّ.

- أعرف أنّ فعلتي لا تغتفر. أشعر بالندم، أتمنّى لو لم أقدم عليها إطلاقاً.

- لا أعرف ماذا تفعل ولا ماذا تتخيّل. لو أستطيع لرحلت على الفور، لكن يستحيل هذا في منتصف الليل في هذه الجزيرة.

نَهَضت وذهبت إلى الحجرة حيث قرية النمل. سمعتها تجرّ الكرسي وتحصره تحت مقبض الباب. خرجت من البيت لأحاول مراقبتها من النافذة. إلّا أنّها كانت قد أطفأت الضوء. ربّما شكّت بأنّي أتجسّس عليها. خرجت الكلبة من العتمة، فقذفتها بركلة. لم يكن لي من طاقة على احتمالها في تلك اللحظة.

بقيت طوال الليل صاحياً في غرفتي، وعند السادسة نزلت إلى المطبخ، حاولت استراق السمع وراء باب آغنيس، يستحيل معرفة ما إذا كانت نائمة أم لا. جلست أنتظر. في السابعة إلّا ربعاً، فتحت بابها وهي تحمل حقيبة الظهر بيدها.

- كيف أستطيع أن أغادر هذا المكان؟

- لا ريح. إذا انتظرت حتّى يطلع النهار سأوصلك.

بدأت تنتعل جزمتها. استجمعت قواي:

- أريد أن أكلّمك بشأن ليلة الأمس.

رفعت يدها.

- لا يوجد ما يقال. لستَ من توقّعت، أريد المغادرة بأسرع وقت. سأخرج وأنتظر على الرّصيف.

- ألا تستطيعين سماع ما أودّ قوله على الأقلّ؟

لم تجب. رمت الحقيبة على كتفها، وتناولت السيف وحقيبة سيثا، وخرجت في الظلام.

لم يكن بقي وقت طويل ليطلع النهار. فهمت أنّها لن تسمعني حتّى لو نزلت إلى الرّصيف لأحاول محادثتها. فجلست إلى الطاولة وكتبت رسالة:

بوسعنا أن ندع بناتكِ ينتقلن إلى الجزيرة. دعي الأختين وسكّان القرية مرتاحين في بيوتهم. لديّ رخصة لتشييد منزل على أسُس مستودع الغِلال القديم. وثمّة في مرآب القوارب غرفة نستطيع عزلها وفرشها. وفي البيت ثمّة غرف فارغة أيضاً. وثمّة مقطورة وأستطيع أن أجلب أخرى. يوجد مكان كافٍ.

خرجت من البيت. لمّا رأتني قادماً، نهضت لتصعد إلى الزورق. ناولتها الرسالة دون كلمة. تردّدت في أخذها، ثمّ حشرتها في الحقيبة.

كان البحر مثل مرآة. مزّق صوت المحرّك السّكونَ وأجفل بعض البطّات التي غابت في عرض البحر. كانت آغنيس جالسةً في مقدّم

الزورق؛ مشيحة بوجهها.

رسوتُ عند الجهة المنخفضة من الرّصيف وأطفأت المحرّك.

- يوجد حافلة، قلت لها. مواعيدها معلّقة على الحائط هناك.

قفزت على الرّصيف دون أن تنبس بكلمة.

عدت إلى البيت ونمت. بعد الظهر أخرجت بازل رامبرانت القديم. رميت كلّ القطع على الطاولة وعاودت تركيبه من البداية مدركاً أنّني لن أنهيه يوماً.

في اليوم التالي لذهاب آغنيس بدأت عاصفة من الشمال الشرقيّ. أيقظني اصطفاق النافذة المفتوحة. صار للريح قوّة الإعصار. لبست ونزلت لأتحقّق من حبل الزورق. كان المدّ في أوجه. والموج يرتقي الرّصيف ويرشق جدران المرآب. حين تعصف الريح من الشمال الشرقيّ، يدخل الموج إلى المرآب. ربطت مؤخّر الزورق بحبل إضافيّ، ثمّ لجأت إلى المرآب. كانت الريح تئنّ على الجدران. كان ذلك يخيفني يوم كنت طفلاً. كان مرآب القوارب تحت العاصفة أشبه بوكرِ أصواتٍ لأشخاص يصرخون ويتقاتلون. لكن في تلك اللّحظة كان المرآب ذاته يمنحني الأمان، وكنت بين جدرانه أشعر كأنّي في حصن منيع.

استمرّت العاصفة يومين آخرين. في اليوم الثاني، وصل يانْسون مع البريد، متأخّراً على غير عادته. بعدما نزل أخبرني بأن محرّك قاربه انطفأ بين جزيرتَي روهولمن وهوغا سكارسناست.

- لم يسبّب لي أيّة مشكلة من قبل. ما هذه المصادفة، أن يثير المشاكل في مثل هذا الطقس؟ أُجبرت على رمي المرساة العائمة في الماء،

على مقربة من روهولمن، ومع ذلك كدت أجنح باتّجاه الصخور البحريّة. لو لم أفلح في إعادة تشغيله لغدوت الآن حطاماً.

لم أرَه يوماً مضطرباً إلى هذا الحدّ. عرضت عليه بمبادرة منّي أن يجلس على المقعد لأقيس ضغطه. كان مرتفعاً قليلاً، لكنّه طبيعيّ جدّاً بعد ما حصل.

عاد يانْسون وصعد على متن قاربه، الذي كان يتأرجح على الرّصيف.

- لا أحمل بريداً لك، لكنّ هانس لوندمان طلب منّي أن أعطيك هذه الجريدة.

- لماذا؟

- لم يخبرني. الجريدة مؤرّخة بتاريخ الأمس.

ناولني إحدى جرائد العاصمة.

- ألم يقل شيئاً؟

- قال فقط أن أسلّمها لك. إنّه لا يتكلّم أكثر من اللّازم، أنت تعرفه.

دفعت مقدّم القارب في الوقت الذي كان يقلع فيه يانْسون. كان يواجه الريح. كاد ينقلب، لكنّه نجح في دفع الغاز في اللحظة الأخيرة والخروج من الخليج الصغير.

حين تركت الرصيف، رأيت شيئاً أبيض يطفو على الشاطئ، قبالة المقطورة. اقتربت منه، كان بجعة ميتة. رقبتها الطويلة أشبه بأفعى بين الأعشاب البحرية. عدت إلى المرآب، وضعت الجريدة على الطاولة وارتديت قفّازَي العمل. ثمّ سحبت البجعة خارج الماء. كان قد التفّ حول ريشها خيط من النايلون وجرح جسدها بعمق. ماتت من الجوّع لأنّها لم تعد قادرة بحالتها تلك على البحث عن طعام. وضعتها على

الصخرة، حيث سينهشها عمّا قريبٍ الغربان والنوارس. كارّا، التي كانت تتبعني، شمّت الطير.

- هذه ليست لك، قلت لها. إنّها لحيوانات أخرى.

كان لديّ رغبة في إكمال تركيب البازل، لكن فجأة فقدت الرغبة في ذلك. نزلت إلى المرآب وأحضرت إحدى شِباك سمك موسى وبدأت بإصلاحها في المطبخ. كان أبي قد علّمني بصبرٍ حَبْك الحبال وإصلاح الشِّباك. وقد احتفظت أصابعي بمهارتها. ظللتُ أرتق الشِّباك إلى حلول الليل، وأنا أدير في رأسي حواراً مع آغنيس حول ما حدث. تصالحنا في عالم الخيال.

في المساء، أكلت ما تبقّى من الدجاجة. ثمّ تمدّدت على المقعد أسمع صوت الريح. وكنت سأدير الراديو لأسمع الأخبار حين تذكّرت بغتةً الجريدة التي أحضرها لي يانْسون. أخذت المصباح اليدويّ ونزلت لأحضرها من المرآب.

نادراً ما كان هانس يُقدم على فعلٍ دون غاية محدّدة. جلست إلى الطاولة وبدأت أتصفّح الجريدة بانتباه. إذا كان أرسلها مع يانْسون، فذلك يعني أنّ في هذه الجريدة شيئاً يريد منّي الإطّلاع عليه.

وجدته في الصفحة الرابعة، في زاوية الأخبار الدولية. صورة عن اجتماع قمّة يجمع رؤساء الدّول والحكومات الأوربية وهم مصطفّون للذكرى. وفي المقدّمة امرأة عارية ترفع على رأسها لافتة. الصورة يرافقها تعليق يلخّص بكلمات قليلة هذا الفاصل المحرج. امرأة ترتدي معطفاً أسود تدخل ببطاقة صحفية مزوّرة إلى القاعة التي يعقد فيها المؤتمر الصحفيّ، وبعد أن تتوسّط القاعة تقفز، نازعةً معطفها المطريّ، وترفع

لافتتها، قبل أن يوقفها اثنان من عناصر الأمن. وأنا أتفحّص الصورة عن قرب، شعرت بألم في المعدة. ذهبت لأحضر العدسة المكبّرة التي أحتفظ بها في درج بالمطبخ. عدت وتفحّصت الصورة. كان حدسي يتأكّد مع الوقت الذي يزداد فيه قلقي. لقد كانت هي لويز حقّاً. عرفتها، حتّى لو لم يكن بالإمكان رؤية وجهها بوضوح. ليس ثمّة من شكّ ممكن، إنّها لويز، مع لافتتها المرفوعة على الرأس بحركة تحدٍّ منتصر.

نصّ اللافتة كان يشير إلى المغارات حيث كانت العفونة تهدّد بإتلاف رسوم الأجداد.

لابدّ أن هانس لوندمان نظرة حادّة، إذ عرفَها. أو ربّما هي من أخبرته، في الحفلة الصيفية، بالمغارات التي كان ينبغي إنقاذها من الدمار.

أخذت منشفة المطبخ لأمسح العرق تحت قميصي. كانت يداي ترتعشان.

خرجت في الريح، ناديت الكلبة وذهبت لأجلس في الظلمة على مقعد جدّتي.

كنت أبتسم. وكانت لويز هناك في العتمة، تردّ على ابتسامتي بمثْلها. لديّ ابنة يمكنني حقّاً الاعتزاز بها.

(3)

وصلت أخيراً الرسالة التي انتظرتها، عند منتصف نوفمبر. بات الأرخبيل بأكمله على علم بأنّ ابنة فريدريك فيلين أثارت فضيحة أثناء اجتماع زعماء أوروبّا. شعرت بالامتنان لهانس لوندمان، الذي كان لديه من الفطنة ما يكفي لأكون أوّل من يعلم. لعلّ اعتياده على مراقبة الأشياء الغائمة في الأفق زوّده بالقدرة على التقاط ما يفلت من الآخرين وهم يتصفّحون الجرائد.

على أيّة حال، الناس كلّهم باتوا على اطّلاع. وبالتأكيد ساهم يانْسون في نشر الإشاعة وتضخيم الفضيحة. نقل لي هانس ما تناهى لسمعه من أخبار: يبدو أنّ لويز أقدمت على تعرٍّ مدروسٍ أمام صفّ من زعماء الدول الذين أصابهم ذلك بالذهول. ثمّ، بعد أنْ تعرّت، بدأت تهزّ خصرها بشهوانيّة قبل أن يقبض عليها ضبّاط الأمن في النهاية. حينها تعدّت عليهم وعضّت أحدهم حتّى تدفّق الدم؛ لا بل يبدو أنّ دم ذلك الشخص لطّخ حذاء توني بلير. ويبدو أخيراً أنّها حُكِم عليها بالحبس لسنوات.

في أعقاب الحدث، وصلتني رسالة من مجهول. تحمل الرسالة توقيع «مسيحيّ شريف»، يصرّح فيها أنّي وابنتي فائضان عن الحاجة. شعرت حينها بانزعاج حقيقيّ لفكرة أنّ من الممكن أن يجول في خاطر مجموعة من هؤلاء

المسيحيّين الشرفاء الرسوّ على جزيرتي للاعتداء علينا أنا ولويز.

كتبت لي لويز أنّها في أمستردام. تقيم قرب المحطّة وحيّ العاهرات، في نُزل صغير تستريح فيه، وفي الوقت عينه تزور يوميّاً معرضاً مقارناً لأعمال رامبرانت وكرافاجّو. كتبت أنّ لديها من المال أكثر ممّا يلزمها. قدّم لها مجهولون هدايا، ودفع صحفيّون مبالغ كبيرة ليحصلوا على روايتها الخاصّة للحدث. في المحصلّة، لم تنل عقوبة. وأنهت رسالتها بالقول إنّها تفكّر في العودة مع بداية ديسمبر.

كانت قد تركت عنواناً بريديّاً أيضاً. أجبتها مباشرة، وفي الزيارة التالية ليانْسون سلّمته الرسالة مع الرسالة السابقة التي كتبْتها لها ولم أتمكّن من إرسالها لانعدام العنوان. رأيت طبعاً فضول يانْسون الكبير حين لمح اسم لويز على الظرف، لكنّه لم ينبس بكلمة.

رسالة لويز أعطتني الشجاعة أيضاً لأكتب لآغنيس. لم يكن عندي أيّ خبر عنها منذ مغادرتها على عجل. شعرت بالخجل، لأوّل مرّة في حياتي لم أجد أيّ مبرّر لفعلتي. لم أستطع التملّص ممّا حصل في تلك السهرة.

لذا كتبت لها. لأطلب منها المعذرة. لا شيء آخر. رسالة من تسع عشرة كلمة، منتقاة بعناية فائقة. بين الكلمات التسع عشرة، لم تكن أيّة كلمة زائفة أو فيها شيء من المراوغة.

اتّصلت بي بعد يومين. كنت غافياً أمام التلفاز، واعتقدت وأنا التقط السمّاعة أنّها لويز.

- لقد استلمت رسالتك، قالت. أوّل ما خطر لي رميها دون أن أقرأها. لكنّي قرأتها. أتقبّل اعتذارك، إن كان ما كتبتَه صادقاً.

- كلّ كلمة.

- أعتقد أنّك أسأتَ فهمي. أقصد ما كتبته في ما يخصّ الجزيرة وفتياتي.

- طبعاً. أنتنّ على الرحب والسعة.

- لا أجرؤ على تصديق ذلك.

- إنّها الحقيقة.

كنت أسمع أنفاسها في الطرف الآخر من الخطّ.

- إذن تعالينَ، قلت.

- ليس الآن. ليس بعد. عليّ أن أفكّر.

وأغلقت السمّاعة. شعرت بذات الفرح الذي شعرت به وأنا أقرأ رسالة لويز. خرجت أتطلّع إلى النجوم وفكّرت أنّه عمّا قريب سيكون قد مضى عام منذ ظهرت آرييت على الجليد وبدأت حياتي تتغيّر.

في أواخر نوفمبر، هبّت ثانية عاصفة هوجاء على الأرخبيل. كانت هذه المرّة قادمة من الشرق، بلغت ذروتها في مساء يومها الثاني. حين نزلت إلى الرصيف لأتحقّق من حالة زورقي، رأيت مقطورة لويز تتأرجح بشكل خطير، فدعّمت ركائزها بمساعدة شبك قديم من الرصاص وبأخشابٍ من تلك التي يأتي بها التيّار. وتحسّباً لعودتها أخرجت مدفأة كهربائيّة وسلكاً. بذلك سيكون لديها ما تتدفّأ به.

حين هدأ الطقس، قمت بجولة في الجزيرة. العواصف التي تأتي من الشرق ترمي الكثير من الأخشاب إلى الشواطئ. لم أعثر على شرائح من الخشب ولكن رأيت بين الصخور مقصورة قيادة لسفينة صيد. اعتقدت أنّها سفينة غارقة ولا يظهر منها غير قمّتها، ولكن وأنا أقترب لاحظت أنّ مقصورة القيادة فقط كانت قد رُميَت هناك. بعد قليل من التفكير، عدت

إلى البيت واتّصلت بهانس لوندمان، فقد تكون مع ذلك آتية من غرق سفينة. بعد ساعة، رسا هانس لوندمان على الرصيف. نجحنا في سحبها إلى الشاطئ وتثبيتها بالحبال. لاحظ أنّها قديمة؛ ولم تصل خفر السواحل أيّة إشارة تفيد باختفاء قارب صيد.

- يبدو أنّها كانت في جزيرة ما، والريح قذفتها إلى الماء. إنّها تالفة بالكامل؛ لا أظنّ أنّها سقطت عن قارب. عمرها يتراوح بين الثلاثين والأربعين عاماً.

- ماذا سأفعل بها؟

- لو كان لديك أولاد، لصنعت لهم منها كوخاً رائعاً للّعب. لكن يمكنك الاستفادة منها في حطب التدفئة.

أخبرته بأنّ لويز ستعود.

- لم أفهم كيف عرفتَها في الجريدة. الصورة رديئة، وكانت مُدبِرة الرأس. ومع ذلك عرفتها.

- من يعلم كيف نرى ما نشاهده؟ بأيّة حال، أندريا مشتاقة لها. يقول أهلها إنّه لا يمرّ يوم دون أن تلبس حذاءها وتسأل عن لويز. غالباً ما أفكّر فيها.

- هل أريت أندريا صورة الجريدة؟

- نعَم، بالطبع.

بدا أنّه لم يفهم مقصدي من السؤال.

- ليست صورة للأطفال، لقد كانت عارية بالكامل.

- وماذا يعني؟ لن يكون الأطفال على ما يرام إذا لم نخبرهم بالحقيقة، الأكاذيب تعذّبهم كما تعذّبنا نحن الكبار.

عاد إلى قاربه وشرع بالرجوع. أحضرت فأساً من المرآب، ورجعت إلى حطام القارب وقطّعته. كان العمل سهلاً، نظراً لتلف الخشب.

ولم أكد أنهي العمل وأرفع رأسي حتّى شعرت بألم صاعق في الصدر. مباشرة عرفت ما هو بعد أن شخصّته لسنوات طويلة عند الآخرين: ذبحة صدريّة. جلست على حجر، أتنفّس بعمق، فتحت قميصي وانتظرت. اختفى الألم بعد عشر دقائق. انتظرت عشر دقائق أخرى قبل أن أصعد، ببطء شديد، إلى البيت. كانت الحادية عشرة صباحاً. اتّصلت بيانْسون. كنت محظوظاً أنّه لم يكن يوم بريد. لم أشرح له شيئاً؛ طلبت منه فقط أن يأتي ليقلّني.

- اتّخذت قرارك بسرعة، هذه المرّة.

- ماذا تقصد؟

- في العادة لا تحسم أمرك قبل أسبوع.

- هل ستأتي أم لا؟

- سأكون عندك بعد نصف ساعة.

بعد أن وصلنا المرفأ، أخبرته بأنّي سأعود بنفس اليوم على الأرجح، لكن لا أعرف في أيّة ساعة بالضبط. كاد ينفجر من الفضول، لكن لم أخبره بأيّ شيء إضافيّ.

في المركز الطبّيّ شرحت لهم ما حدث معي. وبعد الانتظار، أجريت فحوصاً عاديّة، إضافةً إلى تخطيط القلب، وتكلّمت مع الطبيب، وهو على الأرجح أحد الموظّفين المؤقّتين الذين لا يُحصون ممّن يتنقّلون برحلات مكوكيّة بين عدّة مراكز، بما أنّه ليس بوسع هذه المراكز جلب طبيب دائم. وصف لي الأدوية المعتادة وأرسلني إلى المستشفى لإجراء فحوص معمّقة.

اتّصلت بيانْسون من مكتب الاستقبال. ثمّ اشتريت زجاجتَي كونياك وسلكت بعدها طريق المرفأ.

فقط فيما بعد، بعد رجوعي إلى الجزيرة، شعرت بالخوف. لقد قبض عليّ الموت، لا لشيء إلّا ليختبر مقاومتي. شربت كأس كونياك. ثمّ خرجت إلى الصخور وصرخت بوجه البحر. صرخت خوفي، المقنّع بالغضب.

كانت الكلبة تراقبني من بعيد.

ما عدت أطيق أن أظلّ وحيداً. لا أريد أن أصبح إحدى هذه الصخور التي تنظر بصمت إلى المرور المحايد للأيّام، وللوقت.

في الثالث من ديسمبر، ذهبت إلى المستشفى لإجراء الفحص المطلوب. أخبروني بأنّ حالة قلبي لم تكن مقلقة. وستؤمّن لي الأدوية والتمارين والغذاء المتوازن العيش لسنوات طويلة. كان الطبيب رجلاً في سنّي. أخبرته بأنّي كنت طبيباً مثله، لكنّي اخترت منذ بضع سنوات الاعتناء بملكيّتي في الأرخبيل. استمع لي بلامبالاة مهذّبة وقال، بمثابة وداع، إنّ ذبحتي الصدريّة غير خطرة.

عادت لويز في السابع من ديسمبر. كانت الحرارة قد انخفضت، وترك الخريف مكانه أخيراً للشتاء. كان ماء المطر يتجمّد عند الليل في فجوات الصخور. كانت لويز قد اتّصلت بيانْسون من كوبنهاغن وطلبت منه أن يمرّ ليأخذها من المرفأ. قطعتِ المكالمة قبل أن أسألها أيّ شيء إضافيّ. شغّلت المدفأة الكهربائيّة في مقطورتها، ولمّعت حذاءها، وكنست الأرضيّة وفرشت سريرها بملاءات نظيفة.

لم تعاودني آلام القلب. كتبت لآغنيس لأعرف إذا كانت أخيراً قد

حسمت أمرها. وصلني الجواب في بطاقة بريديّة تمثّل لوحة لفان غوغ ونصّ لا يحتوي أكثر من كلمتين: «ليس بعد».

تساءلت ما الذي يمكن أن يخطر ليانْسون وهو يقرأ ذلك.

نزلت لويز على الرصيف دون أمتعة باستثناء حقيبة الظهر التي كانت معها عند مغادرتها. توقّعت أن تعود مع صناديق محمّلة بكلّ ما جمعته خلال رحلتها. كانت حقيبة ظهرها تكاد تبدو فارغة أكثر ممّا كانت عليه حين مغادرتها.

بدا أنْ لا رغبة ليانْسون في المغادرة. ناولته ظرفاً يحتوي المبلغ الذي يطلبه عادةً للتوصيل وشكرتُه. رحّبت لويز بالكلبة؛ انسجمتا مباشرةً. فتَحتُ باب المقطورة التي صارت دافئة. فوضعتْ حقيبة ظهرها وتبعتني إلى البيت. قبل أن تدخل، وقفتْ أمام أكَمَة القبر الصغيرة، تحت شجرة التفّاح.

كنتُ حضّرتُ سمك القُدّ على العشاء. أكلتْ بنهم. بدت لي أشحب وربّما أنحل أيضاً ممّا في ذاكرتي. أخبرتني بأنّ خطّة دخولها إلى مقرّ أحد الاجتماعات الدوريّة للقمّة خطرت لها قبل رحيلها بقليل.

- خطّطت لكلّ شيء على المقعد بجانب المرآب، أخبرتْني. شعرت أنّ رسائلي لم تعد لها أيّة أهميّة؛ أو لعلّها لم تكن يوماً مهمّة لسواي. فقرّرت التصرّف بطريقة مختلفة.

- لماذا لم تخبريني بأيّ شيء عن الموضوع؟

- لا أعرفك بما يكفي. ربّما كنت ستمنعني من التصرّف.

- ولماذا؟

- كانت آرييت تحاول دوماً إخضاعي لرغبتها. لماذا ستكون أنت

مختلفاً؟

حاولت أن أسألها عن رحلتها، لكنّها أومأت بالنفي. كانت متعبة، وتحتاج إلى الرّاحة.

نحو الثانية عشرة ليلاً، أوصلتها إلى مقطورتها. كان المِحرار الخارجيّ يشير إلى درجة واحدة فوق الصفر. البرد في الخارج كان يجعلها ترتجف، أخذتني من يدي. كانت تلك هي المرّة الأولى التي تقوم فيها بذلك.

- مشتاقة للغابة، قالت، ولأصدقائي أيضاً. لكنّ مقطورتي الآن هنا. لطيف أنّك دفّأتها. سأنام وأحلم باللوحات التي رأيتها في الأشهر الأخيرة.

- لّمعت حذاءك الأحمر.

قبّلتني على خدّي قبل أن تتوارى.

لم أرَ لويز كثيراً في الأيّام التي تلت عودتها. كانت تأتي لتأكل حين أناديها، وتجيب على أسئلتي بكلمات قصيرة، وتُستَفزُّ حين تصبح هذه الأسئلة ملحّة برأيها. نزلت ذات مساء وألقيت نظرة داخل المقطورة. كانت تجلس إلى طاولتها وتكتب في دفتر. التفتَتْ بغتةً صوب النافذة، فانحنيت بسرعة حابساً أنفاسي. لم تفتح الباب. أمَلتُ ألّا تكون رأتني.

بانتظار أن تستعيد لويز قدرتها على التواصل، كنت أتمشّى يوميّاً مع كلبتي، لأحافظ على لياقتي. صار لون الماء رماديّاً حالكاً، وبات تواجد الطيور البحريّة مع مرور الوقت أكثر ندرة. كان الأرخبيل يندسّ في قوقعته الشتويّة.

في إحدى الأمسيات كتبتُ ما سيكون وصيّتي الجديدة. كلّ ما أملكه سيعود تلقائيّاً إلى لويز. شغلتني فكرة الوعد الذي قطعته لآغنيس. ولكن

كالعادة أرجأت التفكير فيها، ظنّاً منّي أنّ الحلّ سيأتي في حينه.

في صباح اليوم الثامن، لمّا نزلتُ إلى المطبخ في الساعة السابعة، كانت لويز تنتظرني على الطاولة.

- حسناً، أعلنتْ، لم أعد متعبة وبإمكاني مخالطة النّاس ثانيةً.

- آغنيس، قلت. أرغب في دعوتها للمجيء إلى هنا. ربّما تتمكّنين من إقناعها بالإقامة معنا على الجزيرة هي وفتياتها.

حدّقت بي كأنّها لم تسمع شيئاً. لم أرَ تهديداً بالخطر، فأخبرتها بزيارة آغنيس. طبعاً، دون التطرّق أبداً إلى ما حدث بيننا.

- فكّرت في السماح لآغنيس وفتياتها بالإقامة هنا، عندما يصبحن بلا بيت.

- أنت الآن تهب الجزيرة؟

- لا أحد في هذا المكان سوى الكلبة وأنا. لماذا لا يستفيد أحد منها؟

من غضبها، رمت فنجان قهوتها وصحنه على الجدار.

- تريد منح إرثي لآخر؟ حتّى هذا تعجز عن إعطائه لي؟ أنا التي لم أنل منك شيئاً على الإطلاق؟

أجبت متلعثماً:

- أنا لن أعطيها شيئاً أبداً، سأسمح لها بالقدوم فقط.

حدجتني مطوّلاً بنظرة ازدراء. أحسست أنّي أمام أفعى. ثمّ نهضتْ، وانقلب كرسيّها لشدّة حنقها. أخذت سترتها وخرجت تاركةً الباب مفتوحاً، انتظرت طويلاً أن تعود.

ثمّ أغلقتُ الباب. أدركت أخيراً ماذا عنى لها اليوم الذي وجدتْني فيه أمام باب مقطورتها في الغابة. لقد منحتُها انتماءً، لدرجة تخلّيها عن الغابة،

إكراماً لي، لكي تأتي إلى جزيرتي. وها هي تظنّ أنّي أريد تجريدها من كلّ شيء.

كنت متكتّماً في ما يخصّ أفكاري حول ما ستؤول إليه جزيرتي حين أموت. ما عدا لويز، لا يمكن لأحد أن يطالب بالإرث. كنت أنوي تركها لمؤسّسة حماية الأرخبيل. لكن ذلك لن يؤدّي إلّا إلى شيء واحد، هو قدوم ساسة المستقبل الجشعين ليتمتعوا بالبحر، وهم جالسون على رصيفي. كلّ شيء تغيّر. فلو متّ في تلك الليلة، فسترث لويز كلّ شيء. ما ستفعله بالجزيرة سيكون رهن إرادتها وحدها ومسؤوليّتها فقط.

لم تظهر طوال اليوم. عند المساء، نزلتُ إلى المقطورة. رأيتها من النافذة مستلقية على سريرها، وعيناها مفتوحتان. تردّدت قبل أن أطرق الباب.

- أغربْ عن وجهي!

كان صوتها حادّاً، ومشدوداً.

- ينبغي أن نتكلّم.

- إنّي راحلة.

- لن يأتي أحد أبداً ويأخذ منك الجزيرة. لا تقلقي.

- أغربْ عن وجهي!

- افتحي الباب!

أمسكتُ بمقبض الباب، لم يكن مقفلاً بالمفتاح. ولكن ما إن فتحته حتّى دفعته لويز من الداخل بكلّ قوّتها، فصدم الباب فمي بعنف. شقّ شفتيّ وسقطتُ إلى الخلف، واصطدم رأسي بحجر. وما إن وقفت حتّى ارتمت فوقي، منهالةً عليّ بالصفعات بقطعة من بقايا عوّامة فلين قديمة كانت مرميّة هناك.

- توقّفي. إنّي أنزف.

- لا تنزف بما يكفي!

تمكّنت من نزع طوق الفلين من يدها، فهجمت عليّ بالكلمات. استطعت الفرار منها في النهاية والوقوف.

وقفت هي أيضاً. كنّا نلهث وجهاً لوجه.

- تعالي معي إلى البيت، قلت لها. علينا أن نتكلّم.

- وجهك مشوّه. لم أقصد أن أؤذيك إلى هذا الحدّ.

أجفلتني رؤية وجهي في المرآة لدى عودتي، كان غارقاً بالدّم، لا الشفتان فقط، بل كان قوس الحاجب الأيمن أيضاً مجروحاً. خطر لي أنّها قد أبرحتني ضرباً، لم تتعلّم الملاكمة سدىً، حتّى إذا كان باب المقطورة أكثر فعاليّة في الضربة التي تلقّيتها.

غسلت وجهي بالماء ونشّفته، ثمّ غلّفت قطع ثلج بقماشة ووضعتها على فمي وعيني. انتظرت وقتاً طويلاً قبل سماع خطوات لويز في الخارج. خافت حين رأتني.

- ستكون على ما يرام؟

- أظنّ أنّي سأعيش. ولكن أستطيع من الآن إخبارك بآخر فضيحة في الأرخبيل. ابنة فيلين لم تكتفِ بخلع ثيابها أمام زعماء العالم: فها هي ما إن عادت حتّى اعتدت على أبيها المسنّ وأبرحته ضرباً كالبلْهاء. ينبغي أن تعرفي، أنت التي تجيدين الملاكمة، ماذا يحدث عندما نلكم وجهاً.

- لم أكن أقصد.

- بلى بالتأكيد. أعتقد أنّك كنت تريدين قتلي كي لا يتسنّى لي الوقت

لكتابة وصيّتي التي ستحرمك من الميراث.

- كنت غاضبةً.

- لا داعي للتبرير، ولكنّك مخطئة. ما أنويه فقط هو مساعدة آغنيس وفتياتها لبعض من الوقت، لا نستطيع تقديره الآن، لا أنا ولا هي. هذا كلّ شيء، لا وعد ولا عطاء.

- اعتقدت أنّك ستتخلّى عنّي ثانيةً.

- لم أتخلَّ عنك يوماً، لقد تخلّيت عن آرييت. لم أكن أعلم بوجودك، ولو علمت لكان كلّ شيء تغيّر.

عصرتُ قطعة القماش وملأتُها بثلج جديد. ورم جفني وكنت لا أكاد أتمكّن من فتح عيني.

بدأ الهدوء يعود ببطء. كنّا جالسين إلى طاولة المطبخ، وكان وجهي يؤلمني بأكمله. وضعت يدي على ذراع لويز.

- لن أسلبك شيئاً، هذه الجزيرة ملكك. وإذا كنت لا تريدين مجيء آغنيس وفتياتها لبعض الوقت، إلى أن تجد بيتاً آخر، فسأخبرها بأنّ ذلك غير ممكن.

- أعتذر عن تشوّه وجهك، ولكنّي منذ قليل كنت أشبهك في داخلي.

- لننم، اقترحت. لننمْ وغداً في الصباح سأستيقظ وعليَّ كدمات زرقاء مدهشة.

صعدت إلى غرفتي. سمعت لويز تغلق الباب وهي خارجة.

كنّا سنتعرّض لعاصفة، لكنّها لمستنا، دون أن تبتلعنا.

ثمّة ما يتحرّك، فكّرت في ما يشبه الفرح. ما من شيء خارق، ولكن لا بأس، نحن في الطريق إلى شيء جديد ومجهول.

مرّت صباحات ديسمبر ثقيلة، معتمة وباردة. في الثاني عشر منه كتبت في مفكّرتي أنّ الثلج انهمر قليلاً بعد الظهيرة في ندَف متفرّقة لم تستمرّ طويلاً. الغيم ساكن يسدّ السماء.

كان وجهي المتورّم يؤلمني وهو يتماثل للشفاء ببطء. في اليوم التالي لعراكنا، لمّا نزلت لملاقاة يانْسون على الرصيف، جحظت عيناه وهو يراني. نزلت لويز لتحيّته مبتسمةً، حاولتُ الابتسام أنا أيضاً ولم أُفلح. لم يتمالك يانْسون نفسه من أن يسأل عمّا حدث.

- هذا من جرّاء سقوط نيزك، قلت.

بقيت لويز تبتسم. ويانْسون لم يصرّ.

كتبت رسالة لآغنيس، دعوتها فيها إلى أن تأتي لتتعرّف على ابنتي. أجابتني بعد أيّام قليلة بأنّ الوقت لم يزل مبكّراً. هكذا كتبت، ولم تتّخذ قرارها بعد، لا سلباً ولا إيجاباً، بشأن مقترحي، وهي تعلم أنّه ينبغي أن تقرّر بسرعة، لكنّ ذلك لم يحصل. وكأنّي قرأت بين السطور أنّها لا تزال تشعر بجرح وخيبة. ربّما أنا أيضاً كنت مرتاحاً أنّها لن تأتي، فلم أكن متأكّداً تماماً من أنّ لويز لن تخرج عن طورها مرّة أخرى.

كنت أجول الجزيرة يوميّاً مع كلبتي. وكنت أصغي إلى قلبي. اعتدتُ على قياس نبضي وضغطي كلّ يوم في وضع الراحة، وكلّ يومين في وضعَي الراحة والحركة. كان قلبي يواصل ضرباته المنتظمة تحت أضلعي؛ يا له من مشّاء مدهش، أوفى رفيقِ دربٍ، هو الذي لم أعره انتباهاً كبيراً خلال حياتي. كنت أجوب الجزيرة، مع اندفاعات بهلوانيّة على الصخور الزّلقة، متوقّفاً بين حين وآخر لأتأمّل الأفق. إذا تركت الجزيرة، فسيكون الأفق

والصخور أكثر ما سأفتقده. لم تكن تفوح روائح لطيفة دوماً من هذا البحر الداخليّ الذي يتحوّل ببطء إلى مستنقع. كان بحراً سيّئ التربية، رائحته زنخة. بخلاف الأفق النظيف والصخور.

أثناء تلك النزهات اليومية بالجزمة المقصوصة، كنت أشعر أنّي أحمل قلبي بيدي. فرغم أنّ نتائج الفحوص كانت مرْضية، إلا أنّ نوبات هلع كانت تداهمني. إنّي أموت، بعد بضع لحظات سيتوقّف قلبي عن الخفقان. كلّ شيء انتهى، ضربَ الموت ضربته، مع أنّي لم أكن جاهزاً.

فكّرت في إطلاع لويز على مخاوفي. لكنّي لم أفعل.

كان الانقلاب الشتويّ يقترب. في أحد الأيّام، وفيما كانت لويز جالسة على كرسيّ وسط المطبخ، طلبتْ منّي أن أمسك لها المرآة. وبمقصّ المطبخ، قصّت شعرها الطويل. وصبغتِ المتبقّي منه بالأحمر. ضحكتْ من الفرح وهي تتأمّل النتيجة بعد ساعتين. أصبح وجهها أكثر وضوحاً، كما لو أنّها نظفت أجَمة زهور بنزع الأعشاب عنها.

في اليوم الثاني أتى دوري. حاولتُ المقاومة لكنّها عنيدة. جلست على الكرسي وبدأت العمل. بخلاف المقصّ الثقيل، كانت أصابعها خفيفة حول رأسي. قالت إنّ شعري يندر في قمّة رأسي وإنّ الشاربين سيناسبانني.

- أحبّ وجودكِ هنا، قلت لها. كلّ شيء باتَ أوضح على نحوٍ ما.

لم أكن في السابق متأكّداً ممّا أراه حين أنظر إلى نفسي في المرآة. الآن أعرف أنّ هذا هو أنا، وليس وجهاً لُمِحَ مصادفةً أثناء المرور.

لم تجب، ولكن شعرت بقطرة سقطت على خدّي. كانت تبكي. بكيت أنا أيضاً. لم تتوقّف عن قصّ شعري، كنّا نبكي معاً دون صوت، هي وراء

الكرسيّ مع المقصّ، وأنا مع منشفة حول رقبتي. لم نقل شيئاً بعدها، ربّما بسبب الحرج، أو ربّما لم يكن من حاجة لذلك.

إنّني أتقاسم هذه الخصلة مع ابنتي. لا نتكلّم لمجرّد الكلام. على الأرجح نحن من النوع الصّموت.

من النادر أن يكون النّاس هنا على هذه الجزيرة صاخبين أو متدفّقي العواطف. الأفق هنا أرحَب من أن يسمح بذلك.

في يوم آخر ربطتْ لويز شريطاً حريريّاً أحمر حول رقبة كارّا. لم يبدُ على الكلبة تقبّله، إلّا أنّها لم تحاول التخلّص منه.

في المساء الذي سبق ليلة الانقلاب، بقيت للحظات على طاولة المطبخ أتصفّح دفتر يوميّاتي. ثمّ أخذت قلمي وكتبت:

بحر هادئ، لا ريح، درجة واحدة تحت الصفر. كارّا تضع شريطاً أحمر. أنا ولويز على مقربة شديدة أحدنا من الآخر.

فكّرت في آرييت. وشعرت أنّها كانت لصقي مباشرةً، وراء ظهري، تقرأ ما كتبت.

(4)

قرّرنا أنا ولويز ذات يومٍ الاحتفال بكون النهّارات، اعتباراً من تلك الليلة، ستطول من جديد. ستتكفّل هي بالعشاء. تناولتُ أدويتي بعد الظهر وتمدّدتُ على المقعد لأرتاح.

مضت ستّة أشهر على حفلتنا الصيفيّة. لن تكون آربيت معنا هذا المساء للاحتفال بالانقلاب الشتويّ. بغتةً اشتقت لها على نحو لم أعرفه من قبل. فعلى كونها ماتت، كنت أشعر بأنّها أقرب من أيّ وقت مضى. لماذا سأكفّ، بحجّة غيابها، عن الاشتياق لها؟

بقيت ممدّداً. مرّت فترة طويلة قبل أن أجبر نفسي على النهوض لأحلق ذقني وأغيّر ملابسي. انتقيت البدلة التي نادراً ما كنت ألبسها. عقدت ربطة العنق بحركات متردّدة بباعث من نسياني تلك العادة. أجفلني الوجه الذي رأيته في المرآة، لقد شختُ. لويت فمي ساخراً من صورتي ونزلت إلى المطبخ. كان الشفق يهبط على الليلة التي ستكون أطول ليلة في السنة. كان المِحرار يشير إلى درجتين تحت الصفر. أخذت غطاء وخرجت. جلست على المقعد تحت شجرة التفّاح. كان الهواء بارداً ومالحاً أكثر من المعتاد. تناهى لي من بعيدٍ صراخ الطيور الذي ما فتئ يتباعد، ويتضاءل أكثر فأكثر.

على الأرجح غفوت على المقعد. كان الليل قد حلّ عند استيقاظي، وشعرت بالبرد. كانت الساعة هي السادسة مساءً: نمت إذن نحو ساعتين! حين دخلتُ كانت لويز بجانب الفرن. ابتسمت لي.

- كنتَ نائماً مثل عجوز صغيرة، لم أرد إيقاظك.

- إنّي عجوز صغيرة. جدّتي كانت تقضي وقتها على المقعد مع أنّها كانت تشعر بالبرد دوماً، ما عدا الوقت الذي كانت تحلم فيه بشجرة البتولا، وبالهواء الخفيف الذي يحرّك أوراقها. ربّما الآن أتحوّل وأصير جدّتي.

كان المطبخ دافئاً، النار متّقدة في موقد الحطب والفرن مشتعلاً أيضاً، والزجاج مغشّى بالبخار.

كانت روائح غريبة تنتشر في الهواء. رفعت لويز غطاء القدر الذي يتصاعد منه البخار وذوّقتني محتواه.

كان له طعم خشب عتيق مجفّف بالشّمس، حامض قليلاً، وحلو، مُرّ بخفة، جذّاب، وغريب.

- أمزج عوالم مختلفة في قدوري، قالت لويز. أمكنة من هذا الكوكب لم تطأها قدمايَ يوماً. ثمّ إنّ الروائح توقظ أقدم ذكرياتنا. الحطب الذي كان أجدادنا يشعلونه، حين كانوا يلوذون بالمغارات وينقشون ويرسمون حيواناتهم الدمويّة على الجدران، لديه ذات الرائحة التي هي له اليوم. لا نعرف في ماذا كانوا يفكّرون، لكنّا نعرف أيّة رائحة كانت لحطبهم.

- دائماً ثمّة شيء ما يبقى وسط التحوّل. دائماً ثمّة عجوز صغيرة تشعر بالبرد على المقعد تحت شجرة التفّاح.

كانت لويز تدندن وهي تكمل تحضيراتها.

- حين تسافرين حول العالم تسافرين بمفردك، لاحظتُ. رغم أنّك في الغابة هناك، محاطة بالرجال.

- يوجد الكثير من الرجال الجديرين، ولكن من الصعب التقاء رجل حقيقيّ.

لمّا شعرتْ برغبتي في المواصلة بهذا الموضوع، رفعت يدها.

- لا! ليس الآن، ولا لاحقاً، أبداً. إذا كان عندي ما يقال، فسأقوله. بالطبع يوجد رجال في حياتي. لكنّهم لي وليسوا لك. لا أظنّ أنّه يلزم تقاسم كلّ شيء. إذا فتّش المرء كثيراً وأوغل في قلوب الآخرين، فإنّه يغامر بتدمير الصداقة.

ناولتها قفّازات الفرن التي كانت طوال الوقت في هذا المطبخ، أتذكّرها منذ طفولتي. رفَعت غطاء قِدر أخرى، ففاحت رائحة ليمون وفلفل قويّة.

- يجب أن يحرق الحنجرة، قالت. إذا لم يتعرّق المرء وهو يأكل، فذلك يعني أنّ الطعام لم يُطبَخ كما يجب. طعام بلا أسرار يملأ المعدة بخيبات الأمل.

راقبتها وهي تحرّك الملعقة في قدرها.

- النساء يحرّكن، قالت. الرجال يضربون ويخبطون ويقطّعون وينشرون. بينما النساء يحرّكن ويحرّكن ويحرّكن.

خرجت لأتمشّى قبل العشاء. كنت على مقربة من الرصيف لمّا صعقني ألم الصدر ثانية. من شدّته كدت أقع.

ناديت لويز، فأتت راكضةً. شعرتُ بأنّني سيغمى عليّ. جثت أمامي.

- ماذا يحدث؟

- القلب. ذبحة صدريّة.

- ستموت؟

جأرتُ بألم:

- لست أموت! ثمّة عبوة حبوب زرقاء قرب سريري.

ذهبت راكضة، وجلبت العبوة والكأس. أعطتني قرصاً ابتلعته مع الماء. كنت أمسك بيدها. رويداً رويداً تلاشى الألم. كنت أتصبّب عرقاً وأرتجف من أعلى رأسي حتّى أخمص قدميّ.

- مرّتْ؟

- مرّتْ. ليس الوضع ليس خطيراً لكنّه مؤلم.

- ربّما كان من الأجدى أن تتمدّد.

- لن أفعل هذا، إطلاقاً.

صعدنا إلى البيت ثانية بخطوات بطيئة.

- أحضري وسائد المقعد، طلبت من لويز. سنبقى في الخارج بعض الوقت.

جاءت بالوسائد. جلسنا متحاضنَين، رأسها على كتفي.

- لا أريد أن تموت، قالت. لن أحتمل رؤية أبويّ يختفيان واحداً إثر آخر بهذه السرعة.

- سأحاول البقاء حيّاً.

- فكّر في آغنيس وفتياتها.

- لا أعرف إن كان ذلك سيحصل.

- بلى. سيأتين.

شددتُ على يدها بقوّة. كان قلبي قد هدأ، إلّا أنّ الألم كان لا يزال

يحوم في الداخل. وصلني الإنذار الثاني. بإمكاني العيش لسنوات بعد، لكن سيكون لي نهاية أيضاً.

اختصرنا وليمة احتفالنا. تناولنا العشاء، دون أن نجلس إلى الطاولة أكثر ممّا ينبغي. صعدت إلى غرفتي وأخذت معي الهاتف. ثمّة منْشب له في الأعلى، لم أستعمله من قبل. كان جدّي قد وضعه في سنواته الأخيرة، حين لم يعد هو وجدّتي في أحسن أحوالهما، وذلك ليتمكّن كلّ منهما من الاتّصال حين يعجز عن نزول الدرج. تردّدت كثيراً. وحين قرّرت في النهاية، كانت الساعة الواحدة فجراً، لكن لم أكن أبالي. طلبت الرقم. رفعتْ آغنيس السمّاعة على الفور تقريباً.

- آسف لإيقاظك.

- لم أكن نائمة.

- أريد أن أعرف فقط إذا كنت قد اتّخذت قرارك.

- تحادثنا أنا والفتيات بهذا الخصوص. وما إن سمعن كلمة «جزيرة» حتّى أخذن يصرخن. لا يعرفن ما معنى أن يعيش المرء بلا طرق، بلا أسفلت، وبلا سيّارات. هذا يخيفهنّ.

- سيضطررن للاختيار بينك وبين الأسفلت.

- أظنّ أنهنّ اخترنني.

- هذا يعني أنّكنّ ستأتين؟

- لا أجيب على الأسئلة في منتصف الليل.

- أيحقّ لي تصديق ما استنتجتِه؟

- أجل. والآن لنغلق الخطّ. الوقت متأخّر.

سمعت نقرة الإغلاق. عدت إلى سريري. لم تقلها مباشرة، ولكن

بالرغم من كلّ شيء بدأت أقتنع بأنّها ستأتي.

بقيت مستيقظاً لوقت طويل. منذ عام، كنت متمدّداً على ذات السرير أفكّر أنْ لا شيء سيحدث لي. وها قد صار لديّ ابنة وذبحة صدريّة. لقد أدارت الحياة مقودها وسلكت اتّجاهاً جديداً.

عندما نهضتُ كانت الساعة السابعة، وقد وجدت لويز مستيقظة.

- ينبغي عليّ العودة إلى الغابة لبعض الوقت، أعلنت. هل أستطيع تركك؟ هذا هو السؤال. هل تعدني بألّا تموت؟

- إذا كنت لن تغيبي طويلاً، فسأبذل جهدي للبقاء حيّاً. متى ستعودين؟

- في الربيع، ولكن لن أبقى في الغابة طوال الوقت، ينبغي أن أسافر أيضاً.

- إلى أين؟

- عندما أطلقت الشرطة سراحي، صادفتُ رجلاً. أراد أن يكلّمني عن المغارات والرسوم الكهفية، وفي النهاية تكلّمنا عن شيء آخر أيضاً.

كنت أتحرّق لسؤالها عن هذا الرجل. لكنّها وضعت إصبعاً على شفتيها.

- ليس الآن.

أتى يانْسون في اليوم التالي ليقلّها.

- إنّني أشرب كميّات كبيرة من الماء! صرخ يانْسون قبل أن ينطلق على متن القارب مع لويز. ومع ذلك أظلّ عطِشاً على الدوام، هل هذا طبيعيّ؟

- سنتكلّم في الأمر لاحقاً.

عدت إلى البيت، وأمسكت بمنظاري ولاحقتهم بنظري حتّى اختفى القارب في الضباب وراء هوغا سسكاريت.

لم يبق سوانا، أنا والكلبة. صديقتي كارّا.

خاطبتُها قائلاً:

- سترين! لوقت قصير سيعود كلّ شيء صامتاً كالمعتاد، ثمّ نبدأ بعدها ببناء بيوت. وستأتي فتيات يسمعن موسيقى صاخبة أكثر ممّا ينبغي، سيصرخن ويشتمن مثل الحوذيّين، وستمرّ لحظات يكرهن فيها هذه الجزيرة. لكنّهنّ قادمات، هكذا هو الأمر، ينبغي أن نعتاد عليه. إنّ قطيعاً من الأحصنة المتوحّشة في الطريق الآن.

كانت كارّا لا تزال تضع شريطها الأحمر. نزعته عنها وتركته يطير في الهواء.

في وقت متأخّر من المساء، وأنا جالس أمام التلفاز، خافضاً صوته إلى أدنى درجة، رحت أصغي إلى دقّات قلبي.

كان دفتر يوميّاتي أمامي. دوّنت أنّ الانقلاب الشتويّ قد مضى.

ثمّ نهضت، ووضعت دفتري إلى الرفّ وأخذت واحداً آخر، فارغاً بَعد.

في اليوم التالي، كتبت شيئاً آخر مختلفاً بالكامل. ربّما رسالة إلى آرييت، الرسالة التي فات أوانُ إرسالها.

(5)

لم يكن الجليد سميكاً ذلك الشّتاء. كان يتجمّع على الأرض وفي الخلجان الصغيرة. إلّا أنّ المياه بقيت صالحة للملاحة. عند أواخر فبراير، مرّت فترة من البرد القارس مصحوبةً بريح شماليّة عاتية. لكن ليس لدرجة أن يضطرّ معها يانْسون إلى إخراج حوّامته المائيّة، وهذا أعفاني من سدّ أذنيّ أيّام البريد.

في أحد الأيّام، بعدما ترك البرد الشديد مكانه لطقسٍ ألطف، حدث معي شيء لن أنساه أبداً. فما إن كسرتُ الطبقة الناعمةً من الجليد التي تغطّي حفرتي وأنهيت استحمامي الصباحيّ حتّى لاحظت الكلبة ممدّدة على الرّصيف، مشغولة بلوك ما يشبه عظم طائر. وبما أنّي أعرف أنّ العظم قد يجرح حنجرة الكلاب، سحبته من فمها، ورميته على أعشاب الشاطئ المجمّدة وأوعزت لكارّا بأن تلحقني إلى البيت.

وفقط بعد أن لبستُ وتدفّأت تذكّرتُ العظم. ولا أعرف حتّى الآن ما الذي دفعني لألبس جزمتي ثانية وأنزل إلى الرّصيف. كان العظم لا يزال حيث رميته. قطعاً، لم يكن ذلك عظمَ طائر. جلست على الرصيف وقلّبته من كلّ الجهات. أيكون لثعلب ماء؟ أو لأرنب بريّ؟

ثمّ فهمت. لا يمكن أن يكون شيئاً آخر، إنّه واحد من عظام قطّتي

المختفية! وضعته عند قدمي وتساءلت عن المكان الذي عثرت فيه الكلبة عليه. تجمّدت حزناً لفكرة أنّ قطّتي عادت أخيراً.

اصطحبتُ كارّا في جولة حول الجزيرة. لم أعثر في أيّ مكان على بقايا أخرى، لم ألتقط أثراً في أيّ مكان. لا شيء غير هذا العظم الصغير الفريد، المرسل كتحيّة من قطّتي لكي تقول لي إنّه لم يعد من حاجة للبحث عنها أو التساؤل بخصوصها. كانت ميّتة، وقد حدث هذا منذ وقت طويل.

كتبت بضع كلمات في دفتري:

الكلبة، العظم، الأسى.

دفنت العظم على مقربة من قبرَي آرييت والكلبة. كان ذلك يومَ بريد. نزلت إلى الرّصيف. وصل يانْسون كالعادة على موعده. بعدما رسا، أعلن لي أنّه يشعر بالتعب وبعطش مستمرّ. وأثناء الليل كان يعاني من تشنجات في بطّتي ساقيه.

– يمكن أن يكون داء السكّري، قلت له. العوارض مطابقة. ليس بمقدوري معاينتك هنا، ولكن أنصحك بالذهاب إلى المركز الطبّي.

– هل هو قاتل؟

– ليس بالضرورة. له علاج.

لم أتمالك عن الشعور ببعض الرضا: لقد تعرّض يانْسون صاحب الصّحة الحديدية إلى أوّل خدش في درعه. مثل سواه من النّاس.

ظلّ يتأمّل إجابتي، ثمّ تناول طرداً كبيراً وقدّمه لي. اعترضت فوراً:

– أنا لم أطلب شيئاً.

- لا أعلم. لكنّه لك. ولا يتطلّب منك دفع شيء.

أخذت الطرد. بالفعل كان اسمي مكتوباً عليه، بأحرف جميلة متعرّجة. دون اسم المرسِل.

أدار يانْسون المحرّك. حتّى إذا كان يعاني من السكّريّ، لا يزال أمامه سنوات طويلة. على أيّة حال سيعيش بعدي، أنا من أرسل لي قلبي أولى رسائل التحذير.

جلست في المطبخ وفتحت الطرد. كان يحتوي حذاء أسود مع لمسة بنفسجيّة في أعلاه. ألحق جاكونيلي طرده ببطاقة يبلغني فيها أنّه «ببالغ السّرور» يعبّر عن «احترامه الكبير جدّاً» إلى قدميّ.

غيّرتُ جوربيّ. ثمّ انتعلت الحذاء وقمت بجولة في المطبخ. كان الحذاء مطابقاً لمقاس قدميّ بشكل مذهل كما وعدني. كانت الكلبة ترمقني من العتبة. ذهبت لأُريَ النّمال حذائي الجديد.

لم أكن أتذكّر آخر مرّة شعرت فيها بمثل ذلك الفرح.

بقيت ذلك الشّتاء أجول يوميّاً لوقت قصير داخل المطبخ، منتعلاً حذاء جاكونيلي. لم أكن أنتعله في الخارج نهائيّاً، وكنت أعيده إلى علبته دوماً.

وصل الربيع في أوّل أبريل. خليجي الصغير كان لا يزال مغطّى بطبقة ناعمة من الجليد، ولكن لن يطول الوقت بها حتّى تذوب هي أيضاً.

بدأت ذات صباح مبكّراً بنقل قرية النمل.

آن الأوان. لم يعد هذا الأمر قابلاً للتأجيل.

كنت أنزع طبقات متتالية، رفشاً إثر رفش، إلى أن تمتلئ العربة اليدويّة. بغتةً اصطدم الرّفش بشيء ما أحدث ما يشبه الرنين. وبعدما رفعت

كميّة أخرى من إبر الصنوبر والنمل، اتّضح لي أنّها كانت إحدى زجاجات آرييت الفارغة. كان في داخلها لفافة ورقيّة. سحبتها وفردتها. كانت صورة لنا نحن الاثنين، ملتقطة في الأيّام الأخيرة من علاقتنا، حين كنّا شابّين.

كنّا نقف على حافّة الماء. ربّما عند ضفّة ريدرفياردن، في ستوكهولم. كان الهواء قد عبث بتسريحة آرييت، فيما أحدّق أنا في العدسة مبتسماً. تذكّرت أنّنا طلبنا من شخص لا نعرفه أن يصوّرنا معاً.

قلبتُ الصورة، كانت آرييت قد رسمت على ظهرها خريطة تمثّل جزيرتي. وكتبت تحتها: **وصلنا حتّى هذه النقطة.**

ذهبت وجلست في المطبخ وغرقتُ لوقت طويل في تأمّل الصورة.

ثمّ واصلت نقل النمال صوب حياتها الجديدة. عند المساء، كان كلّ شيء منتهياً. كانت قرية النمل قد نُقِلتْ.

ذهبت في جولة على جزيرتي. كانت الطيور المهاجرة تحوم فوق البحر. كان الأمر كما كتبت آرييت. كنّا قد وصلنا حتّى هذه النقطة.

ليس أبعد من ذلك. ولكن حتّى هذه النقطة.

نبذة عن المؤلّف

ولد الكاتب السويديّ هنينغ مانكل Henning Mankell في 3 فبراير 1948 وتوفّي في الخامس من أكتوبر 2015. أمضى سنوات عديدة في أفريقيا، في موزمبيق بخاصّة. وبدأ حياته المهنيّة بالكتابة للمسرح. ثمّ كتب عدّة كتب موجّهة للأطفال تعالج مشاكل خطيرة وتنطوي على تعاطف إنساني كبير. إلّا أنّ حفاوة النقّاد والشهرة العالميّة اللّتين حظي بهما لم تترسّخا إلّا بعد صدور سلسلة رواياته البوليسية التي تدور حول شخصية مفوّض الشرطة كورت فالاندير، والتي منحت هذا الجنس أبعاداً سياسيّة وفكريّة غير مسبوقة. منحته الأكاديمية السويديّة عن إحدى روايات هذه السلسلة الجائزة الكبرى للأدب البوليسيّ، كما فاز بجوائز أدبيّة رفيعة في بلدان أخرى. إلّا أنّ بروزه هذا في مجال الرواية البوليسيّة ينبغي ألّا يحجب عنّا رواياته الأخرى، الحافلة بتجارب وأفكار فذّة، كما في هذه الرواية. وكان مانكل في 2010 أحد المشاركين في «أسطول الحريّة»، الذي انطلق من قبرص حاملاً مساعدات غذائية وطبيّة لأهالي غزّة، وداهمته فرقة إسرائيليّة وهو في المياه الدوليّة، في فجر 31 مايو 2010، ممّا دفع الكاتب إلى نشر يوميّاته للرحلة وتوجيه إدانة مدويّة لإسرائيل.

نبذة عن المترجمين

أيف كادوري:

أستاذة وإعلامية ومترجمة فرنسية، ولدت في 1967، حاصلة على ماجستير في الأدب الفرنسي المعاصر من جامعة نيس صوفيا أنتبوليس في مدينة نيس في فرنسا، وعلى ماجستير في ميدان السياسة الثقافية ونشر اللغة الفرنسية من الجامعة ذاتها. درّست اللغة الفرنسية للمغتربين في فرنسا ودمشق، وعملت مقدّمة ومعدّة للبرامج في أكثر من إذاعة سورية ضمن خطة تعاون ثقافية فرنسية—سورية. تقيم حالياً في مدينة مونبلييه الفرنسية.

حازم عبيدو:

صحفيّ وكاتب سوري، ولد في 1973، خرّيج كلّية الإعلام في جامعة دمشق، عمل في مجال التحرير الإعلاميّ في مؤسسة الأغا خان في سورية حتّى 2011، ونشر عدّة مقالات في صحف عربية ومواقع إلكترونية. له مجموعة شعرية صادرة عن دار كنعان في 2009 بعنوان «تتناوبين على بريق المعدن».

وقد صدر بترجمتهما: «الكمنجة السّوداء» لماكسنس فرمين عن مشروع «كلمة للترجمة» في أبو ظبي، 2015، و«النحّال» لماكسنس فرمين عن دار المدى للثقافة والفنون ببغداد، 2016، و«النمل» لبرنار فيربير عن دار المدى للثقافة والفنون، 2016.

الأحذية الإيطاليّة

بدأتُ ذات صباح مبكّراً بنقل قرية النمل. آن الأوان. لم يعد هذا الأمر قابلاً للتأجيل.

كنتُ أنزع طبقات متتالية، رفشاً إثر رفش، إلى أن تمتلئ العربة اليدويّة.

بغتةً اصطدم الرّفش بشيء ما أحدث ما يشبه الرنين. وبعدما رفعت كميّة أخرى من إبر الصنوبر والنمل، اتّضح لي أنّها كانت إحدى زجاجات آربيت الفارغة. كان في داخلها لفافة ورقيّة. سحبتها وفردتها. كانت صورة لنا نحن الاثنين، ملتقطة في الأيّام الأخيرة من علاقتنا، حين كنّا شابّين...

قلبتُ الصورة. كانت آربيت قد رسمت على ظهرها خريطة تمثّل جزيرتي. وكتبت تحتها: وصلنا حتّى هذه النقطة.

ذهبتُ وجلستُ في المطبخ وغرقتُ لوقت طويل في تأمّل الصورة.

ثمّ واصلتُ نقل النمال صوب حياتها الجديدة. عند المساء، كان كلّ شيء منتهياً. كانت قرية النمل قد نُقلتْ.

ذهبتُ في جولة على جزيرتي. كانت الطيور المهاجرة تحوم فوق البحر.

كان الأمر كما كتبتْ آربيت. كنّا قد وصلنا حتّى هذه النقطة.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة

كلمة
KALIMA

AbuDhabi
Tourism & Culture السياحة والثقافة

السعر 90 درهماً

9 789948 233947